أرباب المستوى

حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن

د. محمد باباعمي



أرباب المستوى

حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح اللّٰه كولن



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع : ISBN 978-975-315-487-1

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،

مدينة نصر-القاهرة/جمهورية مصر العربية

هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢-٥

المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com


بسم الله الرحمن الرحيم

"لا شكَّ أنَّ أصحاب المشاريع الكبرى إذا نجحوا -أثناء إنجاز مشاريعهم- في أن يقدِّموا **العقل على العاطفة**، و**التجربة** و**الملاحظة** على **السلوك الحماسيِّ**، وأن يحيطوا مشاريعهم بأنوار الرسالة الربَّانية... إذا نجحوا في ذلك، فلسوف تدخل الحشود المندفعة بالعاطفة تحت تأثير تلك **الحركة الحكيمة المتثبِّتة المتوازنة**، وتنخرط في سلكها، وترقى في تحرُّكها إلى موقع **التعقُّل** و**الاتزان** و**الانضباط**، **فتلتقي** مع أرباب **الاستقامة** وأهل **الاعتدال** على خطٍّ واحد.. وهنا بالتحديد سوف يَبرُز "**أربابُ المستوى**" ممن تفوَّقوا على الجماهير **تبصُّرًا** و**حكمةً** و**فكرًا**؛ **ليتفاعلوا** معهم، و**يقاسموهم** عواطفهم الجيَّاشة وحماسهم المتدفِّق؛ وبالتالي سوف يظهر **فضاءٌ مركَّب** عجيب من **حركة العقل والعاطفة**"

فتح الله كولن، الوعي الجمعي

مجلة حراء، العدد ٢٥

فهرس

القسم الأول
فصول حول العلاقة بين الفكر والفعل

القسم الثاني
فصول ذاتية موضوعية

القسم الثالث

بين مالك بن نبي وفتح الله كولن

القسم الرابع
الأكاديميا والجماعة العلمية

مقدمة

من عادة المقدِّمات أن تكون منهجية، موضوعية، أكاديمية، صارمة؛ إلاَّ أني آثرت في هذا المؤلَّف الذاتيةَ الصادقةَ على الموضوعية الموهِمة؛ أسوتي في ذلك من أعلنها مدوِّية مجلجلة، فقال لا خفر الله له ذمَّة: "أعشقُ الصدق وأمقتُ النمطية؛ ثم إني أفضِّل مخاطبة القلوب الضارعة والأرواح النابضة، جنبا إلى جنب مع العقول الذكية والقرائح الفطنة؛ ولكَم تألمت حين قراءتي لنصوصٍ جافَّة لا همَّ لها إلاَّ التلغيز والتعقيد، تحت مسمَّيات كبيرة، ومبرِّرات كثيرة"...

وصدق من قال "إنَّ السياق ضاغط"، و"إنَّ الإنسان -كما الأسلوب والمنهج- ابن بيئته، وثمرة تربته، ونتيجة سباقه ولحاقه".

من ثمَّ كان "أرباب المستوى"[1] عملا منهجيا أساسًا، يتبنى رسالة واضحة صريحة، مؤدَّاها أنَّ الكاتب لا يعنيه أن ينظِّر ويتبحَّر، ولا أن يقيِّم وينقد، ولا أنْ يقعِّد ويعقِّد... والحال أنَّ أمَّته، في دوائرها المنداحة، تئنُّ وتترنَّح، إذ كلُّ قطعة من وطنه الإسلامي عموما، والعربيِّ بالخصوص؛

---

[1] مصطلح "أرباب المستوى" في فكر الأستاذ فتح الله له أبعاد عميقة، وليس يقتصر على العلماء فقط، إذ لكل شريحة في شرائح المجتمع، ولدى كل صنف من أصناف الخدمة، ثلة ممن يليق فيهم وصف "أرباب المستوى"، ودعوتنا ملحة لتخصيص بحث في هذا المعنى.

بل من العالم أجمع... كلُّ قطعة -بلا استثناء- شاغرة فاها، حائرة هائمة ضائعة، تستمطر القطر من السماء كلَّ حين، وتسأل الله الفرجَ؛ يحدوها الحزن القاتل والأنين...

فهل يجوز "مع ذلك"، و"عند ذلك"، و"بعد ذلك" أن يخلُد المثقف إلى برجه العاجيِّ، وأن يُعمِل فكرَه خارج إطار الزمان والمكان، ليقال عنه: "هو عالم موضوعيٌّ"، أو "هو العالم النحرير"، أو "إنه وحيد دهره وفريد زمانه"؟!

لا، وألف لا...

الاحتراقُ، والمعاناةُ، والمكابدةُ، والكدحُ... هي وقود كلِّ فكر وكلِّ فعل، وهي روح كلِّ علم وكلِّ عمل؛ اليوم وغدًا... بل دائما وأبدًا...

أمَّا النيةُ، والصدقُ، والإخلاصُ، والشجاعةُ... فهي عرصات منهجنا الخالد، الذي تعلَّمناه من قرآننا الكريم، وتشرَّبناه من نبينا الحكيم؛ وإنه بحول الله تعالى، المنهج الذي ارتضيناه وقبلناه، آمنَّا به وعقدنا العزم على اقتحام العلم والمعرفة من بابه؛ ولا ندَّعي أنَّنا بلغنا قدره، ولا أننا أدركنا شأوه، عزاؤنا في ذلك قول ربنا الرحيم: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾(النِّسَاء:١٠٠)؛ ورجاؤنا أن نكون ممن طلبَ الحقَّ، سواء بعد ذلك أدركه أم لم يدركه؛ لا أن نكون ممن طلب الباطل، سواء في ذلك أدركه أم لم يدركه... ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(الأَحْزَاب:٤).

"أرباب المستوى": مقاربةٌ ومحاولةٌ، مقدِّمةٌ وتجربةٌ... في "الجماعات العلمية"، وفي "نظرية المعرفة"، وفي "الرؤية الكونية"، وفي "رؤية العالم"... بل في "علم المناهج"، وفي "الدراسات الفكرية والحضارية"

عمُوما؛ موقنين أنَّ مثل هذه العلوم والمداخل معقَّدة أساسًا، مستعصيةٌ ابتداء؛ ولذا حاول الكاتب جهده، من خلال "أرباب المستوى"، أن يجعلها مستساغةً ميسَّرةً سلسلةً، رفيقةً هيّنةً ليّنةً؛ دليله في ذلك قول نبيّنا الحبيب، عليه صلوات ربي وسلامه: «إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلاَّ زانه، ولا يُنزع من شيء إلاَّ شانه»، ثم قوله كذلك، مخبرا ومبشّرا ومعلّما: «إنَّ الله تبارك وتعالى رفيق يحبُّ الرفق، ويرضى به، ويُعين عليه، ما لا يعين على العنف».

"أرباب المستوى"، وصفٌ لما هو كائن، وتنظيرٌ لما ينبغي أن يكون، بناء على مدخل معرفيّ عرفانيّ غير مألوف في البحوث الكلاسيكية المنفصمة عن أصولها؛ وإن كان مدخلا أصيلا متجذّرا في الفكر الإسلامي، بخاصَّة في عصر السعادة، ثم في العصور الذهبية المتألّقة؛ ولا يدَّعي المؤلّف أنه قد أصاب الهدف، أو أنه قد بلَّغ المقصود؛ ولذا يصدق أن يُعتبر عمله مقدّمة لأعمال أكثر رصانة وتحكُّما، وبذرة لجهود أكثر عمقا وألَقا؛ فهو يقول لكلِّ قارئ خرّيت:

- خذ اللبَّ وذر القشور؛ حباك الله من فضله.
- ابتـغ الحقَّ فيما تأتي وما تذر؛ هداك الله بكرمه.
- اِنْوِ العمل، ولا تركن إلى الترف الفكريّ؛ وفَّقك الله بعزّه.

فليس ثمة علم، مهما علا شأوه، مقياسًا للحقِّ والباطل؛ إلاَّ كلامَ الله تعالى، الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فُصّلَتْ:٤٢). وليس هنالك بشرٌ، مهما سما شأنه، ميزانا للخير والشرّ؛ إلاَّ النبيُّ المصطفى، والحبيبُ المجتبى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾(النَّجم:٣-٥). ثم يتوزَّع الناس مكانةً

وقدرًا، حسب قربهم أو بعدهم من هذا المعين الخالص الصافي، ومن ذلكم المورد العذب الوافي...

والحقُّ أنه يكفي مقدِّمة لهذا السفر نصٌّ للأستاذ فتح الله، اعتُصر منه العنوان اعتصارا؛ لما يحمل من دلالات عميقة، ومن أبعاد دقيقة، ومن معانٍ يليق أن تُعتبر فهرستًا للكتاب، وأن تصاغ قواعدَ في المنهج؛ ضمن مقال بعنوان "الوعي الجمعيُّ"[٢]؛ مما جاء فيه: "لا شكَّ أنَّ أصحاب المشاريع الكبرى إذا نجحوا -أثناء إنجاز مشاريعهم- في أن يقدِّموا العقل على العاطفة، والتجربة والملاحظة على السلوك الحماسيِّ، وأن يحيطوا مشاريعهم بأنوار الرسالة الربَّانية... إذا نجحوا في ذلك، فلسوف تدخل الحشود المندفعة بالعاطفة تحت تأثير تلك الحركة الحكيمة المتثبِّتة المتوازنة، وتنخرط في سلكها، وترقى في تحرُّكها إلى موقع التعقُّل والاتزان والانضباط، فتلتقي مع أرباب الاستقامة وأهل الاعتدال على خطٍّ واحد.. وهنا بالتحديد سوف يَبرُز "أربابُ المستوى" ممن تفوَّقوا على الجماهير تبصُّرًا وحكمةً وفكرًا؛ ليتفاعلوا معهم، ويقاسموهم عواطفهم الجيَّاشة وحماسهم المتدفِّق؛ وبالتالي سوف يظهر فضاءٌ مركَّب عجيب من حركة العقل والعاطفة"...

ولا يسعني أخيرا، إلاَّ أن أذكر بالخير من ساهم في تأليف هذا العمل الجماعيِّ بقسط وافر، ورعاه بعناية واهتمام بالغيْن؛ وأخصُّ بالذكر كلاًّ من الأساتذة الكرام: نوزاد صواش، وأشرف أونان، وجمال ترك، ومصطفى أوزجان، وحميد أولجون، وأنس أركنه، وأجير أشيوق، وإبراهيم الخليل

[٢] مجلة حِراء، العدد: ٢٥ (يوليو-أغسطس ٢٠١١).

يوجاداغ، وبركات الله غفور، وجابر باباعمي... وغيرهم كثير، ممن لا يسع ذكرهم جميعا بالاسم؛ لكنَّ الدعاء من خالص القلب يحفُّهم بحول الله تعالى، وهو الذي لا يُضيع أجر من أحسن عملا...

ثم لا يمكن أن يُنسى جهد الأساتذة الذين راجعوا النسخة المسوَّدة قبل تمامها، وأسدَوا ملاحظات سديدةً، وأهدَوا تعليقات مفيدةً، كانت للمؤلِّف مددًا وسندًا؛ من بين هؤلاء يذكر الأساتذةُ الكرام: مصطفى باجو، ومصطفى وينتن، وصابر عبد الفتاح، وإبراهيم بحاز، ومحمد ناصر بوحجام، ومحمد حمدي، وطه كوزي... ومن خلال ملاحظاتهم تأكَّدت مرَّة أخرى أنَّ العمل الفرديَّ لا خير يرجى منه؛ وأنَّ البركة كلَّها في العمل الجماعيّ، وفي التوافق والتعاون؛ أولم يقل ربنا الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(الْمَائِدَة:٢)، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾(آلِ عِمْرَان:١٠٣)، ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾(الأَنْفَال:٤٦).

ويصدق أن يقال في هذا المقام: "إذا أصبحنا كيانا متوحِّدا وكلاًّ متوافقا، فسوف تتنزَّل علينا من الألطاف ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسوف نمتلك القدرة على رفع أحمالٍ أثقلَ من جبل قاف"[٣]، من هنا نقرِّر "أنَّ اللطف والسند الذي ينزل على الأفراد لن يداني حجمَ اللطف والسند الذي ينزل على الجماعة المتوحِّدة أبدا، حتى وإن كان هؤلاء الأفراد عمالقة في العلم والعرفان، جبالا في الزهد والتقوى، وحيدي أزمانهم في مواهبهم الذاتية وإقبال الناس عليهم وتقربهم من الله جل وعلا"[٤].

---

[٣] فتح الله كولن، مجلة حِراء، العدد: ٢٤ (مايو-يونيو ٢٠١١).

[٤] فتح الله كولن، مجلة حِراء، العدد: ٢٤ (مايو-يونيو ٢٠١١).

فهل لي، أخيرا، أن أهمس في أذن كلِّ قارئ حبيب، بصرخة كصرخة البجعة...

وهل لي، آخرا، أن أغمس في قلب كلِّ عالم أريب؛ أغنية كأغنية البجعة...

فأقول:

"أخي الوفي، يدًا بيد، نحو جماعة علمية (بل جماعات علمية) حقيقة: تُعيد للعلم ألقه، وللمعرفة رونقها، وللمعنى جماله، وللروح جلاله، وللعمل صلاحَه، وللحياة سعادتها، وللأمَّة فجرها، وللغد أملَه، وللآخرة مثوبتها..."

أوليست «يد الله مع الجماعة»، أو لم يقل ربنا الصادق: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العَنْكبوت:٦٩)...؟!

إلى أن يتحقَّق الحلم، يبقى الدعاء موصولا لربِّ العالمين، أن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(الفَاتِحَة:٥-٧).

جاكارتا، أندونيسيا

جوف الليل، يوم ٣٠ جوان ٢٠١٢م



القسم الأول
فصول حول العلاقة بين الفكر والفعل



- السؤال الصغير الكبير
- حديث عن حد العلم، والعلاقة بين الفكر والفعل
- هندسة القلب والروح.. سياحة معرفية، في كتاب "النور الخالد"
- البشرية الحائرة، ودور العالم على ضوء السراج النبوي
- "نظرية كل شيء": بين عجز الفيزياء وتألق الوحي الأستاذ فتح الله كولن نموذجا

السؤال الصغير الكبير

"نويتُ الهجرة..."

هي شرارة الانطلاق، وهي بذرة الانعتاق...

هي البداية في رحلة معرفية، من سِنخ مغايرٍ صورةً وجوهرًا، ومن نوعٍ مختلفٍ وسيلةً وأثرًا...

كان البحث، ولا يزال، عن جواب لسؤالٍ بسيط عميق، لطالما راود الفتى في يقظته وحلمه، عند غدوِّه وحين رواحه... وهو: "ما العلاقة بين الفكر والفعل؟".

ثم جاءت الإجابات تترى، سواءً في ذلك ما كان من مدخل "العقيدة والفكر"، أم "الثقافة والحضارة"، أم "المنهجية وعلم المناهج"، أم "الفلسفة ونظرية المعرفة"... وتوالت تلكم الإجابات... ولا تزال.

وبما أنَّ السؤال ليس نظريًّا محضًا، ولا هو عمليٌّ صِرف، لاءم أن يكون الجواب من الروح نفسِها، وبالنسق ذاتِه، فيجمع بين العلم والعمل، بين الفكر والفعل، بين النظر والتطبيق... لذا تعيَّن الحفرُ، والنحت، والبحث المتواصل... بلا هوادة، ولا توانٍ، ولا انقطاع...

وقعت العينُ، ذات يومٍ، على عدد من مجلَّةٍ بديعة: زهيَّةِ الألوان، محكَمة البنيان، غزيرة المحتوى، رائقة المعاني... فألهمَت الفتى بما تحويه من خواطر ومقالات، وبما تزخر به من أفكار وطروحات... ثمَّ

تجاوز حدَّه، فخطَّ مقالاً بعنوان: "الإنسان محور التنمية في المنهج القرآني"؛ وجرَّب حظَّه، فأرسله إلى هيئة التحرير، لعلَّ الله ييسِّر نشره... ومن آمال الباحث في عالمنا العربيِّ، اليومَ، أن يجد من يشجِّعه، ويرفع من معنوياته، فيهتمَّ بما يكتب من أعمال ومقالات، وبما يبدع من بحوث ودراسات...

لم يمض وقتٌ قصير، حتى اكتشف الفتى أنَّ مقاله وقع بين أيدٍ أمينةٍ، فأخرجتْه في ثوب قشيب؛ وما درى الفتى، حينَها، أنَّ الغيب يُخفي له ما لا يقدِر على فهمه وتفسيره؛ حتى جاء اليومُ الذي زار فيه تركيا، للمرَّة الثانية، فأرشده بعضهم إلى مؤسَّسة قصيَّة، تعرف باسم "أكاديميا"، تقع في الجهة الآسيوية من مدينة الإسلام "إسطنبول"، على تلال "شَامْلِشا" الفيحاء؛ فسَّارع إلى زيارتها ليلا، وقد قيل له: "إنَّ هذا المركز يعمل فيه باحثون، مختصُّون في فكر عالمٍ يسمَّى الأستاذ محمد فتح الله كولن"، فغمرَ عينيه بجمال المبنى وشموخه، ولم يشأ الله تعالى أن يلجه، مكتفيا بزيارة بيت الطلبة المجاور له...

وعاد الفتى إلى وطنه، غير أنَّ الصورة المعنوية "للأكاديميا" بقيت عالقة في مخيِّلته، ولكَم رآها في حلمه رأي العين، وتمنَّى يوما تمكِّنه فيه من الوصال، فتفتح أمامه أبوابها، ليعانق بروحه روحَها، ويتملَّى بجميعه سبائب حسنها... ولقد يشاء الله تعالى فيحرِمه منها، وهو في كلِّ الأحوال، سبحانه، حكيم حليم... رحيم عليم... ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(التَّكْوير:٢٩).

لم يصبر الصبُّ المعنَّى، وأنَّى له أن يصبر، والشوق قاتلُ الفتى بلا حسام، ولقد يكون جمرُ الفصال أشدَّ على القلب من لهيب الوصال... لم

يصبر، حتى زمَّ حقائبه عائدا إلى هنالك، مع رفقة زكية أبية، ممن يحلو السفرُ معهم، وممن يقال فيهم ما قال تعالى للملائكة السيَّارة، عن عباده الذاكرين: «هم القوم لا يشقى جليسهم».

أمام باب "الأكاديميا" وقفَ الفتى مشدوها، كالعروس يلحظ أوَّل نظرةٍ ليلة العرس؛ وقف، ثم سأل الله "حسنَ العاقبة"، فاقتحم الصرح، وهو يخيَّل إليه أنّه "بطل في ساح الوغى"...

كان في استقباله رجلٌ يغرف الأدب من بحر، ويعبُّ الفطنة من محيط... رجلٌ يأسر القلوب قبل العقول، وهو مع ذلك لا يقول "أنا"، ولا "نحن"... بل إنَّ حديثه جميعَه عنه "هو"... أي عن فتح الله، ذلكم القائد الخرِّيت، الذي عرَّف الناس بـ"الكريم المنَّان" ﷻ، فكان دليلَ خيرٍ لهم إلى الحكيم ذي الشَّان... ذلكم الرجلُ الذي أعاد للشهادتين -في بلاد الأناضول- رونقهما وجمالهما... ذلكم المجدِّد الذي أحكَم تعريف الواردات والفيوضات، فوصل كلَّ شيء بسببه الحقيق، وهو في ذلك يقتفي أثر "ذي القرنين"، الوارد فيه شهادةً من ربِّ العزَّة والإكرام قولُه: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(الكهف:٨٤-٨٥)، وفي روايةٍ: "فاتَّبع سببًا".

وفي الباب ودَّعه الأديب الفطِن، ثم استودعه اللهَ الذي لا تضيع ودائعه، ولقد عرَّفه بـ"الخدمة"، وبمعنى "أن نعيش للآخرين"... وشرحَ له دلالات الهجرة والهمِّ، وصروف المعاناة والهمِّة... وكان محورُ حديثه مقطعٌ من شريطٍ للأستاذ، يفسِّر فيه -باكيا معتذرا، معترفا بالتقصير، واعدا بالنصر- حديثًا لرسول الرحمة ﷺ: «ليبلغنَّ هذا الأمر مبلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاَّ أدخله الله هذا الدين»....

ولقد حمل الفتى معه، مِن هنالك، أسفارًا وكتبًا، فنِّية العنوان، متقنة العرض، تغري القارئ النهم، مثلي... جميعُها من تأليف فتح الله؛ فلم يصبر طويلا، بل راح يلتهمها التهاما، ويغرف مما تحويه غرفًا... كأنَّه يخشى حضور أجله قبل تمامها... ثم ما لبث أن أطفأ جذوةَ ظمئه، وجاهد واجتهد -بعد ذلك- في سقْي مَن حوله وما حوله؛ ولعلَّه كان في ذلك قاصرا، لكنه حرص على أن لا يكون مقصِّرا.

تكاثفت العلاقةُ وتشابكت، فتسارع الزمان وطُوي المكان؛ حتى إنَّ الحالَّ المرتحلَ أحيانا يخطئ فيقول "هنا" وهو "هنالك"، أو يزلُّ فيصف "هنالك" بأوصاف "هنا"... ولا يدري بالضبط أيَّ بلد يعرِّف، ولا أيَّ مؤسَّسة يصف... والبركة إذا نزلت أحالت البذرة جنَّةً، والقطرة نهرًا، والزخَّة من الثلج جبلاً... ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾(القَصَص:٦٨).

وما هي إلاَّ ثلاث حِجج، حتى يمَّم الفتى وجهه شطر "كندا"، وفي لحظاتٍ نورانية مع خلاَّن أوفياء، عقدَ الفتى عزمه، فواصل التنقيب والحفر في سؤاله الذي حمله معه أينما حلَّ وارتحل،[١] ولا يزال، ولن يزال، لكنَّه عدَّل صيغته، ليكون أكثر التحاما بالفعل الحضاريِّ، وبالواقع العملي: "كيف يتحوَّل الفكر إلى فعل؟".

ولقد ولِد على إثر السؤال نموذجٌ جديد، نُحِت من كتاب الله تعالى،

---

[١] يذكر أنَّ الفيلسوف النمساوي "فتجنشتين" بنى لنفسه كوخا بسيطا، في مكان منعزل، عاش فيه أمدا طويلا، مع تأملاته عن فلسفة المنطق والرياضة، وعن طبيعة العلاقة -التي كانت تؤرقه وتقلقه- بين اللغة والفكر من ناحية؛ وبينهما وبين الواقع من ناحية أخرى. ونودُّ أن نستفيد من هذه الملاحظة ذلكم الصبر والتفاني، الذي عُرف به الفيلسوف المذكور، وكذا دقة السؤال والمشكلة. (انظر: بحوث فلسفية؛ تقديم عبد الغفار مكاوي، منشورات جامعة الكويت).

واختير له اسم "نموذج الرشد"، وما إن التقى النموذج بالمعاني الفيَّاضة التي نسجها فتح الله نسجًا ساحرًا، حتى هلَّ بحثٌ بعنوان: "المراحل السبعة لتحويل المعلومة إلى معرفة في فكر فتح الله كولن".

وكعادة الفتى، تشجَّع فأرسل بحثه إلى "حراء"، غير أنَّ طبيعته وحجمه لم يكونا ليسمحا بنشره فيها، فحزن حزنا شديدًا، وتيقَّن أنَّ الخيرةَ فيما اختار الله، ولم يردِّد ما ألف بعض الناس ترديده: "لعلَّ الخير في ذلك"... بل أوْكَل أمره إلى الله وحده.

كان الفتى ذات ليلة يطالع، وضَوْءُ فراشه فوق رأسه، فرنَّ هاتف من أقصى الأرض، قطع عليه مطالعته ليصله بأملٍ مشرق، فكان من هنالك، مِن وراء الخطِّ، رجلٌ لا يعرفه الفتى عيانا ورسما، لكنَّه عرفه معنى ووسمًا، فقال اللبيبُ: "قرأت منذ ساعة ما كتبتَ، في مقال "المراحل السبعة"، وكنتُ على متن طائرة، محلِّقا، فوجدتُني قد حلَّقتُ أعلى وأعلى، بما جاء في عملكم من دلالاتٍ ونفحاتٍ"...فدعا وشكر، ثم ودَّع وحيَّر...

شدِه الفتى، وطوى صحائفه، ثم ردَّد عبارات الهاتف العجيب، والليلُ ليل، يغري ويُسبي، ولقد قال عنه قائلهم: "وظلمة الليل تغريني فأنطلق"[٢]... فانطلقَ، وهو يفكِّر ويقدِّر، ويقدِّم ويؤخِّر... يستنطق الأسباب والسنن، ويسأل اللهَ المنحَ والمنن.

---

[٢] من قصيدة لشاعر الثورة الجزائرية، مفدي زكرياء، عنوانها "بنت الجزائر"؛ مطلعها:

سيان عندي مفتوح ومنغلق ... يا سجنُ، بابُك، أم سدَّت به الحلَق

وفيها يقول:

أنام ملء عيوني، غبطة ورضًى ... على صياصيكَ، لا همٌّ ولا قلق

طوع الكرى، وأناشيدي تهدهدني ... وظلمة الليل تغريني فأنطلق.

بعد أيام، كان الفتى على متن طائرة، وجهة الأردن، في رحلة مكثَّفة، كالبرق مرَّت، ثم أمطرت وأخصبت، وقد شارك بمحاضرة هي نفس عنوان المقال المذكور... ثم ما لبث أن عاد إلى وطنه.

لم يكن الفتى -بحمد الله تعالى- أثناء هذه النفحات، وهو في وطنه عزيزا مكرَّما، لم يكن قابعًا، ولا ناقمًا، ولا تائهًا، ولا باحثًا عن وظيفٍ أو حظوة، ولقد يسَّر الله أمره وأحسن مثواه، بفضل منه ومنّة وكرم... وكتبَ له أن يحظى برفقة "جماعة أو مجموع"، وأن يتحرَّك ضمن "نسق خصب"، كان هو أحدهم، ولم يكن أفضلَهم، بل إنه عدَّ نفسه ولا يزال، خادمَهم، وراعيهم، والمؤمِّل فيهم ومنهم... فنشأت على إثرهم مؤسَّسات: منها مدارس ومكاتب ومعاهد، ومنها ملتقيات ومؤلَّفات وبعثات... كان آخرها "معهد المناهج" و"مؤسَّسة فيبكوس" (Veecos)، ولقد كان أوَّلها "مكتب الدراسات" و"المدارس العلمية"... وما بين ذلك أفكار ومشاريع وإبداعات، لا يُعرَف اليومَ حجمُها ولا يحصر حدُّها...

ولقد اختُبر روَّاد هذه المشاريع، فكانوا بحمد الله ممن يحتسبون الأجرَ عند الله، ولا يعنيهم أن يقال عنهم أو فيهم أو لهم... الواحدُ منهم يردِّد في جوف الليل خاشعًا، باكيًا، سائلا القبولَ... يردِّد سمفونية الأنبياء عليهم السلام، التي تلقَّوهما من ربِّ العزة والإكرام: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(الشُّورَى:٢٣)...

وجاء الصيف، وليس كلُّ الصيف حيفًا، ولا كلُّ صيف لغوا، ولقد شطَّ كاتب فوصفه في كتاب اختار له عنوانا: "مِن لغو الصيف إلى جدِّ

الشتاء"[٣]... لا ليس الحال كذلك، وإنما الصيف زمنٌ من أزمنة الله تعالى، خيرُه خيرٌ، وشرُّه شرٌّ: الخير والشرُّ فيه من اختيار البشر وحدهم... أمَّا مَن آل على ذاته التحرُّر من قيود الإدارة والوظيف، وحمل نفسه على مضاعفة العمل والبحث كلَّما اشتدَّ الحرُّ ولفح القيظ... أولئك يجدون في الصيف طعما وحلاوة لا توصف، فالصيف عندهم حقلٌ لأزهى الأعمال والمنجزات، ومناسبة للإقلاع وقطع المسافات...

جاء الصيف، فحاول الفتى أن يتشبَّه بالكرام، إذ لم يكن مثلهم، فحمَل قلبه وعقله، ورافق أهله ووِلده، ثم يمم شطر "إسطنبول"، بدعمٍ كريم، مِن عزيزٍ حميدِ الخصال، طيِّبٍ كريمِ الفعال... فاستقرَّ بها الفتى ما يربو على ثلاثة أشهر، يقرأ ويحفر، يحلل وينحت، يركِّب ويصقل... ثم يكتب ويشطب... مستمدًّا العون من الكريم العليم؛ حتى استوى المؤلَّف على سوقه، فقدَّمه "للأكاديميا" هديةً من مقترٍ مقلٍّ، وتبرُّعا من مُريد محبٍّ... قصاراه أنه أهدى بعضًا من مهجته وفؤاده، وفدى بعصارةٍ مِن فكره وقلبه... باحثا عن الحقيقة في معادنها...

ثم عاد الفتى إلى أرض الوطن.... ليستأنف المجاهدة، بما أوتي من قوَّة، موقنا بقصوره، مقتنعًا بتقصيره ضمن "وعائه الحضاريِّ"، بكلِّ ما يحمله من خصائص مستمَدَّة من "النسيج الحضاري"... وهل يضير النخلةَ أنها ساكنةُ الواحات، والحالُ أنَّ تمرها يغري الملوك، حتى وإن ارتقوا أسمى الغايات، وبلغوا أعلى الدرجات!

وبعد أمدٍ، أعاد الفتى الكرَّة، وجاء رفقة عشرين من مديري "المدارس

---

[٣] هو كتاب لطه حسين؛ طالعته قبل عقدين أو أكثر؛ نشر دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤.

العلمية"، يبتغي وصلا لمن أحبَّ، ويهفو إلى رؤية من تكرَّم ولم يهجُر، وسخى ولم يبخل... ثم يشاء الله أن يلتئم الجمعان: جمع "المنظومة" زائرا، وجمع "الخدمة" مَزُورًا... ويكون ذلك في القاعة العلوية لصرح "الأكاديميا"... وخلال جلسة دعوةٍ وتناصح وأنس، فوجئ الفتى بهدية من أخٍ عزيز، سِفرا كتِب على صفحته العلوية: "البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، على ضوء نموذج الرشد"...

لهج القلبُ قبل اللسان، حامدا، شاكرا، مستغفرا، داعيًا: "الحمد لله على هذه الثمرة، وعلى هذا المؤلَّف المحاولة، وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا...".

ولمَّا يرتو الولهان بعدُ، بل زاده الماء الزلال عطشا، وأنار له ضوءُ الشمس دربا جديدا؛ للبحث عن حقيقة لطالما صوَّح سائلا عنها: "كيف يتحول الفكر إلى فعل؟" أي: "لماذا بعض الفكر، ومنه فكر فتح الله، يتحوَّل إلى واقع وفعلٍ حضاري، وبعضه الآخر يبقى رهين النظر وحبيس التنظير؟!"

أثناء ذلك، بل قبل ذلك بوقتٍ قليل، قيَّض الله شبابا، جاؤوا ليغترفوا الحكمة من المعين الشافي، وليعبُّوا العلم من النبع الوافي؛ فسمِّيَت بعثُتهم، أو إن شئت فقل هجرتُهم، ببعثة "الخلائف"؛ وكان المقصد أن يتمثَّلوا صفات خلائف الله في الأرض، بما تحمله الخلافة من دلالات عميقة، عرفانية ومعرفية، حضارية وفكرية، لا مجرَّد شعار وادِّعاء، أو ظلٍّ للحقيقة وتزييف للمعاني.

فهل -يا ترى- سيفعلون؟ وهل -يا ترى- سيقدِرون ويقدِّرون؟ وهل سيشحذون وارداتهم وإراداتهم؟ وهل سيكونون تعزيزا لفريق السائلين الحائرين المشدودين إلى المعنى، فيسألوا بلا توانٍ ولا تردُّد: "كيف

يتحوَّل الفكر إلى فعل؟"

ذلك، ما نأمله بعون الله تعالى...

وقد بلـغ المولَّهَ المهموم، والساعي للهدف المروم، وهو منهمكٌ في التأليف، خبرُ نجاح "الخلائف" بامتيازٍ في مسابقات الولوج إلى الجامعات التركية، فكتب مقالا رمزيًّا، جعل له عنوانا: "الحفرُ بحثا عن المنظومة!"، ومما ورد فيه على لسان الفتى: "غرفتُ بيدَيَّ سلافة الحضارة والتمكين، وشربتُ حتى ارتويتُ، ثمَّ التحقتُ بالركب، قطرةَ ماءٍ في بحر، وذرَّة ترابٍ في فلاة، وأنا أردِّد بصوت عالٍ، ما علَّمنيه أستاذي الساعةَ: اليومَ يومُ الفعال، إن لم أنهض للعمل، فلن ينهض غيري... اليوم يوم الفعال، اليوم يوم الفعال..." فشمَّر العاشق عن ساعديه، وواصل الحفر، ولا يزال... ثم زار وفدٌ مباركٌ من "حراء" بلدَ الفتى، فحلُّوا ضيوفا على جزائره الحبيبة، يومَها انتشى الربيعُ، وانتشرت القلوب، فتقتقت البراعم عن زهر وورد؛ لكنَّ الزيارة لم تدم طويلا "وساعات الهنا تمر عجالا..."[٤].

ثم، بعد أيام استُدعي الفتى إلى "الطابق الخامس"[٥]، رفقة ثلة من خيرة العلماء والباحثين من العالم العربي، وثلة أخرى من العاملين المبدعين في مشاريـع "الخدمة"، ولقد طُلب منه إعداد ورقة بحثية، أو محاضرة

---

(٤) في قصيدة عصماء لمصطفى صادق الرافعي، يقول:

ليلـة بعـد ليلـة بعـد أخـرى   وليالـي الهنـا تمـرُّ عجـالا

(٥) الطابـق الخامـس: مصطلحٌ خـاص بالخدمة؛ وهو إشـارة إلى مكان تدريس الأسـتاذ أوان الملاحقـات الظالمـة، وبقـي المصطلح بهذه الصيغة، حتى وإن لـم تكن الحلقة في الطابق الخامس حقا؛ واليوم يقال مثلا: "إنَّ الأسـتاذ يلقي مواعظه من الطابق الخامس في أمريكا" والحال أنها فيلا، وليست شققا ذات طوابق.

معرفية... ثم بعد جُهد وفكر، وبعد كدٍّ وعصر... استوت المحاضرة على سوقها، فاختار عنوانا لها: "بين مالك بن نبي، وفتح الله كولن، مقارنة مختلفة، باعتماد الأحجية العلمية منهجا"... وألقاها على الحاضرين الضيوف، وهو أحدهم... ثم ارتوى مما كتبوا وقرأوا، وانتشى بما فكَّروا ونثروا؛ لكأنَّ القدر بدا يضمِّد جرحا غائرا منذ عقود، فيجمعُ شقيقين عزيزين على صعيد واحد، ولقد عصفت عليهما أعاصير العصبية القاتلة، ففرَّقت شملهما... وها هي الرياح تهدأ -نسبيًّا- والمياهُ تعود إلى مجاريها، وها هو الحرف التركيُّ يعانق الحرف العربيَّ، والفكر العربيُّ يقبِّل فكر آل عثمان، ولا عجب، فهما من ثمار شجرة الإيمان... ويولدُ الأمل من رحم التفاؤل... فتخطو الجموع من هنا أولى خطواتها نحو التمكين من جديد...

لم ينس الفتى سؤاله، بل راح يحمله معه أينما حلَّ وارتحل، ولقد آن الأوان ليفصح عمَّا في خاطره من مشروع، وليجد بعض الوقت ليغوص في عمق فكره... فقطع المسافات الطويلة، وتحمَّل وتشجَّع ونوى، ثم كسر كلَّ إخلاد إلى "الأرض"، أو "العادة"، أو "الوظيف"، أو حتى "المسؤولية" بمدلولها الضيِّق... ولقد عدَّ نفسه ميِّتا، ففوَّض كلَّ أمرٍ من أموره، وأسند إلى أيدٍ أمينة كلَّ مسؤولية من مسؤولياته...[٦] ولقد وجد أنَّ الدنيا ستواصل مسيرها به أو بدونه... فما كان منه إلاَّ أن كتبَ رسالةً إلى إدارة "الأكاديميا"،

---

[٦] يحسن هنا أن يذكر مسؤولو مشاريع "المنظومة المعرفية الرشيدة" بخير؛ من مديري "المدارس العلمية والقرآنية"، ومن المعلِّمين، ومسؤولي "معهد المناهج وفيبكوس"، وكذا أعضاء "المجمع العلميّ"... وغيرهم، ممن يحلو لي أن أسأل الله تعالى أن يأخذ بأيديهم، ويتقبَّل منهم جهادهم وهجرتهم، وصدقهم وصبرهم؛ وكلِّي يقين أنَّ وجودي هو عرقلة لهم، وأنَّ غيابي -بحول الله- فتحٌ وأيُّ فتح... فواحسرتاه مِن ضعفي وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس... وإني أقدِّر حسنَ ظنهم فيَّ، بارك الله فيهم.

خطَّ في أوَّل سطرٍ فيها عبارة: "نويت الهجرة..."؛ ثم عرض عليهم مشروعَه للتفرُّغ، استجابةً منه لداعي البحثِ من قِبلهم، فتوكَّل على الله وحده، وختم الرسالة، وأخفى السرَّ، ثم عقد النية وقال: "على الله توكَّلنا"...

بعثَ الرسالة مودَعة القدر الحكيم، داعيا المولى أن يحسِّن عاقبتها، كما حسَّن عاقبة كليم الله موسى عليه السلام، يوم ألقته أمُّه في اليمّ، بأمرٍ من ربها، مطمئِنًا لها: ﴿لاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(القَصَص:٧)... وحسبَ الفتى أن يأتيه الجوابُ يحمل البشارة الكبرى بالهجرة، ثم حسبُه أن يعود بعد أمد إلى وطنه، إذا عاد، لينذر قومه "لعلَّهم يحذرون"!.

حرص الفتى على كتم السرِّ، مستذكرا مقولة محمَّد الفاتح يوم نوى فتح القسطنطينية: "لو علمتُ أنَّ هذه اللحية قد اطَّلعت على السرِّ، لقطعتها"...

والفتح فتحٌ... والسرُّ سرٌّ...

ثم طال الانتظار، حتى بدا اليومُ شهرا، والشهرُ سنة، فظنَّ الفتى أنه لم يرقَ بعد إلى مقام القرب، وأنه ليس أهلا للوصل، ثم قبِل ورضي واعترف بقصوره وتقصيره... داعيا متوكِّلا محتسبا...

وجاء يومٌ، تنادت فيه الجموع، أنَّ "حراء" المجلَّةَ تنوي زيارة الجزائر، وأنها نوت أن تتخذ "معهد المناهج" محطَّتها ومنطلقها، تنتشر منه إلى غيره... يومَها بدا المعهد أفسح من ذي قبل، وحينها سطع نور أضاء الآفاق الرحيبة للقلوب... فعلِّقت الأعلام، وتوالت الأحلام...

كانت الجموع منهمكة في التحضير... إلى أن جاءت الساعة المشهودة... ساعةُ الحسم... وفي قاعة الشاي الأخضر المنعنع، قبْلَ

بداية العرض والمحاضرة، جلس الأديب الأريب إلى جوار الفتى، فقال له بصوت خفي، ونجوى حلالٍ: "لديَّ بشرى لك... لقد كنتُ في أمريكا عند الأستاذ فتح الله، فأعطى إشارة البدء في إيفادك إلى "الأكاديميا" باحثًا... فبشرى لنا... ثم بشرى!".

لم يدرك الفتى أهو في عالَم الحقيقة أم هو في عوالم الأحلام؟ أحقًّا ستُكتب له الهجرة قريبا؟ ماذا عن البلد وعن المشاريع؟ وماذا عن الولد والأهل؟ بل، ماذا عن "الوعاء الحضاري" والحضن الوطني؟

ما هي إلاَّ أيام قلائل، مسرعة سرعة الضوء والبرق، حتى ألفى الفتى نفسه يبرمج ويحضِّر، ويقدِّم ويؤخِّر... ولقد أعدَّ نفسه لمثل هذا اليوم، فأوكل -من قبلُ- المهامَّ والمسؤوليات لشباب اعتقد فيهم خيرًا... ألا ما أشبه مثل هذه الساعة بساعة الفراق الأخير... فوالله إنها ﴿لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾(الذَّارِيَات:٢٣).

ها هو الآن، اللحظةَ... بقدرة القادر العليم، وتدبير المنعم الحكيم، على متن طائرة، مع أهله وولده جميعا، إلاَّ قرَّة عينه الربيع، ونعمُ الدنيا لا بدَّ لها من منغِّص... ها هو ذا مهاجِرا إلى الله ورسوله، ناويًا التخلُّص من الأدران، على رأسها ذنوبه وكسله وارتباطه بالدون... مستعدًّا للمواجهة والصبر والمصابرة... العواطفُ منه تغالب الأفكار، والأحاسيسُ تغمر القلب... إلاَّ أنَّ الفتى لم ينس سؤاله الصغير الكبير:

"ما العلاقة بين العلم والعمل، وكيف نحوِّل الفكر إلى فعل؟".



حديث عن حدِّ العلم، والعلاقة بين الفكر والفعل[٧]

تقوم الفيزياء الحديثة على ركيزتين أساسيتين، هما:

١-النظرية النسبية العامَّة لأينشتين[٨]؛ وهي تمنحنا الإطار النظريَّ لفهم العالَم في أبعاده الكبرى: الكواكب، النجوم، المجرَّات... الخ.

٢-ميكانيكا الكمِّ[٩]؛ وهي تمنحنا الإطار النظريَّ لفهم العالم في أصغر

---

(٧) مجلة حراء، العدد:٣٠ (مايو-يونيو ٢٠١٢).

(٨) تشتمل النظرية النسبية على عدة أفكار أهمها باختصار بحسب ذاكرتي:

١- مفهوم الزمان والمكان و قد اشتق منه لفظ "الزمكان"؛ ومنه نتج مصطلح انحناء الزمكان، وهو عند وجود الكتلة أو الطاقة يصبح الزمكان مشوهاً بانحناءٍ، بدلا من أن يكون مستقيما؛ وقد أثبت أنَّ الضوء لا يسير بخطوط مستقيمة، بل ينحني بمقدار معين.

٢- فسَّرت النسبية العامة الجاذبية على أنها نتاج انحناء الزمكان بسبب الكتلة أو الطاقة؛ لأنها تقوم بصنع انحناء للزمكان، يتولَّد مجال جاذبية حولها؛ وقد خالف بذلك مقولات نيوتن أنَّ الكتله هي ما يسبب الجاذبية.

٣- عندما يحدث اضطراب في الشحنة ينتج عنه موجات كهرومغناطيسية سميت بـ"أمواج الجاذبية".

٤- لا يوجد فرق بين المادة والطاقة، فالكتلة تتحول لطاقة إذا سارت بسرعة الضوء وذلك بحسب القانون E=mc٢، أي أنَّ الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء؛ ولأنَّ المادة مكونة من ذرَّات، والضوء مكوَّن من ذرات، فلا يوجد فرق بينهما.

٥- الكون مكوَّن من أربعة أبعاد "الطول، العرض، الارتفاع، والزمن"؛ أمَّا الآن، وبعد ظهور نظرية الأوتار الفائقة، فالكون مكوَّن من أحد عشر بعدا.

٦- كلَّما زادت سرعة الجسم يحدث تباطؤ في زمنه؛ حتى أنه إذا وصل لسرعة الضوء يصبح الزمن قليلا جدا "وهذا مستحيل". أمَّا إذا تجاوز سرعة الضوء فإنَّ الزمن سيتوقف "وهذا مستحيل أيضا".

(٩) ميكانيكا الكمّ، فزياء الكم، أو النظرية الكمومية (quantum theory): نظريّة فيزيائية أساسية، جاءت كتعميم وتصحيح لنظريات نيوتن الكلاسيكية في الميكانيكا. وخاصة على المستوى الذري ودون الذري. تسْميتها بـ"ميكانيكا الكم" يعود إلى أهميّة الكم (:quantum plural

أبعاده: الجزيئات، الكواركات... الخ.

كان الاعتقاد أنَّ كلا النظريتين صحيحتان؛ وهذا ما منح الفيزياء راحةً لمدَّة قصيرة، ثم ما لبث العلم أن وصل إلى مشكلة معقَّدة غير مريحة، وهي: أنَّ إحدى النظريتين تنفي الأخرى، فهُما متعارضتان، بحيث لا بدَّ أن تكون إحداهما فقط على صواب، والأخرى بالضرورة تكون على خطأ.

لكن، لماذا حدث هذا التناقض الحادُّ؟

ذلك أنَّه في معظم الحالات يقوم الفيزيائيون إمَّا بدراسة الأشياء الكبيرة فقط، أو بدراسة الأشياء الصغيرة فقط، ولا يجمعون بينهما في آنٍ واحدٍ، بحكم التخصُّص الدقيق، وضعف الوسائل، والاهتمام البشريِّ المحدود... الخ.

الآن لنستبدل المجال والنظريتين، ولنتحوَّل إلى الفكر والحضارة الإسلامية، لنجد أنَّ مجمل تراثنا الحضاري موزَّع على جانبين:

١-إمَّا الجانب العلميِّ النظريِّ؛ وهو غالبا ما يكون من اختصاص العلماء، والطلبة، ومن يدور في فلكهم.

٢-وإمَّا الجانب العمليِّ التطبيقيِّ؛ وهو ميدان السياسيين، والتجَّار، والعسكريين، ومن يحوم في حقلهم.

والتعارض بين الجانبين، حتى وإن لم يكن مطلقا في تراثنا الإسلامي المعاصِر منه بالخصوص؛ إلاَّ أنه في كثير من الأحيان كان مهيمِنا، فهو معيار التخلُّف والضعف في أغلب الأحيان؛ وهذا حال أمِّتنا الإسلامية

---

quanta) في بنائها (وهو مصطلح فيزيائي يستخدم لوصف أصغر كمّية يمكن تقسيم الأشياء إليها، ويستخدم للإشارة إلى كميات الطاقة المحددة التي تنبعث بشكل متقطع، وليس بشكل مستمر).

اليوم، إلاَّ ما شذَّ. ذلك أنَّ ثمة هوَّة وشقَّة بين العلم والعمل، بين الفكر والحركة. وهذا غير ما كانت عليه في العهد النبويِّ الزاهر، وفي العهود المشابهة له، المستقاة منه.

السؤال المترتِّب والبدهي، هو: لماذا هذا التعارض؟

الجواب، بناءً على ما مضى في التوطئة، هو أنَّ العلم وأهله، عادةً، لا علاقة لهم بالواقع؛ وأنَّ الواقع وأهلَه، عادةً، لا علاقة لهم بالعلم؛ من هنا ولد الانفصام.

ولكن، إلى هنا، يبقى الجواب مجرَّد وصفٍ، والوصف لا يدفع إلى العمل، فهو إجراءٌ مختزَل عاجز؛ ومِن ثم لزم تحديد سببٍ، أو أسبابِ هذا الانفصام المحير فكريا وواقعيا.

ولقد حاول العديد من العلماء أن يؤلِّفوا -إجابة على هذا السؤال الهامّ - في الفعالية، وفي مشكلات اللفظية، وفي العجز عن الفعل، وفي النزعة الخطابية... وما إلى ذلك من المحاولات المشكورة، والتي نبَّهت إلى بعض الأسباب القريبة والبعيدة، الظاهرة والخفية.

ونموذج الرشد، يضعُ هذه المعضلة في اللبِّ، وفي رأس قائمةِ الاهتمامات؛ ولذا كانت الخاصية الأساس لهذا النموذج هي "حركية الفكر والفعل"، أو ما يطلِق عليه "كيث ديفلين" عبارة "تحويل المعلومة إلى معرفة، والمعرفة إلى سلوك".

فنموذج الرشد، إذن، يتخطَّى عقبة "إمَّا وإمَّا"، أي "إمَّا الفكر وإمَّا الفعل"، "إمَّا العلم وإمَّا الواقع"؛ ويؤسِّس لعلاقة تقوم على أساس "كذا وكذا"، أي "العلم لأجل العمل"، و"العمل أساسه العلم"، و"كلُّ علم لا يفسَّر إلى فعلٍ حضاريٍّ، يسهم في رقيِّ الأمَّة وازدهارها، هو مجرَّد

ضياع للطاقة"، و"كلُّ واقع دينيٍّ، أو اجتماعيٍّ، أو سياسيٍّ، أو تربويٍّ، أو اقتصاديٍّ... أو غير ذلك، ليس له جذورٌ ذاتيةٌ أساسية في عِلمٍ ذاتي أصيل، هو مجرَّد تشويه لروح الأمَّة، ومسخ لكينونتها".

ولملاحظٍ أن يلاحظ أنَّ العلم له حدودٌ، وأنَّ النموذج قد يكون قاصرا عن الوفاء لهذه الثنائية، تماما مثلما كانت الفيزياء بشقَّيها عاجزة عن الوفاء للصورة الكلية للكون؛ فالجواب بالطبع أنَّنا لا ندَّعي الشمولية في الكمِّ، وأنَّ التركيز هو على الكيف، ولو في أبسط وأصغر فكرة، أو أبسط وأصغر فعل؛ المهمُّ فيهما أن يتَّسما بالحركية وبالتبادل، أي أن يكون بينهما جسر واصل، وخيط موصل.

ولنمثِّل بفعل يوميٍّ يمارسه الكثير من الناس، وهو شراء جريدة في الصباح، والاطلاعُ على أهمِّ العناوين، ومطالعة أبرزِ الفقرات، والتركيز على أكثر المواضيع إثارة؛ فكثيرا ما سأل الشباب: هل هذا فعل حضاريٌّ يدلُّ على أنَّ صاحبه يقرأ، ويطالع، ويهتمُّ بأمر البلد؟ أم هو فعل اعتياديٌّ لا يتميِّز بسمة الحضارة والفعل الإيجابيِّ؟

هنا يكون الجواب، بناء على نموذج الرشد، وبناء على جدلية الفكر والفعل، أنَّ مَن يشتري الجريدة، بغرض الربط بين ما فيها من معلومات بما يصنع موقفَه هو، وبما يحرِّكه وجهة الفعالية والفعل؛ يُعتبر راشدا في تفاعله مع الجريدة؛ أمَّا من يشتريها ليملأ عقله بالأخبار والمعلومات في كلِّ المجالات، بلا حدود، ثم بعد ذلك يتخذها مادَّة لحديثه، ويكرّرها على أصدقائه ومعاشريه، ثم ينتهي اليوم، ويأتي يوم جديد، ويشتري جريدة جديدة، وهي تحمل أخبارا جديدة؛ فيدور صاحبنا عليها مثلما يدور "حمار الطاحونة" على الرحا... وهكذا، بلا ملل، ولا نهاية، ولا

جدوى... هذا بالطبع مخالف للرشد، وهو تصرُّف مدعاة للوهن، بل وسبب في العجز غالبا.

ولو أنَّ كلَّ قارئ لأيِّ جريدة، حاول أن يتحرَّك إيجابا في نقطة واحدة، على صِغرها، في يومِه، ثم يتحرَّك في الغد نحو فعل إيجابي ثان... وثالثٍ... لجمعْنا نهاية كلِّ يوم الملايينَ من القطرات التي تسقي بساتين البلاد وابلا لا طلاًّ، وتحوِّل اليابسة جنَّات، وتعد الوطن والأمَّة بغد مشرق منير.

وليس لنا أن نتوقَّف في الوصف، ونقول: "إنَّ الجرائد أساسا لا تعرض الأخبار بهذه الرؤية الكونية الشمولية، وإنما تعرضها بغرض التنفيس، وبقصد الإثارة والتهريج"؛ ليس لنا أن نتوقَّف هنا؛ لأنَّ الفعل الإيجابي المترتب عن هذا الاستدراك هو أن نتحرَّك نحو إنشاء جريدة تخالف هذا المسار، وتصنع إعلاما مختلفا، بغاية مختلفة، ومنهج مختلف، هو في الأخير منهج الرشد والرشاد؛ وهو سبيل الرجل المؤمن من آل فرعون، الذي لم يستسلم للواقع، ولم يبكِ مثل الثكالى حال الناس، بل راح يصدح بالقول، ويضع المخططات، ويدعو الناس إلى السير وفقها، ولذا مدحه ربُّ الجلال بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غَافِر:٣٨).

ولقد ضرب "البراديم كولن" أروع مثال، بتأسيسه للعديد من المجلاَّت، ثم الجرائد، ثم القنوات التلفزيونية، فوكالات الأنباء... بناء على رؤية واضحة، ومشروع ناضج متكامل؛ قد لا نجد له في العالم العربيِّ اليوم الأثر الواسع، لأسباب معقَّدة ومتداخلة؛ غير أنَّ أثره العميق يسري في جسم الأمَّة القطبِ، سريان الماء الرقراق في جذور "شجرة

التوت" الشامخة، ذات الفروع الممتدة، والثمار الحلوة، والعراقة الأكيدة، والنفع الدائم...

ولنهمس في أذن كلِّ مسلم، ونقول: لنبدأ بالفعل، أو بالفكر... المهمُّ أن نبدأ، ونسدِّد، ونقارب، ونبادل الأدوار، في "حركة حلزونية" لا متناهية؛ فمن بدأ لم يتوقَّف، ومن تهيَّب لم يبدأ، والله هو الهادي لسواء الصراط، وهو المجازي على حسن الفعال.

هندسة[١٠] القلب والروح[١١].. سياحة معرفية، في كتاب "النور الخالد"[١٢]

الحمد لله القائل في محكم تنزيله المبين، إشادة بعباده المكرمين: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾(ق:٣٣)، سبحانه وهو القائل عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ

(١٠) مفهوم "الهندسة" و"المهندس"، من جملة المفاهيم التي تكتسي عند الأستاذ فتح الله دلالة حركية خاصَّة، وقد استعرته منه، ووظفته قاصدا ذات النفَس؛ راجيا أن يحظى ببحث مستقلٍّ يكشف سياقاته وأبعاده الفكرية والحركية، وبالخصوص أنه يرقى ليكون نموذجا معرفيا إدراكيا تفسيريا، ولقد نبهت في "البراديم كولن" إلى "نموذج المهندس عند الأستاذ فتح الله كولن". ففي مقال بعنوان "الحركية والفكر" يقول الأستاذ: "على مهندسي مستقبل الضياء أن يجهدوا في استخدام قوتهم الفكرية، إلى جانب دوافعهم الحركي". ويقول في مقال "الكينونة الذاتية": "إنَّ انبعاثنا مجددًا بثقافتنا الذاتية يتطلب رجالَ قلوبٍ متحفزين بالإيمان، ومهندسي فكرٍ سائحين في الغد بأفقهم الفكري" وللأستاذ مقال بعنوان: "مهندسو الروح الربانيون". (انظر: ونحن نقيم صرح الروح، ونحن نبني حضارتنا)...

(١١) "الواقع يجمِّع، والفكر يفتت"، هذه حقيقة منهجية عبَّر عنها فيلسوف الإسلام محمد إقبال بقوله: "إنَّ تكويننا العقليَّ لا يجعل بإمكاننا إلاَّ أن نعرف الأشياء مجزَّأة؛ جزءا بعد جزءٍ...". (تجديد الفكر الديني؛ ص:١٣٧-١٣٨). ومن ثمَّ فإنَّ تخصيص "الروح والقلب، في هذا البحث، لا يعدو أن يكون إجراء منهجيا؛ وإلاَّ فإنَّ للعقل، والحسِّ، والتجربة، والإلهام، والوجدان... ولغيرها من مصادر الإدراك والمعرفة؛ إنَّ لها مكانة مرموقة في فكر الأستاذ، ولقد اقترحتُ بحثا بعنوان "نموذج المنطاد" عزمتُ فيه على معالجة "الإدراك، ونظرية المعرفة، والرؤية الكونية" عند الأستاذ فتح الله؛ جمعت مادته الخبرية، وصغت خطَّته الأولية؛ لكنَّ الهمَّة قصرت دون تحقيقه؛ لعلَّ الله ييسِّر سبل ذلك.. ثم إنَّ هذا البحث هو تتمة لبحث معرفي آخر، هو "نظرية كلِّ شيء: بين عجز الفيزياء وتألق الوحي، فتح الله كولن نموذجا"؛ وفيه بينت "النزعة الشمولية" في فكر فتح الله؛ ومنها شمولية مصادر المعرفة؛ وشمولية الفكر والحركية...الخ.

(١٢) أصل البحث محاضرة، ألقيت في جامعة جاكارتا، أندونيسيا؛ يوم ٢٨ ماي ٢٠١٢م؛ بمناسبة المؤتمر الذي نظم حول "النور الخالد" للأستاذ فتح الله كولن.

الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإِسْرَاء:٨٥).

والصلاة والسلام على من أسمع القلوب نداء الوجود الأزليِّ، المتربع على عرش الوجدان، محمد النبي الصفيِّ الصادق الأمين؛ القائل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: «ألا إنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (متفق عليه). وهو القائل فداه قلبي وروحي: «إنَّ قلوب بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد» (رواه مسلم).

والدعاء موصول إلى الله تعالى أن يملأ قلوبنا بمحبته، ويثبتها على الإيمان بمحجَّته، ويسلِّمها من كلِّ ضلال وفساد وانحراف عن شريعته.

وبعدُ،

فإنَّ "نظرية المعرفة"[١٣] تناقش ما يعرف بمصادر المعرفة؛ وهي تحشرها في "العقل" أو "الحواس"، ولقد تتقدَّم خطوة فتجمع بينهما؛[١٤] وقد أبعِد القلب عن ساحة المعرفة قرونا طويلة، حتى غدا العلمُ مرادفا للعقل وحده، وباتت المعرفةُ تعبيرا عن الفكر بمفرده؛ فضاع أهمُّ مصدر للمعرفة بين ثنايا المجادلات والمحاورات والصدامات البشرية، فها هي اليوم تصطلي جحيم هذا الجفاء المقيت، ولا تزال، ولن تزال؛ ما لم تتصالح مع ذاتها، وتستعيد علاقتها الحميمية مع قلبها، وتقيم التناغم

---

[١٣] انظر: مشكلة المعرفة والخصوصية الإسلامية، عند مالك بن نبي؛ محمد باباعمي؛ محاضرة أعـدَّت لملتقى مالك بن نبي، تلمسان، الجزائر، جانفي ٢٠١٢. نشر موقع فيكوس: veecos.net.

[١٤] الأسئلة الجوهرية في نظرية المعرفة تتلخص في: "كيف نشأت المعرفة عند الإنسان؟ وكيف تكوَّنت حياته العقلية بكل ما تزخر به من أفكار ومفاهيم؟ وما هو المصدر الذي يمد الإنسان بذلك السيل من الفكر والإدراك؟" (فلسفتنا، محمد باقر الصدر، ص:٥٥).

الفطري بين الروحيّ والماديّ، وبين الجوانيّ والبرَّانيّ.(١٥)

ولو سألنا عن أيّ جامعة، أو مدرسة، أو مركز للبحث من أيّ بلد كان: ما هي الوحدات التي تدرَّس؟ وما هي التخصُّصات؟ وما هي المدخلات والمخرجات؟ وما هي المناهج والآليات والتطبيقات؟... بل، ما هي الفلسفات والسياسات والغايات من وجودها؟ لما تردَّدنا لحظة في الحصول على جواب، وهو أنَّ كلَّ ذلك رهين بالعقل والفكر، وبالحواسّ والأجسام؛ أمَّا مخاطبة القلوب، فهي من تخصُّص الدين، والتصوُّف، والرياضات الروحية عموما. أو هي تجربة فردية غير قابلة للتعميم.

ولنسأل الأستاذ المجدِّد محمد فتح الله كولن ذات الأسئلة، ونحن نتفيأ ظلال "النور الخالد"، مستعينين بمصادر ومؤلَّفات أخرى، مما ترجم إلى العربية، سائلين الله التوفيق والسداد.

القلب والروح في تراث(١٦) الأستاذ

لا يخفي الأستاذ اهتمامه المعرفيَّ الشديد بالقلب والروح، جنبا إلى

---

(١٥) ينبه محمد إقبال إلى أنَّ المنهج القرآني "يعتبر الأنفس والآفاق مصادر للمعرفة"؛ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾(فصلت:٥٣). فإلغاء "التجربة الجوانية" إلغاء لشطر المعرفة كلية. والحقُّ "أنَّ الله تعالى يرينا آياته في التجربة الجوانية والبرانية على السواء". (تجديد الفكر الديني، محمد إقبال، ص:٢٠٨). أما المفكر العالمي بيجوفيتش فيقرِّر أنَّ "الإسلام يُعْنَى بالبحث الدائم عبر التاريخ عن حالة التوازن الجوَّاني والبرَّاني، وهذا هو هدف الإسلام اليوم. وهو واجبه التاريخي الْمُقَدَّر له في المستقبل" (الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش).

(١٦) نشير إلى التراث المترجم إلى العربية فقط؛ وهو يمثل حوالي سبُع ما نشر باللغة التركية، مما لم يترجم بعدُ. والحق أننا لا نعرف باحثا واحدا خصَّ نظرية المعرفة عند فتح الله كولن، بدراسة مستقلة؛ رغم أهميتها البالغة في اكتشاف الأبعاد التي ينطلق منها في نموذجه الحضاري.

جنب مع الفكر والعقل؛ وذلك ما يظهر جليًّا في عناوين كتبه ومقالاته؛ فمن بين أبرز مصنَّفاته نسجِّل كتاب "ترانيم روح، وأشجان قلب"، وكذا "ونحن نقيم صرح الروح"، ثم في التصوف-الحركي نطالع "التلال الزمردية، نحو حياة القلب والروح"، في أربعة أجزاء. وبصيغة مجازيةٍ نقرأ للجهاد روحًا، وذلك في كتاب "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام"؛ وبصيغة الوجدان، التي هي مركَّب من هذا وذاك،[١٧] نقرأ عنوانا لكتاب آخر هو: "أضواء قرآنية في سماء الوجدان". ولا يمكن أن يُغفل أهمُّ مؤلَّف للتعامل اليومي، وللتربية والتزكية، وهو "القلوب الضارعة"، الحاوي لأدعية منتقاة من القرآن الكريم، والسنة الطاهرة، والتراث الإسلامي النير؛ ألَّفها الأستاذ وجمعها وحقَّقها؛ وهو الآن مصدر للواردات والفيوضات.

أمَّا باللغة التركية، فضمن سلسلة "الجرّة المنكسرة" التي تزيد على إحدى عشر مجلَّدا، يحمل الجزء التاسع منها عنوانا مثيرا، يلقي الحسرة على قلب من لا يعرف اللغة التي بها يقتحم حما هذا السفر، والعنوان هو "إبرة القلب"؛ كناية عن إبرة بوصلة القلب، الموحِّد وجهته نحو القطب

---

(١٧) ينبه الأستاذ إلى أنَّ استيعاب حقيقة "الوجدان" مسألة مفتاحية في العلم والفكر، وفي الحركية والدعوة؛ والمكونات الأساسية للوجدان هي: الإرادة، والذهن، والحس، والفؤاد (اللطيفة الربانية). ثم يعتمد ما حلله بديع الزمان في هذا الشأن، ويعطيه نفَسا جديدا، ويفعِّله ثقافيا وحركيا وحضاريا. (انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ج:٣/ص:١٩٢ وما بعده، باللغة التركية).

يقول بديع الزمان: "إن الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطّل العقلُ نفسه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه اليه" ويبدع في موضع آخر، بقوله: "فالخالق الكريم ينشر نور معرفته ويبثها في وجدان كل إنسان من هاتين النافذتين: نقطة الاستمداد ونقطة الاستناد.. فمهما أطبق العقل جفنه ومهما أغمض عينه، فعيون الوجدان مفتحة دائمًا" (المثنوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي، ص:٤٣١).

الواحد الأحد، الفرد الصمد؛ بلا تشتت ولا إشراك، ولا تردُّد ولا جحود.

أمَّا عناوين المقالات، فهي من الكثرة بحيث يتعذر في هذا البحث المختصر أن نتتبعها كاملة، ويكفي أن نعرض نماذج منها، من مثل: "مهندسو الروح الربّانيون"، "عندما تنبض القلوب برقّة"، "الأرواح المحلّقة في الذرى"، "القلب السليم مركب النجاة"؛ وما ورد بصيغ مرادفة أو مجازية كثير جدا، من مثل: "نحو عالمنا الذاتي"، "ونحن نولّي وجوهنا شطر أنفسنا"، "العالم الداخلي"، "القرب والبعد"... وغيرها كثير.

هو قطعة من قلبه، ونسمة من روحه

يقول الدكتور أحمد عبّادي عن "النور الخالد": "إنَّ الأستاذ كتبه لنفسه، قبل أن يكتبه لغيره؛ ولذا كانت محتوياته أبحاثا فيها كدح ومكابدة من قِبل الأستاذ؛ لكي يتعرف أكثر على محبوبه، فلا يخطئ في حقِّه، ويستطيع أن يوفيه بعد ذلك مستحقَّه..."؛ أمَّا الأستاذ جمال تُرك، فيردِّد دائما مقولته الموحية: "مَن أراد أن يعرف الأستاذ، فلْيقرأ النور الخالد؛ ذلك أنه مرآة لحقيقة الأستاذ، وكشف لمكنوناته".

ولقد أوحت لي عبارة الأستاذ جمال أن أؤلّف كتابا، لو قدر الله أن يتمَّ، يكون عنوانه: "الأستاذ بقلم الأستاذ، ترجمة تحليلية من خلال النور الخالد".

والحقُّ أنَّ القارئ لهذا الكتاب، يجده من المقدِّمة إلى الخاتمة صوتا واحدا، يرشح بالمعاناة والشوق والاحتراق؛ ومن ثم فإنَّ فتح الله لم يؤلف "النور الخالد" بعقله ومحفوظاته فقط، وإن كان متحكِّما في تفاصيل السيرة النبوية تحكُّما لا نظير له؛ وإنما سبكَه قبل ذلك بقلبه ووجدانه،

وأودعه عيونا من أسرار روحه.

في بيان سبب التأليف يقول الأستاذ: "وكما قلت لإخواني مرارًا: إنني عندما أذهبُ إلى المدينة المنوَّرة أجد رائحته العطرة محيطة بي، إلى درجة تشعرني وكأنني سأقابله بعد خطوة واحدةٍ، وكأنَّ صوته الشجيَّ الذي يحيي القلوب يقول لي: "أهلاً وسهلاً.. ومرحبًا." ثم يضيف مؤكِّدا: "أجل، إنه حيٌّ ونضرٌ في صدورنا إلى هذه الدرجة، فكلَّما تقادم الزمن ازداد نضارة وطراوة وحيوية في قلوبنا"[١٨].

وعن منزلة الحبيب المصطفى، موضوعِ هذا المؤلف، يقول فتح الله: "إنَّ الزمن يتقادم ويشيخ، وإنَّ بعض المبادئ والأفكار تتعفَّن وتتهاوى، أمَّا منزلة الرسول محمد ﷺ فستبقى متفتِّحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام"[١٩].

ثم إنَّ الأستاذ، رغم كلِّ ما لاقاه من معاناة، ورغم كلِّ ما كابده من مخاض عسير، لم يطمئنَّ إلى أنَّ قلبه قد احترق حقًّا، وأنه بلغ حبَّ المصطفى المبلَغ الذي يليق به، فراح -كعادته- يلقي اللوم على نفسه، ويسائل روحه، قائلا: "إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدَّون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبَّه... حبَّ سيد السادات حبًّا تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟"[٢٠].

ويصدق أن نقول: لو أنَّك شرَّحت قلب الأستاذ لطفح منه رشح

[١٨] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٤.

[١٩] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٤.

[٢٠] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٥.

"النور الخالد"؛ ولو أنك لامست روح الأستاذ لأصابك لفح من شهاب "النور الخالد"؛ ثم لو أنكَّ حلَّلت "النور الخالد" تحليلا دقيقا، للاح لك شبحُ الأستاذ، مِن هنالك، من بعيد، وهو يذرف الدموع السخينة ويقول: "كلُّ كلام في مدحه ﷺ جميل؛ فإن وجدتم شيئا نابيا، فمنّي ومن أسلوبي، أمَّا ما يتعلَّق بفخر الكائنات فكلُّه مشرق وجميل".

ولقد نقل بعض طلبة الأستاذ أنَّه أوان إلقائه "النور الخالد" دروسًا في جامع "والدة سلطان" بحيّ "أُوسْكُودَار"، كان كلَّما تقدَّم إلى درس اعتقد وآمن، وحضَّر نفسه وقلبه، على أن يكون هو آخرُ مواعظه، وأنه سيلقى حتفه بعد ذلك، ولقد يودع السجن، أو يصاب بمكروه؛ ومن ثمَّ جاءت هذه الخطب النارية في منتهى الصدق، وهي بحقٍّ: نصائح مودِّع للخلق، ولآلئ مقبل على الحقِّ.

لسان القلوب

يقول فتح الله: "القلْب مصدر للخزائن، بحيث إنَّ الله تعالى الذي لم تسعه السموات والأرض يتجلَّى في هذا القلب. لا الكتبُ ولا العقول ولا الأفكار ولا الفلسفات ولا البلاغة والفصاحة ولا السموات والأرض ولا الكائنات بأجمعها تستطيع الإحاطة بالله ﷻ، بل تعجز عن التعبير عنه؛ القلب فقط يستطيع أن يكون -ولو بمقياس صغير- ترجمانًا له. أجل، للقلب لسان لم تسمع الآذان بيانًا مثل بيانه، وبلاغة مثل بلاغته. إذن، فعلى الإنسان أن يقطع المسافات في قلبه، وأن يبحث فيه عن مبتغاه، فيصل إلى ربه هناك، ويفنى في حبه، علمًا بأن الله ﷻ أرسل رسوله محمدًا

ﷺ إلينا من أجل هذا"[٢١].

ولقد أوتي رسولنا الحبيب مفاتيح القلوب، فهو الذي يتربَّع على عروش قلوب الناس وأرواحهم، ولذا ناداه العارفون، وخاطبه المنصفون، بقولهم: "أنت -يا رسول الله- في قرار قلوبنا أبدًا، تعزُّزا ودَلالاً وإن غبت عن العيون. فإنْ كانت قلوبنا ما زالت تنبض بالحياة فإنَّما هي من الإكسير الذي سقيتها أرواحنا. وإنْ كانت صدورنا مفتوحة لك، فهي بفضل جاذبية رسالتك واستيلائها على الألباب. وإذا لم تنادنا من فوق قمم القلوب، فلم نسمع نحن -بدورنا- مِن آفاق أرواحنا أنفاسَك المُحْيِيَة، فسنصفرُّ كالأوراق التي يلتهمها الخريف، ونصير سببًا لهبوب أنسام الحزن في أفقك. وكم كنا نتمنى ألا نتطاير أشتاتا مع الخريف، وألا نكون وسيلةَ حزن يطرأ عليك... لكن هيهات هيهات!. ولقد جئتَ لتنفخ الروح في القلوب الميتة، ففعلت وأديت ووفيت بما اعتمدتَ عليه من منبع المدد والعناية..."[٢٢].

ولقد صفَّ مؤلِّف "النور الخالد" جملة من الأسئلة الكونية، قال عنها: "لا أستطيع إهمالها ولا الهرب منها"، وهذه الأسئلة جاءت على صيغة التقريع والتأنيب للذات وللضمير، وعلى شاكلة المحاسبة المضنية التي أَلِفها المقرَّبون، وحمل فتحُ نفسه عليها في كلِّ حين؛ ومما جاء فيها:

أنَملك قلبًا لائقًا بسلطان القلوب هذا؟

هل هذا السلطان مستريح في مجلسه من القلوب؟

هل قلوبنا مفتوحة له على الدوام؟

---

[٢١] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٦.

[٢٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٦٨.

أنلاحظه في قيامنا وقعودنا، في أكلنا وشربنا؟

أنلاحظ محمدًا ﷺ بقلوبنا في جميع حركاتنا وسكناتنا؟

أنسير في جميع شؤون حياتنا على الخط الذي رسمه لنا؟"[٢٣]

هي أسئلة تقريعية لا تنتظر الجواب، لكنها تبحث عمَّن يتلحم بها وتلتحم به، فيتخذها ديدنه بكرة وعشيا، حين الصحَّة وأوان المرض، بل في جميع الظروف والأحوال؛ فتكون بذلك "وقودا" لقلبه وعقله، ومحرِّكا لفكره وفعله.

ينقل فتح الله -في هذا السياق- عن نبيّنا الأواب الأواه، وعن رسولنا الأسوة القدوة، أنَّه ﷺ "تحمّل عِبئًا كبيرًا وثقيلاً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاما، وقام بإيفاء حقِّ وظيفته بنجاح منقطع النظير؛ لم يتيسّر لأي صاحب دعوة آخر... وبمثل هذا الروح، وبهذه المشاعر المضطرمة بحب الله، كان يتقدَّم ويقترب من الهدف المنشود ومن النهاية المباركة...لقد أدّى مهمَّته بحقٍّ، وقام بالتبليغ على أفضل وجه. لذا فقد كان مستريح الضمير، مرتاح النفس، مطمئنَّ القلب، وكان يتهيأ لملاقاة ربه... كان إنسان مراقبة للنفس مراقبة حسَّاسة جدًّا، لذا فقد قضى حياته كلَّها في إطار هذه المراقبة الحسَّاسة يسائل نفسه: هل استطعت أن أبلِّغ رسالتي كما يجب؟! وهل عشت لتحقيق الهدف الذي من أجله أرسلني الله تعالى إلى الناس؟!"[٢٤].

فداك روحي ومهجتي يا سلطان القلوب، إني أشهد في موكب الشاهدين "أنَّك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الأمَّة، وكشفت الغمَّة، ومحوت الظلمة، وجاهدت في الله حقِّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد".

---

[٢٣] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٩.

[٢٤] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٦١.

ظلام يسيطر على الأرواح

ليس "النور الخالد" كتاب "رواية" وتحقيق علميٍّ محايد؛ بل هو جرٌّ للزمن الحاضر نحو زمن الأنوار، ودفع لهذا العصر وجهة خير الأعصار؛ فالمؤلِّف يسعى جاهدا أن يوظِّف جميع ملكاته ومقدَّراته، ليحمل الناس على "تجاوز الزمان والمكان"[٢٥]، حتى يمكنهم أن ينتصروا على "ضغط الآن" وعلى "تفاصيل الحياة". ومن ثمَّ راح يصف عهدنا هذا بأنه "عهد اهتزَّت فيه عقيدة التوحيد"، وقال عن مثل هذا العصر: "إنه يعدُّ عهدًا مظلمًا؛ ذلك لأنَّ الإيمان بالله ﷻ الذي هو نور السموات والأرض، إن لم يحكم جميع القلوب، سيطر الظلام على الأرواح، واسودَّت القلوب؛ فمثل هذه القلوب المظلمة تبتلى بقصر النظر عند مراقبة الأحداث، وتكون رؤيتها متعكرة وغير صافية، ويعيش صاحب مثل هذا القلب كالخفافيش في دنيا الظلام"[٢٦].

ولا يفوت فتحَ الله أن يمثِّل لهذا العهد بفتنة الشيوعية، مستشهدا بحديث للرسول الأكرم ﷺ، وقد توجَّه يومًا نحو الشرق وقال: «ألا إنَّ الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قَرْنُ الشيطان» (متفق عليه).

فقال: "هناك احتمال قويٌّ أنَّ الرسول ﷺ كان يريد بهذا الحديث الإشارة إلى الفتنة التي ستظهر من جهة الشرق كبديل لأوروبا الظالمة. وكلمة "قرن" الواردة في الحديث تأتي بمعنى القرن الموجود في الحيوانات، أو

---

(٢٥) انظر: مقطع فيديو، للأستاذ فتح الله كولن، بعنوان: "اجتياز الزمن والمسافات" (إزمير/ تركيا، ٢٥ مارس ١٩٩٠)، مترجم إلى اللغة العربية، موقع مجلة حراء. وانظر: الموسوعة الكونية للمجدد فتح الله كولن، مادة الزمن والوقت، تأليف محمد باباعمي.

(٢٦) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٧.

تأتي بمعنى "العصر"، وأنا أرى أنَّ المعنى الأخير هو المعنى المقصود، أي أن القرن هنا يأتي بمعنى العصر أو العهد، أي أن "قرن الشيطان" معناه "عصر وعهد الشيطان" وهو نقيض "عهد النبوة". فهذا النظام الشيوعي قائم على الإلحاد وعلى الإباحية وعلى جميع المفاسد الشيطانية التي تحاول التسلل إلى القلب عن طريق النفس الأمّارة... ومع أنَّ هذا النظام الشيوعي الذي يُعَدّ الابن غير الشرعي للنظام الرأسمالي يحتضر في هذه الأيام إلاَّ أنه لا يزال يعدُّ ألد أعداء الدين والمقدسات والمواريث التاريخية، ولا يزال كابوسًا مخيفًا، وأنا أعتقد أنَّ رسول الله ﷺ يطلق على هذا العهد الذي سيطر فيه هذا النظام الشيوعي على مساحات واسعة من العالم... يطلق عليه "العهد الشيطاني" أو "القرن الشيطاني" ويحذر أمته من هذا الوباء ومن هذا البلاء"[٢٧].

لكن، هل سجن فتح الله قلبه وعقله في وصف هذه الفتن، وراح يسوق لها أدلَّة وشواهد من "أحاديث فتن آخر الزمان"؟ أم أنَّه أشغل نفسه وأجهدها بحثا وتنقيبا عن المخرج، وعن الملاذ الآمن، عالما عاملا، مبغضا للقنوط والتقنيط، كارها لليأس والتيئيس؟

الجواب مستساغ عند فتح الله كشربة ماء بارد في ظهيرة يوم حارٍّ، وهو ولا شكَّ متمثل في العودة إلى الحقِّ سبحانه، والمجاهدة والمكابدة لأجل "حياة القلب والروح".

حياة القلب والروح

يقول فتح الله: "إنَّ الذين استطاعوا الخلاص من سجن الجسم،

---

[٢٧] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٠٣.

ووصلوا إلى مرتبة حياة القلب والروح، يستطيعون عيش الماضي والمستقبل معًا وفي الوقت نفسه"[٢٨].

والقدوة في مثل هذه الحياة الطيبة هم رسل الله وأنبياؤه، والسؤال هو: "لِمَ لا يوجد سلطان الرسل في الآخرة وفي الدنيا وأمام الملائكة وأمام الأنبياء في الوقت نفسه وفي اللحظة نفسها؟".

أمَّا الجواب فهو: "أجل، إنه يوجد وسيوجد".

أمَّا الإجراء الذي أفصح عنه مؤلف "النور الخالد" وكشف به عن سرٍّ من أسراره، فهو قوله: "سأجعل من كلِّ ما ذكرتُه أساسًا وقاعدة لِما سأذكره؛ لأنَّ تعيين زاوية النظر إلى الأنبياء وإلى نبيّنا ﷺ مهمٌّ جدًّا. فإن كان فهْم الأولياء والأصفياء والأبرار والمقرَّبين وحدسهم -دع عنك الأنبياء العظام- يحتاج إلى صفاء روحيٍّ وإلى نقاء قلبيٍّ خاصٍّ، فكيف يمكن فهْم الأنبياء في هذا العالم الماديِّ الغليظ الذي تكثر فيه الحجب والأستار؟ إذن، فلكي نفهمهم، فإنَّ علينا التوجُّه إليهم بكلِّ استعداداتنا القلبية، ولطائفنا الروحية، وبكلِّ دقة واهتمام وتركيز. فإن كان المطلوب فهم شخصية رسول الله ﷺ، فإنَّ هذه الدقة والاهتمام والتركيز يجب أن يزداد أضعافًا مضاعفة، هذا علمًا بأنَّ درجة معرفة كلٍّ منا وفهمه يتبع درجة قوة نظرته القلبية، ولكن لا أحد يستطيع أن يفهمه ككلٍّ أو يحيط به إحاطة تامَّة، فهو كما قال البوصيري:[٢٩]

وكيف يُدرِك في الدنيا حقيقتَه ... قومٌ نيامٌ تَسلَّوْا عنه بالحُلُم

---

[٢٨] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥١.

[٢٩] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥١.

يا براعم الأمل!

لكنَّ فتح الله، كذلك، لا يتوقَّف به المسير في محطَّة التنظير، وإنما يواصل رحلته نحو "شباب الخدمة الإيمانية والقرآنية"، ووجهة قلوب "كلِّ مسلم، موقن" ممن بلغه أو يبلغه صوته؛ فيخاطب الجميع، بلا استثناء، خطابا روحانيا، قلبيا، صادقا، من شأنه أن يحرِّك الكوامن، ويزعزع المواجد، فتنهمر الدموع بحارا ووديانا من أعين "بكت وتبكي خشية لله"؛ وأوَّل عين يلحقها "الاحمرار"، في هذا المقام، هي عين فتح الله؛ وأوَّل "شهقة" تملأ الآفاق بكاء، في هذا الموقف الجلَل، هي شهقة فتح الله.

وفي ذلك يقول، مخاطبا سامعيه وقارئيه:

"أجل، ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظللت بأوراقها وأزهارها كلَّ الأرجاء.

كانت كلُّ كلمة لأمَّتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر. وستقومون أنتم -بإذن الله- باستعادة تلك العهود الزاهرة والتخلص سريعًا من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم... يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم، وإن كنتم لا ترونه أو تحسُّون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا، انفتح لكم قلب

الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربَّع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبدًا أنَّ شرط الوصول إلى هذه النتيجة، وإلى هذه الذروة، مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمَّة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمَّة، ونلعب دورًا بارزًا في تأسيس التوازن الدولي -حيث إنَّنا مضطرون أن نكون كذلك- فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن"[٣٠].

وعد، وبُشرى، وشرط، وفراسة، وتخطيط، وأمل، وعمل... كلٌّ هذه المعاني الجليلة ترشح بها هذه الفقرة النورانية، المنبثقة من قلب خفَّاق، ومن وجدان دفَّاق؛ وممن لا يلوي على أحدٍ، وهو يعيد للقلب مكانته في منظومة التغيير والإصلاح؛ من غير إضرار بالعقل، ولا إقصاء لأيِّ مصدر آخر من مصادر الحقِّ والحقيقة، ولا تنكُّر لأيِّ منبع آخر من منابع المعرفة والعرفان؛ وهذا ما اصطلحنا عليه في بحثنا هذا بـ"هندسة القلب والروح".

ألا ما أروعها من هندسة، تذكِّرنا بالمعمار سنان في جمال بنائه، وبالسلطان الفاتح في جلال بنيانه؛ وقبل ذلك وبعده، تربطنا بسيد المهندسين، وإمام المعماريين، وأفضل الخلق أجمعين، سدينا وحبيبنا صادق الوعد الأمين، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

والحمد لله ربِّ العالمين.



---

[٣٠] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٧.

البشرية الحائرة، ودور العالم على ضوء السراج النبوي[٣١]

الحمد لله ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:٢-٣)، القائل لنبيّه الكريم، في محكم تنزيله الحكيم، بيانًا وتبيينًا: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(فاطر:١٩-٢٢).

والصلاة والسلام على صاحب القول الفصل في حقيقة "الله، والإنسان، والكون"، سيدِنا محمَّد، "شجرةِ الوجود"، و"العلَّة الغائية لكتاب الكائنات"؛ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؛ مَن أُرسِل للحائرين التائهين، سراجا ونورا مبينا، ليخرجهم ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(الأحزاب:٤٣).

البشرية الحائرة

وبعدُ، فإنَّ أصدق وصف يليق بحال البشرية اليومَ هو وصف "الحيرة"؛ إذ بعدما عرفت قرونا من "الوهم" و"الغرور" و"الادعاء"، وجرَّبت شتى "النظريات"، و"الأيديولوجيات"، و"الفلسفات"، تيقَّنت أنها تسير مهرولةً نحو حتفها، وتستعجل عنوةً خرابها ودمارها؛ وتأكَّدت أن لا شيء من محاولاتها البائسة يستطيع اجتثاثها من براثن الشقاء والهلاك والدمار.

فما كان من العقلاء اليوم إلاَّ أن دقُّوا ناقوس الخطر، وألقَوْا بالمنشفة

---

[٣١] أصل البحث محاضرة ألقي ملخصها في الملتقى الدولي، بعنوان: "السراج النبوي، ينير درب البشرية الحائرة"؛ من تنظيم مجلّتَي "الأمل الجديد"، و"حراء"؛ في غازي عِنْتَب، جنوب شرق تركيا؛ يومي ٥-٦ مايو ٢٠١٢؛ بحضور مشهود، من ستين دولة، ومن جميع مناطق تركيا.

البيضاء على أرض الحلبة، معلنين أنهم في "حيرة"، وأنهم ينتظرون مَن يُنقذهم، ويُخرجهم من حالهم إلى حالٍ أفضل وأحسن، وأكثر طمأنينة ويقينًا... ولكنَّهم للأسف لم يُسلِموا قيادهم "للوحي"، ولم يعترفوا بالإمارة والقيادة والهداية "للأنبياء"... وعلى رأس الأنبياء جميعِهم خيرُ الخلق محمدٌ عليه السلام.

ألا ما أشبه حيرتهم هذه بحيرة قريش أوان كان سيد الأنام في "غار حراء"، يُصنع على أعين الله تعالى، ويربَّى في صفوف مدرسة "عشق الإله، وعشق الحقيقة"؛ هنالك تعلَّم كيف "ينكر ذاته"، وكيف "يسحق أناه"؛ ليحمل همَّ "البشرية الحائرة" فردًا فردًا، بلا استثناء، في جميع الأزمنة والأمكنة، ولا يزال، إلى أن يُبعث يوم الحشر، فداه أمِّي وأبي، وهو ينادي بأعلى صوته: "أمَّتي أمَّتي".

ولقد أصدرت "منظمة المؤتمر الإسلاميّ" ما عُرف بـ"إعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام"؛ وأكَّدت فيه على أنَّ دور المسلمين اليوم هو "هداية البشرية الحائرة". ورد في ديباجة الوثيقة "التأكيدُ على الدور الحضاري والتاريخيِّ للأمَّة الإسلامية، التي جعلها الله أمَّة وسطًا، أورثت البشرية حضارة عالمية متوازنة، وصلت الأرض بالسماء، وربطت الدنيا بالآخرة، وجمعت بين العلم والإيمان"؛ والذي يُؤمَّل هو "أن تقوم هذه الأمَّة اليومَ بهداية البشرية الحائرة، بين التيارات والمذاهب المتنافسة، وتقديم الحلول لمشكلات الحضارة المادية المزمنة"[٣٢].

لكأنَّ إعلان الفيزيائيين عن فشل "نظرية كلِّ شيء" قبل بضع سنين، إثر

---

[٣٢] القاهرة، ١٤ محرم ١٤١١ هـ / ٥ أغسطس ١٩٩٠ م. ينظر الرابط:
(http://www1.umn.edu/humanrts/arab/a004.html)

سقوط "نظرية الأوتار الفائقة"[٣٣]؛ كان عنوانا للإعلان عن فشل الإنسان في إسعاد أخيه الإنسان، واعترافا ضمنيا منه بالحاجة إلى مصدرٍ متجاوزٍ متعالٍ، يقول قوْلته، ويأخذ زمام التحكُّم من جديد.

ولقد هدَّت "الحيرةُ" الشرقَ والغربَ على السواء، فعبَّر كلٌّ منهما بطريقته وحسب ظروفه؛ وأصدق عنوان لهذا التعبير هو كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب"، للمفكر المسلم، علي عزّت بيجوفيتش رحمه الله.

وفي مقال بعنوان "طويلا بكينا"، نقرأ دلالةً معبِّرة عن تكلم الحيرة، يقول فيه الأستاذ محمد فتح الله كولن: "إنَّ الغربيَّ الذي حسِبنا أنَّ لديه مصباحَ حياتنا، كان قد ارتمى على مصطبة النعش قبلنا بكثير. إنَّه مات في ذلك اليوم الذي هبَّ فيه "نيتشه" ليُردِي الإلهَ لباسَ الموت معلنًا في وهمه أنه "مات الإله".. إنَّ الميت لم يكن سوى الغربيِّ نفسه، وإنسانِنا المسكينِ معه.. إنسانِنا الذي غرق في المستنقع من حيث ظن أنه خرج من السجن ناجيًا.. إنسانِنا العابث المتفلِّت الذي تمرد على كلِّ شيء، وأنكر كلَّ شيء"[٣٤].

وفي مقال بعنوان "تمشيط الوحش على النحو الذي يحلو به"، لـ"إنجليك دل راي"، نقرأ هذه الحسرة من تلكم "الحيرة" في قوله: "إننا نعيش حقبةً مظلمة، نختبر خلالها تناثر الممارسات والأفكار والمعتقدات

---

[٣٣] كتب "لي سيمون"، وهو أحد رواد نظرية "الأوتار الفائقة" مقالات بعنوان: "لا شيء بخير في الفيزياء، فشلُ نظرية الأوتار!"

Lee Smolin: Rien ne va plus en physique! : l'échec de la théorie des cordes. Paris: Dunod, DL 2007

وانظر: محمد باباعمي: نظرية كلِّ شيء، بين عجز الفيزياء وتألق الوحي، فتح الله كولن نموذجا. ضمن هذا الكتاب.

[٣٤] مجلة حراء، العدد: ٢٨ (يناير – فبراير ٢٠١٢م).

التي كانت تحدِّد إلى الآن وتيرة مجتمعاتنا"[٣٥].

ومن ثم يحسُن بنا اليومَ أن نعلن، في هذا المؤتمر العالميِّ الحاشد، وفي هذه المناسبة الفريدة، من موقع هذه المدينة العريقة[٣٦]، وفي هذا البلد الضارب جذوره في الحضارة الإنسانية والإسلامية المجيدة[٣٧]؛ يحسن بنا أن نعلن عن "فشل الأيديولوجيات"، وعن "موت الموت" و"موت القاتل" على إثره، وعن "نهاية النهايات"، وعن ضرورة البحث عن "ما بعد المابعد".

نعلن أنَّ الذي بقي بعد كلِّ هذه الأعاصير هو وجهُ الله الكريم: "ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام"، ثم كلام الله الحكيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩)، وكذا رسوله الرحيم: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(الْمَائِدَة:٦٧)؛ ثم إنَّ الذي لا يزال ينبضُ حياةً وحركيةً هو "الإنسان"، و"المجتمع"، "والكون"، و"المعنى"، و"الإمكان"، "والمستقبل"، و"الخير"... فإذا ما التحمت هذه بتلك، وتعلَّقت هاته بهاتيك، صدق أن نتلو قول الله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾(الْكَهْف:٤٦) وفي آية: ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾(مَرْيَم:٧٦).

وبيان ذلك مفصَّلا، فيما يلي:

أولا: فشل الأيديولوجيات

لو أنَّ أحدا سئل عن أزمات هذا العصر، في شتى المستويات، السياسيةِ

---

[٣٥] لوموند ديبلوماتيك (Le Monde Diplomatique)، العدد: ٣٧٠٢، أكتوبر نوفمبر ٢٠١١م. الرابط:(http://www.mondiploar.com/article3702.html?)

[٣٦] مدينة غازي عِنْتَب.

[٣٧] تركيا العثمانية.

منها، والاجتماعية والنفسية، والاقتصادية... وغيرِها، ثم ادَّعى أنَّ الحلَّ لها لن يكون إلاَّ في "أيديولوجية" من "الأيديولوجيات" العريقة، لاتَّخذه عامة الناس، بله العلماءُ، مسخرةً ومهزلة، ولتيقَّنوا أنه يحيا منفصما عن زمانه ومكانه، وأنه أقربُ إلى عالَم الخيال منه إلى عالم الواقع. ذلك أنَّ جميع "الأيديولوجيات" قد جُرِّبت، ولعدَّة قرون خلت، فما أورثت البشريةَ إلاَّ شقاءً وجحيمًا، ولم ينجُ من لظاها الشرقُ ولا الغرب، الأغنياءُ ولا الفقراء، المستعمِرون ولا المستعمَرون؛ جميعُهم كان ضحيةً بشكل أو آخر لتلك "الأيديولوجيات".

كتب "جون زيغلر" رفقة "إريَل دار كوستا" مؤلَّفا بعنوان "إلى غد يا كارل، حتى نخرج من نهاية الأيديولوجيات"(٣٨)، والدلالة تعني بلا شكٍّ توديعَ "كارل ماركس" بأسلوبٍ ساخر، ومن خلاله "الماركسية" باعتبارها "أيديولوجية"؛ كما أنَّ "فانسون بابَن" قد تحدَّث عن "نهاية الأديولوجيات واختراع الرؤية الإيجابية للمستقبل"(٣٩). وينقل الصحفي "فيكتور فييلفولت" في مذكراته، التي عنونها بـ"مذكرات الجنديِّ المكسيكيِّ المسلَّح"، أنَّ والده كان يحذِّره من كلِّ الكلمات التي تنتهي باللاحقة "isme"، يقول: "في كلِّ مراحل مراهقتي كنتُ أسمع والدي يحذِّرني من الكلمات التي تنتهي بـ"إيزم"، فإنها جميعا تُقصي، وتفرِّق، وتتسلَّل إلى الأقوال والأفعال فتنثر فيها بذور الشقاق"(٤٠).

فلا مكان إذن، اليومَ "للإيديولوجيات"، سواء في ذلك ما كان في

(38) Jean Ziegler, Uriel Da Costa: A demain, Karl: Pour sortir de la fin des ideologies (Collection «Coups de gueule». 1991.

(39) Questions de communication, Revue, No 12/2007. P425

(40) Victor Vieilfault: Le chant des étincelles. lechantdesetincelles.over-blog.fr

حقل العلم مثل "الداروينية" (Darwinisme)، أو في مجال الفنون مثل "مذهب التعبيرية" (Expressionnisme)، أو في الاقتصاد مثل الرأسمالية (Capitalisme)، أو الفلسفة والأبستمولوجية، مثل الأنثوية (Féminisme)؛ وفي السياسة مثل الشيوعية (Communisme) والعلمانية (Laïcisme).

بل، وحتى ما يعرف في الأدبيات الإعلامية المعاصرة بالإسلاموية (Islamisme)، ومنه الإسلاموي (Islamist) أو حتى "الإسلامي" عادةً؛ ما هو إلاَّ توظيفٌ مغرض يُراد منه تشويهَ صورة الإسلام، وعرضه على نمطٍ "أيديولوجيٍّ"، وبالتالي دفعُ المستمع إلى التقزُّز من النسبة إلى الإسلام[٤١].

ثانيا: موت الموت

أطلق نيتشه مقولته الذائعة الصيت: "لقد مات الإله" بالألمانية (Gott ist tot)، ثم تحوَّلت إلى حقلٍ للتفسيرات والتطبيقات؛ وبغضِّ النظر عن حقيقة الدلالة، هل هي إخباريةٌ أم تقريريةٌ، فإنَّ الفكر الإلحاديَّ حوَّل هذه العبارة إلى "إنجيل" وحوَّل "نيتشه الإنسان"، وكذا "إنسانَ نيتشه"، إلى إله ورمزٍ للعصر وللمعنى. ولم يتوقَّف نيتشه في هذه المرحلة، بل راح يعمل على إزالة ما أسماه بـ"ظلال الإله"، واقتلاع كلِّ آثار الإله على الأرض؛ ليفتح المجال واسعا أمام "الإنسان الأعلى"، قصد الانطلاق نحو المستقبل بأسلوبٍ دراميّ.

وعن آثار هذه الفلسفة الإلحادية يقول نضال البيابي: "لاقت هذه

---

[٤١] نبـه إلى هذا المزلق المفهومي الخطير الأسـتاذُ فتـح الله كولن، في مقال "نظرة إجمالية إلى الإسـلام"، وانظـر: مجلة حراء، العـدد: ٢٤، مايو-يونيو ٢٠١١م. ومما يؤكد هذا التشـويه المغـرض، أنـك لو أردت ترجمة كلمة الإسـلام فـي القواميس المتخصِّصـة، تجد مقابلها (Islamisme)، (Islam). وكأنهما مترادفتان.

الفكرةُ صدًى واسعا عند قائدي الثورات، وحاصدي أرواح الشعوب، ومَن مسَّه مسٌّ من جنون العظمة، كـ"هتلر" و"ماوتسي تونـغ"، وللأخير مقولة شهيرة في هذا السياق، جاء فيها صراحةً وصلفا: "إذا ما كنَّا عظماءَ بما فيه الكفاية، حتى نُنهي سيطرة الإله علينا، ألا نصبحُ نحن أنفسنا آلهة. ببساطة لأننا جديرون -فيما يبدو- بذلك؟"[٤٢].

لكن، للأسف تنطوي دلالة "موت الإله" -كذلك- على العديد من النتائج المدمِّرة، منها: "موت الحقيقة"، و"موت المعنى"، و"موت الميتافيزيقا"، و"موت الأخلاق"؛ إلى أن تنتهي بحلول "الإنسانيِّ" في "الماديِّ"، فتُخضع الإنسانَ لمعايير المادَّة، ومن ثمَّ يتمُّ الإعلان عن "موت الإنسان".

يقول الدكتور أحمد عبادي: "نيتشه الذي أعلن عن موت الإله، هو في حقيقة الأمر أعلن عن موت الإنسان"[٤٣].

واليومَ، على مشارف الألفية الثالثة، نسجِّل بصوت جهور موت "فلسفة الموت" أو "موت الموت"، بعدما أودت بالبشرية في مهاوي لا قعرَ لها؛ ثم على إثر ذلك "مات القاتل" نفسُه، وبقي ذكره عبرةً ولعنةً في جبين القرن الماضي، لما خلَّفه من دمار وخراب، ومن فتن وحروب، أبدع فيها حامل هذه الأوهام أيما إبداع، في سُبل التقتيل والتنكيل، والاستدمار وهتك الحرمات، ولم يكن الطرفُ المقابل، قادرا ولا جاهزا للمواجهة؛ فصدق في ذلك قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(الأنفال:٧٣). ولقد عجزنا فلم نفعل ولم نوقف النزيف، فكانت الأرض

---

[٤٢] ضال البيابي: أنت ضحية لها، قراءة لفلسفة العدمية لنيتشه؛ موقع حكمة. الرابط: (http://www.hekmah.org)

[٤٣] أحمد عبادي، الوجهة؛ مجلة حراء، العدد: ٢٥ (يوليو-أغسطس ٢٠١١م).

-نتيجةً لذلك- مستنقعًا للفتن، وساحة للفساد الكبير، ولا تزال.

أمَّا الذي بقي بعدَ هذا الانتحار الفظيع، فهو -ولله الحمد والمنَّة-: "الحياةُ"، و"واهبُ الحياة" سبحانه، و"السراج النبويُّ" المنير؛ أي بقي "الأملُ"، و"المستقبلُ"، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(الصَّف:٨).

ثالثا: نهاية النهايات

يعرِّف عبد الوهاب المسيري رحمه الله، في "الموسوعة" "نهايةَ التاريخ"، بأنها: "عبارةٌ تصف اللحظة التاريخية التي تسودُ فيها الواحدية (الروحية أو المادية) في بساطتها واختزاليتها، التي تحوِّل الإنسان إلى شيء طبيعيٍّ/ماديٍّ، فلا يبقى سوى المبدأُ الواحد، الذي يستوعب الإنسانَ تمامًا، فتختفي كلُّ الثنائيات، ويختفي الزمانُ والتدافع، ويختفي معها الإنسان المركَّب، بل الحيزُ الإنسانيُّ ذاته. وبما أنَّ ما يسود في العصر الحديث هو الواحدية المادية، فإنَّ عبارة "نهاية التاريخ" تعني، في واقع الأمر، نهاية التاريخ الإنساني وبداية التاريخ الطبيعي. وفي العصر الحديث ترتبط فكرةُ نهاية التاريخ باليوتوبيا التكنولوجية والتكنوقراطية وبالفردوس الأرضيِّ، وبفكرة العودة إلى صهيون"[٤٤]. فهي بالتالي تفارق الواقع، وتتنكر للإله، وتلغي الفردوس الأخروي.

وليس كتابُ "نهاية التاريخ" لـ"فرانسيس فوكوياما"، هو الوحيد الذي بشَّر بالنهاية، وصوَّح بها؛ وإن كان هو الأشهرُ والأكثرُ تداولا في الإعلام وفي الدوائر العلميَّة والسياسية؛ يقول "لوسيان سيف" في مقاله "إنقاذ

---

[٤٤] عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. مادة "نهاية التاريخ". الرابط: (http://www.elmessiri.com/encyclopedia)

الجنس البشري، وليس فقط الكرة الأرضية": "لقد باتت مراكمةُ الرأسمال أكثر فأكثر من دون هدف. وما نعيشه هو الفشل التاريخي لطبقة احتكارية باتت من دون هدف تمدينيٍ، تدَّعي أننا محكومون بـ"نهاية التاريخ" هذه، إنه "موت المعنى" المنتشر في كلِّ مكان عبر النظرة المتوحِّشة للربحية... حيث لا يمكن لأيِّ مشروع بشريٍّ أن يجد متنفَّسا له"(٤٥).

و"نهاية التاريخ" تعبير عن نهايات أخرى منها: "نهاية الإنسان"، و"نهاية المعنى"؛ ولفوكوياما كتاب آخر هو بالأصل مقالة منشورة في مجلة "ناشيونال انترست" صيف عام ١٩٩٩، بعنوان "نهاية الأنثروبولوجيا".

واليومَ، رغم أنَّ الدوائر الرسمية لا تزال وفية لنظريات "النهاية"؛ إلاَّ أنَّ الواقع العالمي، والإنسان/الإنسان؛ تيقنا أن لا معنى للنهاية، بالمدلول الذي طرحه قساوسة العلم في هذا العصر، ذلك أنَّ المشاكل اليومية ما انفكت تتعقَّد، وأنَّ مثل هذه الطرحات كانت خلفية للحروب الجديدة، التي خاضتها دول قوية على دول أخرى ضعيفة؛ وأننا لو واصلنا على هذه الوتيرة سوف لن نحقق "الفردوس الأرضي" كما يدَّعون كذبا وزورًا، بل سنغرق جميعا في الجحيم الأرضيِّ... إن لم يكن اليومَ، فغدًا.

رابعا: ما بعد المابعد

المصطلحات التي تبدأ بالكاسحة "post" والتي تعني حرفيًّا "بعدَ"، ولكنَّها تعني في واقع الأمر "نهايةً أو تَحوُّلا جوهريًّا كاملا" مثل: post-modern بمعنى "ما بعد الحداثة"، و post-industrial بمعنى "ما بعد الصناعي"،

(٤٥) لوموند ديبلوماتيك (Le Monde Diplomatique)، العدد: ٣٧٠٢، أكتوبر–نوفمبر ٢٠١١م.
الرابط: (http://www.mondiploar.com/article3702.html?)

وpost-capitalist بمعنى "ما بعد الرأسمالي"؛ و post-historical بمعنى "ما بعد التاريخ" التي تعني في واقع الأمر "نهاية التاريخ".

وأحسن وصف لمدلول "ما بعد الحداثة"، مقولة رئيس الجمهورية التشيكية، الكاتب المسرحي الشهير "فاكلاف هافل"، التي وصف فيها أمله في "عالم ما بعد الحداثة" باعتباره واحدا مبنيا على أسسٍ علمية، ولكن المفارقة فيه "حيث كلّ شيءٍ ممكن، ولا شيء مؤكدٌ تقريبا"[٤٦].

ومصطلح "ما بعد الحداثة"، في جلِّ استخداماته يصف الاتجاهات التي يُنظر إليها على أنها نسبية، أو مضادة للتنوير، أو المناوئة للحداثة؛ لاسيما فيما يتعلق بنقد العقلانية، أو الكونية، أو العلم. كما أنها أحيانا تُستخدمُ لوصف الاتجاهات في المجتمع الذي يُنظر إليه أنه نقيضٌ للنظم التقليدية للأخلاق.

وليست كلُّ مقولات "ما بعد الحداثة" خاطئةً، بخاصَّة ما كان منها نقدا للحداثة؛ غير أنَّ أسلوب ردَّة الفعل الذي لازم إيقاع "ما بعد الحداثة" جعلها تنحرف انحرافا شديدا، فعوض أن تعالج الداء بالدواء، راحت تداوي الداء بداءٍ أشدَّ فتكًا؛ وهذا دليل آخرُ على الحيرة، وعلى العجز عن إيجاد الجواب الشافي، والترياق المعافي، لما آلت إليه البشرية منذ أمد طويل.

مِن أين المخرج؟!

تقف البشريةُ اليومَ، بشقيها الغربيِ والشرقيِ على السواء، أمام العديد من الخيارات:

- إمَّا أن تواصل الكدح في حيرتها قرونا أخرى،

---

[٤٦] هافيل: الحاجة إلى التفوق في عالم ما بعد الحداثة؛ كلمة في قاعة الاستقلال في فيلادلفيا، ٤ تموز ١٩٩٤.

- أو تبحث عن جواب (أو أجوبة جديدة) ضالَّة مضلَّة،
- أو تهتدي إلى معنى "المعقولية"، و"الحقِّ"، و"الصواب"... وهو المأمول بحول الله تعالى.

ألَّف "مراد هوفمان" كتابا بعنوان "الإسلام كبديل"، ولم يكن في الحقيقة من نوع الكتَّاب الذين يوظِّفون الشعارات الكبيرة الرنانة، لمجرَّد التهويل، وإنما هو عالِم محترَم، له خصائصه الفكريةُ والحضاريةُ، وصاحب منهج علميٍّ متميّز؛ ومما جاء في كتابه: "إنَّ الانتشار العفويَّ للإسلام هو سمةٌ من سماته على مرِّ التاريخ، وذلك لأنَّه دينُ الفطرة المنزَّل على قلب المصطفى ﷺ"[٤٧]. وقال في موطن آخر: "الإسلام دينٌ شاملٌ وقادرٌ على المواجهة، وله تميُّزه في جعل التعليم فريضة، والعلم عبادة... وإنَّ صمود الإسلام ورفضه الانسحاب من مسرح الأحداث، عُدَّ في جانب كثير من الغربيين خروجًا عن سياق الزمن والتاريخ، بل عدّوه إهانة بالغة للغرب!!"[٤٨].

والعالم "مراد هوفمان" يعرف أنَّ الكثيرين من الداخل والخارج على السواء، سيعتبرون هذا مجرَّد حملة دعائية، وأنَّ من المستحيل أن يعود الإسلام إلى واجهة التاريخ، ففنَّد هذا الزعم، وأشار بوضوح إلى شرط تحقُّقه، وقال: "لا تستبعد أن يعاود الشرق قيادةَ العالم حضاريًّا، فما زالت مقولة: "يأتي النور من الشرق" صالحةً ... إنَّ الله سيعيننا إذا غيَّرنا ما بأنفسنا، ليس بإصلاح الإسلام، ولكن بإصلاح موقفنا وأفعالنا تجاه الإسلام"[٤٩].

---

[٤٧] انظر: يوميات مسلم ألماني، مراد هوفمان.

[٤٨] الطريق إلى مكة، مراد هوفمان، ص:١٤٨

[٤٩] الإسلام كبديل، مراد هوفمان، ص:١٣٦.

كما كتب "هوستن سميث" مؤلَّفا بديعا، بعنوان "لماذا الدين ضرورة حتمية؟!"، طبَّق من خلاله منهج النفق المغلق، الذي صنعته المادية والعلموية المعاصرة، ونهايةُ النفق هي بالضرورة موصولةٌ بالوحي الإلهي، وقد اعتمد المؤلف على "البرادايمات" وعلى أسلوب "التمثُّل" ليعالج موضوعه، وهو وإن لم يؤكِّد على ديانة دون أخرى، إلاَّ أنه يشترط الوحيَ والمدد الرباني لبلوغ السعادة، وبغيرهما ستستمر البشرية في شقائها الانتحاري، وفي حيرتها اللامتناهية.[٥٠]

أمَّا الأستاذ محمد فتح الله كولن، فيقول في مقالة "رسالة الإحياء"، من كتاب "ونحن نبني حضارتنا": "إنَّ أمَّتنا أوَّلا وبالذات، ثم الإنسانيةَ جمعاء، بحاجة ماسَّة إلى فكر سامٍ يقوِّي إراداتنا، ويشحذ هممنا، وينوِّر أعيننا، ويبعث الأمل في قلوبنا، ولا يعرِّضنا للخيبة مرَّة أخرى. أجل، نحن بحاجة شديدة إلى أفكارٍ وغايات وأهداف سامية، ليس فيها فجواتٌ عقلية أو منطقية أو عاطفية، وتكون منغلقةً أمام السلبيات التي وسمت البشريةَ أوان حيرتها، وصالحةً للتطبيق كلَّما سمحت الظروف"[٥١].

إذن، ثمة اتفاق أنَّ كلَّ الظروف ملائمةٌ، وكلَّ الأسباب متوفِّرة، لأن تهتدي البشرية إلى الصراط المستقيم. لكنَّ السؤال الجدير هو: هل ستتشكَّل هذه الظروف وحدها، بلا جهد ولا اجتهاد ولا جهاد؟!

هنا يأتي دور العلم ودور العالِم على إثر السراج النبويّ، بدلالاتٍ ومراحل، هي نفسها دلالات ومراحل ما بعد "غار حراء":

---

[٥٠] انظر: لماذا الدين ضرورة، هوستن سميث.

[٥١] ونحن نبني حضارتنا (رسالة الإحياء)، فتح الله كولن، ص:٣٧.

- العلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العَلَق:١).
- الخلُق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القَلَم:٤).
- الدعوةُ (أي قيام النهار): ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾(الْمُدَّثِّر:١-٢).
- التبتل (أي قيام الليل): ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الْمُزَّمِّل:١-٢).
- الضرب في الأرض، والجهاد في سبيل الله: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(الْمُزَّمِّل:٢٠).

أمَّا ذكرُ الله تعالى، وتلاوة كتابه الحكيم، فملازمٌ لكلِّ المراحل، وذلك بموجب ما ورد في جميع الآيات والسور، وباستقصاء سيرة النبيِّ الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فالسراج النبويُّ إذن، قام على هذه الركائز، وعمادُها جميعا: "الإيمان بالله"، و"اليقين في الله"، و"صبغة الله"...

فكلُّ عالِم، مهما كان تخصُّصُه، ومنصبه، ومسؤولياته، ومستواه، ومكانته... وجب عليه أن يتحرك على إيقاع هذه المعاني، وأن لا يحيد عنها قيد أنملة، وإلاَّ كان وبالا على البشرية، وزادها شقاء إلى شقائها، وحيرة إلى حيرتها.

وبناء على هذه المقدمات نحدِّد جملة من مهامِّ العالم، وأمثلة من أدواره المنوطة، على إثر السراج النبوي، وهي كالآتي:

دور العالِم

علم موصول بالسماء

تعالج "الرؤية الكونية" ثلاث علاقات هي العلاقة "بالله، وبالإنسان، وبالكون"؛ فكلُّ عِلم، وكل عالِم، لم يربط معارفه، ورؤاه، وتصوُّراته،

ومفاهيمه، ومناهجه... بالخالق وبالوحي؛ فإنَّه يتحوَّل إلى "تقنيٍّ" في العلم، صاحب تفاصيل وجزئيات، قد تكون نافعة آنيًّا، لكنها ستكون مضرَّة مهلكة ولو بعد حين. ولا يُستثنى من هذا الحكمِ العلومُ الطبيعية والرياضية والفزيائية، وغيرها مما لا يتعامل مع الإنسان مباشرة، إذ إنه في جميع الأحوال يعود بالنفع أو بالضر إلى الإنسان وحده.

ومن منطلق قوله تعالى لنبيه الكريم ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العَلَق:١)، نستنتج اليوم أنَّ المخاطَب بالقراءة هم المسلمون؛ ذلك أنَّهم صاروا -والأسفُ ملء الجوانح- أقلَّ الأمم اهتماما بالعلم، وبالقراءة، وأضعف الشعوب صلة بالفكر، وبالعقل؛ أمَّا أمرُ الله تعالى أن تكون القراءة ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فالمخاطَب -بالدرجة الأولى- اليومَ هم الذين يقرأون، ويُنتجون المعرفة، ويتبحَّرون في العلم؛ لكن بغير اسم اللّه، بل في الغالب اتسمت هذه القراءة بمحاربة كلِّ الأديان، بغير استثناء؛ والانتقام من جميع القيم والغايات؛ وفي هذا السبيل ولدت نظريات "الموت"، و"النهايات"، و"الصدامات"، والصدمات".

ولو أنصف العلم في عصرنا، لأدرك أننا لم نخلق إلاَّ "لنعرف الله ونعرِّفه"، "فالعيش بمقتضى القصد الإلهي هو سرُّ خلقتنا"[٥٢].

فعلى العالِم المسلم، المستنير بالوحي وبالسراج النبوي، أن يحمل على عاتقه مهمَّة تصحيح "الرؤية الكونية"، فمن واجبه إحلال "الرؤية الكونية التوحيدية" بديلا عن "الرؤية الكونية المادية الإلحادية" في الدوائر العلمية المختلفة؛ أي من واجبه إعادة العلاقة بين "الله، والإنسان، والكون" إلى

---

[٥٢] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح اللّه كولن، ص:٢٢.

نصابها؛ وذلك "بإعادة التأسيس للنظرة الكوزمولوجية (Cosmologist)، (علم الكونيات) التي تقول بأنَّ الحبَّ هو علَّة خلق الكون" عوضا عن النظرة "الواحدية" التي "أغرقت العلومَ في خضمِّ المادة، وأصبحت صمَّاء عمياء تجاه جميع العلاقات الدينية والخلقية والميتافيزيقية، وانقلبت إلى حالة ذات بعد أحادي"[٥٣].

وعلمٌ نافع للخلق

كان نبينا الأواه ﷺ "إذا أصبح قال: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملاً متقبلاً"(رواه ابن ماجه).

على ضوء هذا السراج النبوي الوهَّاج، يكون الهدف من العلم هو "النافعية" لا "النفعية"، ونعني بالنافعية الأثرَ الماديَّ والمعنويَّ، الدنويَّ والأخرويَّ معًا؛ فكلُّ علم لا يتحوَّل إلى فعل وحركية، ولا يسهم في إسعاد البشرية دنيًا وآخرةَ، ولا ينفع خلقَ الله، هو لغو وعبث وردٌّ.

أمَّا "النفعية"، التي تعني المصلحةَ، والأثر الآني، والمقابل المحسوبَ المباشر، فليست مطلوبةً ولا هي مستساغةٌ. بل هي محرَّمة شرعا، مرفوضة عقلا.

لبديع الزمان أبي العزِّ إسماعيل بين الرزاز الجزري كتابٌ بعنوان "الجامع بين العلم والعمل النافع، في صناعة الحيل"؛ هو موسوعة علمية، وخزانة للاختراعات والاكتشافات البديعة، حوت ما يزيد على خمسين اختراعا في شتى المجالات، بالتحليل وبالصور الهندسية؛ وهو مع ذلك يفتتح مشروعه الذي لا نجد له مثيلا لدى علماء العالم الإسلامي

---

[٥٣] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، أنس أركنه، ص:٢١٣.

اليومَ، بقوله: "الحمد لله المبدِع صنعه في السمائيات، المودع أسرار حِكمه في الأرضيات، فهي نسخة من عالم ملكوته، ودليل قاطع على جبروته، أحمده على ما علَّم، وأستزيده من فواضل النعم، وهي مطلوبات الحكم، حمدا يماثل بعض إحسانه، وجزيل امتنانه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أشرف نوع الإنسان، وعلى آله والتابعين له بإحسان"[٥٤].

وما محنة هذا العصر إلاَّ لكون من يكتشف ويخترع، وينفع العباد -آنيا على الأقلِّ- بالأدوية، والآلات، والوسائل، والتقنيات، والأطعمة، والأشربة، ووسائل الاتصال والتواصل... وغيرها. هو في الغالب ممن يتنكَّر للخالق، ويلحد بالله؛ أمَّا من يدعو الناس إلى الصلة بالله، وينادي البشرية إلى الخير، فهو لا يزال -واحسرتاه- بعيدا عن التأثير المباشر، من إعمار الكون، والنفاذ إلى أقطار السماوات والأرض.

ولن تعرف البشرية فجرها الجديد، إلاَّ على يد علماء ربّانيين، يصدق فيهم حديث المصطفى ﷺ: "الخلْق عيال الله، أحبُّكم إلى الله أنفعكم لعياله"(رواه البخاري). فالعالم الذي لا ينفع خلق الله إذن، بجميع أنواع النفع... العالِم الذي يعزل نفسه بين أفكاره، ويحيا مثل الأرضة على صفحات أوراقه؛ ويخاطب الناس بما لا يفهمون، هو أبعد ما يكون عن السراج النبويِّ، وهو ليس مؤهَّلا ولا أهلا لينال حبَّ الله ورعايته وعنايته.

وصدق مالك بن نبي في قوله: "إنَّ الماء لا يستقي الأرض التي تعلوه". فإن أردنا أن نهدي البشرية الحائرة، على ضوء السراج النبويِّ، علينا أن نكون أرفع منها مستوًى، وأعلى منها قدرًا، وأكثر منها نفعًا، وأزكى منها

---

[٥٤] منشورات "معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية"، سلسلة ج، الرقم: ٦٩، نشر فؤاد سوزكين، إكهارد نويبار، مازن عماري، ٢٠٠٢.

صدقًا؛ وإلاَّ اعتَبرَت خطابنا مجرَّد "ادعاء فارغ"، و"كلام لا يصدِّقه العمل".

التبليغ، غاية الغايات

في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: "إنَّ العلماء ورثة الأنبياء. وإنَّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما وَرَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر"(رواه أبو داود والترمذي)؛ فالحديث لا يعني أنَّ العلماء يرثون المعلومات والمعرفةَ فقط، ولكنَّهم يرثون كذلك غايةَ وجودهم، وحقيقة مسمَّاهم، وتبعات رسالتهم؛ يرثون مهمَّة "التبليغ والهداية"، و"الإرشاد والدعوة"، و"الإنذار والتبشير".

فالعالِم اليومَ، ينبغي، مهما كان تخصُّصه، أن لا يقتصر على غايات دنيَّة، مثل الشهرة، والحظوة، والذكر، والمال، والمنصب؛ وإنما واجبه، اهتداءً بالسراج النبوي، أن يجعل غايته القصوى إرشاد الناس إلى الحقِّ، ووزعَهم عن الباطل...

فالتبليغ الذي يعني "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، يجب أن يتخذه العالم، من منطلق عمله، مهمَّةً لا وظيفةً، رسالةً وأجرا لا منصبا وأجرة.

لكن، ينبغي كذلك، في عصرنا هذا، أن لا نقصر هذه المهمَّة في الصور المعتادة للتبليغ والدعوة، مثل الخطابة، والكتابة، والوعظ، والتدريس؛ مع أهميتها؛ وإنما الواجب يقضي -إضافةً إلى ذلك- أن ينبري العالِم لمعالجة "الرؤى الكونية"، و"تصحيح المفاهيم"، وخوض غمار حرب "مراكز التفكير"، و"اكتشاف أبعاد "التخطيط والتخطيط الاستراتيجي العميق"، ومعالجة "ما ينتج المعادي للإسلام وللبشرية من فلسفات،

ومغالطات، ونظريات" من مثل نظريات "التطور"، و"صدام الحضارات"، و"موت المؤلف"، و"البنوية"، و"الفوضى"، و"الحروب الناعمة"... الخ.

فإن لم يكن العالم اليومَ دليلا رائدا لا يكذب أهله، لمثل هذه المخطَّطات التي تعدُّ بعناية فائقة، فمن ذا الذي يتكفَّل بهذا الثغر الخطير؟!

الهمُّ والاحتراق والشفقة

"عندما لا يحترق القلب شوقًا، والروحُ عذابًا، والذهنُ همًّا، فلا تتكلم!... وإلاَّ فلن تجد أحدًا يصغي إليك. عندما لا يملأُك الشعور بأنّ دعوتك هي قلبُ الكون، وروحُ الوجود، وأنها ميزانُ العالم، وصمَّام أمنٍ وأمانٍ له، فكيف تواتيك الشجاعة لمواجهة العالم كلِّه؟!"[٥٥].

نقرأ معاني هذا الاحتراق، في العديد من الآيات القرآنية التي تعرض حال رسول الله ﷺ مع قومه، وهو يعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، ويرشدهم؛ وذلك بعد أن تلقَّى الأمرَ من السماء، فأخذه على محمل الإيمان، وأخلص له، وفي سبيله ارتعد وارتعش، ثم تدثَّر وتزمَّل؛ حتى نزل عليه وحيا من العليم الحكيم: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾(المُدَّثِّر:١)، و﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾(المُزَّمِّل:١).

ولم تخبُ جذوة الحسرة والهمِّ عند الرسول عليه السلام طرفةَ عين، حتى كان ربُّه الرحيم يواسيه، ويهدِّئ من روعه، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾(فَاطِر:٨)، ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾(النَّحل:١٢٧)، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(يُوسُف:١٠٣).

---

[٥٥] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، محمد فتح الله كولن، ص:٥.

ولقد كانت الشفقة سمة الدعوة عند الرسول الحبيب ﷺ، فكان قلبه ينبض على وقع البشرية قاطبةً، يفرح لفرحها، ويحزن لحزنها؛ مِن أبسط إنسان مكانة إلى أرفعهم قدرًا؛ ولقد قال نفديه بأرواحنا ومُهجنا: "إنَّما أنا لكم مثل الوالد"(رواه أبو داود والنسائي). بل قد يحدث أن يقسو قلبُ والد على ولده، ولكنَّ المصطفى ﷺ لا يغلُظ قلبُه شرو نقير. كيف لا، وهو الذي نزل فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التَّوْبِة:١٢٨).

بالله عليكم، كم من العلماء والمرشدين اليومَ يحملون "ذرَّة" من هذا الهمِّ على البشرية الحائرة؟! وكم منهم يمارِس علمه رسالةً وجهادا واجتهادا، لا وظيفا وحِرفة ومصلحة؟! بل، كم منهم يبكي ليل نهار، بالغدو والآصال، شفقة على جماهير ألقِي بها بين مخالب الذئاب وأنياب السباع، تَنهش منها، وتغتال فيها المعنى، والقيمة، والخلق، والغاية، والحقَّ؛ فتتركها تائهة حائرة، شقيَّة هائمة، تبحث عن الدليل الخرّيت ولا تجد؟!

أليس دورُ العالم أن يكون لها ملاذا، ومرشدا؟!

أليس مِن الحريّ على كلِّ عالم أن يكون من الناس، يحمل همَّهم، يحترق لأجلهم، ويذوي شفقة عليهم؟!

احتمال الأذى، وتحمُّله، والصبر عليه

قال الرسول ﷺ لأمّنا عائشة رضي الله عنها: "لقد لقيتُ من قومِك ما لقيتُ"(متفق عليه)؛ لا شكايةً وضجرًا، ولكن إخبارًا وتربيَّةً؛ وما ذلك إلا ليتلقَّف العلماءُ والمرشدون في كلِّ زمان ومكان هذه الدلالة الملازِمة لمهمَّة العالم والمرشد، فيحتمِلوا الأذى، ويتحمَّلوه، ويصبروا عليه.

وهكذا جميع الأنبياء عليهم السلام، وجميع الأفذاذ المجدِّدين عليهم شآبيبُ الرحمة، الذين رسموا بصماتهم على صفحة التاريخ، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾(الذَّارِيَات:٥٢).

يقول بديع الزمان النورسي: "لقد افتديتُ دنياي وآخرتي في سبيل إنقاذ إيمان المجتمع. لم أذق طوال عمري البالغ نيّفا وثمانين سنة شيئا من لذائذ الدنيا... قضيتُ حياتي في ميادين الحرب وزنزانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد، لم يبق صنفٌ من الآلام والمصاعب لم أتجرَّعه، عوملتُ معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونُفيت وغُرِّبت في أرجاء البلاد كالمشرَّدين، وحُرمت من مخالطة الناس شهورا في زنزانات البلاد، وسُمِّمت مرارا، وتعرَّضت لإهانات متنوِّعة، ومرَّت عليَّ أوقات رجحت الموتُ على الحياة ألف مرَّة، ولولا أنَّ ديني يمنعني من قتل نفسي فربما كان سعيدٌ الآن ترابا تحت التراب.. "[٥٦].

أمَّا مالك بن نبي فيكتب في بعض دفاتره ومذكِّراته: "مرَّة تلو أخرى لا أجد السلام لي في هذا العالم، إنها الخيبة والشكُّ في كلِّ شيء... إذا لم تتداركني رحمة الإله فأنا ضائع جسمًا وروحًا، مثل زورق في محيط تلهو به الأعاصير العاتية، متى تعرف طريقي نهايتَها إلى الجهة الأخرى من الحياة؟ يا ربِّ، امنحني بعض الأمتار، بعض السنتيمترات، أقصِّر بها طريقي الشقية، فأنا متعب"[٥٧].

---

[٥٦] سيرة ذاتية، سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم صالحي، دار النيل، مصر ١٤٢٩/٢٠٠٨م، ص:٤٩٠-٤٩١.

[٥٧] مالك بن نبي: من سمات التخلف إلى بذور الحضارة، محمد باباعمي، مجلة حراء، العدد:

وما يضير العلماء الربانيين الوارثين، أنهم أوذوا وصبروا، فلم يبدِّلوا ولم يغيِّروا؛ وكانوا أصحاب رسالة ومشروع وغاية؛ لا طامعي حُظوة ومكانة وأجر؛ فهؤلاء وأمثالهم يصدق فيهم أنهم استناروا بمشكاة النبوة، وساروا على درب الأنبياء؛ وما أشبههم بسحرة فرعون حين قالوا لفرعون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:٧٢-٧٣) .

هكذا فليكن العالم، أو ليصمت!

العالِم أوان الفتن (خاتمة)

أشدُّ الناس امتحانا وزلزلةً أوان الفتن العلماءُ، ذلك أنهم مأمورون شرعا بالوقوف إلى جوار الحقِّ، من جهةٍ؛ ومأمورون من جهةٍ ثانية بأن يطفئوا تلك الفتن بالحكمة، التي غالبا ما لا يقبلها ولا يتقبَّلها الطرف الأقوى، بل والطائفتان جميعا، في بعض الأحيان؛ ولذا كان دورُ العالم أوان الفتن ابتداءً هو "فهمُها"، و"تحديدُ أسبابها الحقيقة"، والحذر من أن تتمَّ "مغالطته"، أو "التلاعبُ بمشاعره"، أو حتى "التشويشُ على مواقفه وخطابه"[٥٨]؛ ثم إنه لا يملك السكوتَ، والتفرُّج؛ ولقد كتبَ الدكتور عبد الرزاق قسوم، يوم كانت الفتنة بالغةً عنان السماء في الجزائر، كتابًا معبرا دالا عنوانه: "نزيف قلم جزائري!"، ضمَّنه مقالا بعنوان: "علماء الجزائر، ما لهم لا ينطقون؟!".

٢٧، (نوفمبر – ديسمبر ٢٠١١م).

[٥٨] انظر: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مالك بن نبي.

ورغم أنَّ الشيخ أحمد سحنون -رحمه الله- (وهو من علماء الجزائر المشار إليهم بالبنان) قد ردَّ عليه بقصيدةِ "لا تُطل لومي"؛ إلاَّ أنَّ السؤالَ سيبقى عالقًا، والجوابَ سيغدو واجبًا؛ عالقًا في عنق كلِّ من أناره الله تعالى بنورِ العلم، واجبًا على كلِّ من تخذ النبيَّ الكريم أسوة وقدوة.

اليوم، والفتنُ تعصف أعاصيرَ هوجاء على جميع بلاد المسلمين؛ وهم في جميع الأحوال الضحيةُ الأولى والمتَّهم الأوَّل، لا يُنتظر الكثير من مدخل السياسة، ولا مِن باب حقوق الإنسان، ولا من أيِّ جهةٍ مهما كان شأنها؛ وإنما الطرف الوحيد الذي يملك مفاتيح الحلِّ، ويضع يده على فتيل السراج، هم العلماءُ الصالحون المصلحون، من كلِّ تخصُّص وفنِّ؛ فإن هم أدَّوا ما عليهم أمَّلنا الخيرَ للأمَّة، وإن هم تقاعسوا -لا قدَّر الله- فإنَّ الشقاء سيكون قدرها إلى أمدٍ بعيد.

وليس المطلوب من العالمِ أن يصف الدواء، ويكتب عنه، ولا أن يتحدَّث عن السراج، ويفتخر به؛ وإنما عليه واجب آخرُ هو النزولُ إلى الأرض، وحقنُ المريض بالجرعات اللازمة من الدواء، وحملُ السراج إلى المناطق المظلمة: من مدرسةٍ، وجامعةٍ، وبرلمانٍ، ومخبرٍ، وقناةٍ، وسوقٍ...وغيرها. وهذا ما يمكن أن نسميه "تحويل الفكر إلى فعل"، و"تجسيد العلم بالعمل"؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(الْمَائِدَة:٥٤). والله ولي التوفيق، وهو الهادي لسواء السبيل.

"نظرية كلِّ شيء": بين عجز الفزياء وتألق الوحي الأستاذ فتح الله كولن نموذجا

هل العلوم المادية أوثق أم الإنسانية؟

تهدف هذه المقالة العلمية إلى التشكيك في حكم قديم حديث، لطالما تكرَّر في مصادر علم "المناهج"، وفي مذكرات الباحثين ومقالاتهم؛ وهو "أنَّ العلوم المادية يسيرة يقينية، يمكن القطع فيها؛ أمَّا العلوم المتعلِّقة بالإنسان، فهي غير منضبطة، ويستحيل الانتهاء فيها إلى قاعدة، أو قانون، أو نظرية علمية محكَمة"؛ ولقد كان الواحد منَّا لسنوات يردِّد هذه القناعة، لِما يبدو فيها من "بداهة وبساطة" ابتداءً، ومن "استرخاء وتبرير" بالتبع. إلاَّ أنَّ العلم من طبيعته أن يتطوَّر، والمنهجَ من شأنه أن يُفرَك، وإلاَّ تحوَّل إلى معيارٍ، وإلى معتقَد، ففقد -بالتالي- وظيفته المعرفية الأبستمولوجية؛ وفي هذا الصدد تأكَّدتُ أنَّ القناعة الواردة أعلاه، ليست صوابًا دائما، وليست خطأً بالضرورة. وبيان ذلك ما يلي:

إنَّ العلوم المادية مصدرها "بشَريٌّ" صِرفٌ، أي إنَّه لم ينزل وحيٌ، ولن ينزل أبدا، يبيِّن الحقائق المادية بالتفصيل والتجزيء، وبالتدليل والتطبيق... ذلك أنَّ الأمر متروك لعقل الإنسان، بل -بالتعبير القرآني- هو موكول إلى "استطاعته" وجهده واجتهاده، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾(الرحمن:٣٣). ومِن ثم فإنَّ استحالة استيعاب أسرار العلوم المادية سببُه ومرجعه "بشريَّة المصدر"، و"بشريَّة المنهج"، وحتمية "تطوُّر المدارك البشرية عبر الزمن".

أمَّا العلوم المتعلِّقة بالإنسان، منشأً وموضوعًا، ومسارًا ومنهجًا، والمسمَّاة بـ"العلوم الإنسانية" اصطلاحا؛ فهي إذا عوملت بمنطق بشريٍّ محضٍ، ووُظِّفت فيها قدرةُ "العقل البشريِّ المحدود" بلا سند ولا دليل، تتحوَّل إلى "حقل للأوهام والتخمينات"، وتؤول إلى "غابة للمفاجآت والاحتمالات"؛ ومن ثم يكون الحكم بأنها أقلُّ وثوقية ويقينًا من العلوم المادية صادقا، وصحيحا، لا غبار عليه.

أمَا، وإنَّ ميزة هذه الحقول الإنسانية الاجتماعية الفكرية الحضارية، أنَّ مصدَرها متكفَّل به مِن قِبل "خالق الإنسان والمصدر والعقل معًا"؛ أي ما يُعرف في مصادر المعرفة بـ"الوحي"؛ أمَا وإنها كذلك، فإنَّها تصبح أيسرَ على الفهم والإدراك، وألصقَ بالصدق المطلق، وأقربَ من الحقِّ الخالص، وأعمقَ في النفس بما لا يتجدَّد ولا يحيد؛ أعني بهذا "المصدرَ الربّاني"، الوارد من "أعلم معلِّم"، وممن "لا تبدو له البدوات"، "ولا تندُّ عن علمه شاردة ولا واردة"، بل إنَّ "الإرادة" و"الوجود" و"العلم" في حقِّه تعالى مترادفاتٌ متلازماتٌ لا تنفصل، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾(يس:٨٢)، هذه الإرادة اللاّمتناهية،

﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾، وهذا الأمر والعلم الذاتيُّ الكلِّي،

﴿فَيَكُونُ﴾، وهذا الوجود والتمثُّل في خطِّ الزمان والمكان.

مِن هنا ننتهي إلى أنَّ إسناد العلوم الإنسانية الحضارية بالوحي يرقى بها إلى مصافِّ "العلم اليقينيِّ"، ويحقِّق إمكانية الوصول فيها إلى "فهم شموليٍّ"، وإلى "إدراك كونيٍّ"؛ وبالتالي يكون لها السبق على العلوم المادية الصِّرفة، التي لا ولن يردفها الوحي، لكونها موكولةً إلى اجتهاد البشر.

أمَّا إذا تخلَّت العلوم المتعلِّقة بالإنسان عن المصدر المطلق المتعالى المتجاوز، فإنها تتحول إلى "ألغام، وألغاز، ومعمَّيات"، فتتفوَّق عليها العلوم المادية؛ لإنها تستند إلى العقل، والمنطق، والتجربة، وتقع تحت "تصرُّف" الراصد والدارس والباحث.

وأزعم من خلال هذه المقالة، أنَّ الأستاذ فتح الله كولن، في نتاجه الفكري وثمراته الواقعية، كان يجتهد في استجلاء معالم "نظرية يقينية، شمولية، حضارية، كونية"؛ لا تقتصر على "جانب دون جانب"، ولا على "حقل دون آخر"، بل تطال الوجودَ البشريَّ كلَّه، وهو في هذا يستقي من نبع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ويسير على خطى سيدنا "ترجمان الحقائق" محمَّد عليه أزكى السلام.

يقول الأستاذ في طرق الإرشاد، تحت عنوان "الشمولية": "إنَّ الأنبياء عندما يقومون بتبليغ رسالة الله يوفون حقّ هذه المهمة بأصولها وقواعدها وطرقها الصحيحة التامَّة (...) إذ يتناولون الإنسان من جميع جوانبه، كلاًّ شاملا وغير مجزَّأ، ويقدِّمون له رسالته في إطارها الكامل دون أيِّ نقص. ومِن ثمَّ لا يبقى أيٌّ من العقل، والمنطق، والقلب، والأحاسيس، والشعور خارج أنوار الوحي، ولا يترك أو يهمل أيٌّ من هذا"[٥٩].

وتلك النظرية الشمولية، يمكن -مجاراةً لتطوُّر المفاهيم والمناهج، وقصدًا لإبلاغ المعنى بلغة المعرفة العصرية- أن نطلق عليها اسم "نظرية كلِّ شيء" (Theory of Everything).

فهل يتمكَّن المقال من الدفاع عن هذه الأطروحة العلمية، المكوَّنة من

---

[٥٩] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٩.

شقين: أحدهما منهجيٌّ فلسفيٌّ، والثاني فكريٌّ حضاريٌّ؟

ذلك ما يمكن الحكم فيه إيجابا أو سلبا، بعد الاطلاع على تفاصيل الدراسة، التي أستعين فيها بالله، وأدعوه أن يريني الحقَّ حقًّا، ويهديني لاتباعه واتباع أهله. والله ولي التوفيق.

النظرية، المصطلح والمفهوم

وظَّف الباحث مصطلح "النظرية"، لا لكونه الأنسبَ والأليقَ بما يحويه هذا المقال؛ لكن لكونه الأكثر تداولا في الدوائر العلميَّة من جهة، وللنسبة التي فرضته فرضا أي "نظرية كلِّ شيء" من جهة ثانية؛ وإلاَّ فمصلطحا "البراديم، والنموذج"(٦٠)، هما الأكثر دلالةً في سياقنا هذا؛ علما أنَّهما يتضمَّنان النسبة إلى "كلِّ شيء" أساسا، ولا حاجة للتخصيص، فلا يستساغ اصطلاحا أن يقال: "براديم كلِّ شيء" أو "نموذج كلِّ شيء"؛ وإلاَّ حصل نوع من التكرار بين مضمَر ومظهَر.

أمَّا مفهوم "النظرية" في هذا المقال، فهو يتجاوز المفهوم الفلسفيَّ، الذي طرحه "لالاند" مثلا، مِن أنها: "إنشاء تأمُّليٌّ للفكر يربط نتائج بمبادئ"(٦١)، فهذا التعريف يجعل النظرية في تقابل مع الواقع؛ أمَّا في بحثنا هذا فنربط العلاقة بحبل متين بين "النتائج والمبادئ" من جهة، و"الواقع وخطِّ الزمن" من جهة أخرى؛ مستندين إلى دلالة العلم في الفكر الإسلامي، هذه الدلالة التي تربط بين العلم والعمل بلا هوادة ولا توانٍ، وترفض كلَّ شكل من أشكال الفصل بينهما؛ وهو ما يتجاوز مجرَّد

---

(٦٠) ينظر: البراديم كولن، محمد باباعمي، دار النيل، ٢٠١١م.

(٦١) للتوسع، انظر المراحل السبعة، في هذا الكتاب.

النظر العقلي الخالص.

والتعريف الأكثر ملاءمة للنظرية أو النموذج أو البراديم في بحثنا، هو أنها "بنية فكرية تصورية يُجرِّدها العقل الإنساني من كمٍّ هائل من العلاقات والتفاصيل؛ فيختارُ بعضها ثم يُرتِّبها ترتيبًا خاصًّا، أو يُنسِّقها تنسيقًا خاصًّا، بحيث تصبح مترابطة بعضها ببعض ترابطًا يتميَّز بالاعتماد المتبادل وتشكل وحدة متماسكة يُقال لها أحيانًا عضوية"[٦٢] ومن ثم ينطلق صاحب النظرية من نظريته بغية تشكيل الواقع وتغييره والتأثير فيه بناء على النموذج، ومِن هنا جاءت أهمية هذه النظرية، وضرورتها، وأولويتها.. في كلِّ بناء فكريٍّ عميق.

والمنهج المتوخَّى في فهم فكرِ صاحب النظرية، أو محاولةُ تمثُّله، هو استيعاب نظريته والعمل وفقها، وبالتالي -من الناحية الوظيفية- يكتسي هذا الفكر -بفضل النظرية- صفةَ العالمية والشمولية، والتجاوز على الزمان والمكان، أمَّا إن افتقد هذا البناء النظريّ وهذا النموذج المنهجيّ، فسيتحوّل إلى حالة زمنية مكانية ظرفية، لا يمكن استيعابها، ولا إعادة تمثُّلها، فتفقد صفة الدوام والصلاحية لكلِّ زمان ومكان ضرورة.

وللنظرية أو النموذج عدَّة خصائص، منها الشمولية لكلِّ جوانب الموضوع، والقدرةُ على التفسير، وعدمُ التناقض، وهي ليست الواقع بعينه، بل هي الصورة المطلوبة للواقع...

ولا بدّ من التنبيه إلى انزلاق منهجيٍّ خطير، وهو أنَّ الهيمنة المعرفية المادية اليوم، من جهةٍ، وضعف التوجُّه التوحيدي معرفيًّا من جهة ثانيةٍ،

---

[٦٢] موسوعة اليهود واليهودية (مصطلح النموذج)، عبد الوهاب المسيري.

فرَضَا علينا انهزامًا مفهوميًّا مسبقا؛ حتى إنَّنا لنستكثر على "محمد" أو "إبراهيم" أو "عبد الله" أو أيَّ اسم له صلة بالإسلام أن يكون له "نظرية"، أو ينسبَ إليه "نموذج"؛ أمَّا إذا تعلَّق الأمر بـ"جون" أو "جاك" أو "شيمون"، فهم أهلٌ لأن يُنسبوا إلى الإبداع، وتنسبَ إليهم علوم ونظريات واختراعات(٦٣)... ولا بدَّ أولا أن نعالـج هذه الظاهرة على مستوى انهزامنا الذاتيِّ، قبل أن نخاطب بها العالم الخارجيَّ(٦٤). وهذا ما أعتمده في مقالتي هذه، فهي تعلن بوضوح ودليل أنَّ لفتح الله كولن "نظرية" شمولية كلية متخذة من الوحي منطلقا ومصبًّا، كما أعلنتُ قبلُ أنه صاحبَ "براديم" مختلف هو: "البراديم كولن"، مع احترام العلم والمنهج، وتوخِّي الدقَّة والحذر بالطبع.

"نظرية كلِّ شيء"، التعريف والتطبيقات

"نظرية كلِّ شيء" هي نظرية فيزيائية أساسًا، وتعني "المجالَ النظري

(٦٣) لا ننكر تأخر المسلمين عن ركب الإبداع والاختراع، ولكننا نرفض أن يجحف القليل مما ينتجون، وأن تكون المعايير والمقاييس الدولية مفصلة على طراز ظالم أساسا؛ فمجرَّد تطوير دولاب -مثلا- يسمح للغربي بتسجيل براءة الاختراع، أمَّا اختراع آلة أو ابتكار علم أو نظرية في الشرق، فيعني الارتطامَ بحائط الرفض، والتنكر، والعراقيل الإدارية. ولنا تجربةً في ذلك من خلال معهد المناهج، واختراع "أمان ٤". كما أنَّ لنا أكثر من دليل فيما ذكره "أحمد زويل" من مقارنات بين مرحلة "مصر" ومرحلة "أمريكا"، فالعقل هو نفس العقل، ولكن البيئة اختلفت فتغير معها كلُّ شيء. (انظر: مذكرات أحمد زويل).

(٦٤) يقول الأستاذ فتح الله في مقال "ونحن نبني حضارتنا": "إن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من جديد، ونبحث عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغربية في داخلنا، والمبرمجة على تخريب جذور الروح والمعنى فينا". (ونحن نبني حضارتنا، ص:١٣). وفي هذا الفصل يعالج الأستاذ العلاقة بين العلماء وبيئتهم، وأثر البيئة على بروز العلماء.

للفيزياء الذي يقدِر على تفسير جميع الظواهر الفيزيائية بشكل كامل وربطها معًا (أي كل شيء) في عالم الفيزياء" وترجمة المصطلح باللغة الإنجليزية هو: Theory of everything، أو اختصارا TOE، أو معادلة الكون Weltformel.

وينسب إلى آينشتين هذا "الحلم" الذي أضاع فيه -هو والكثيرون من العلماء- الكثيرَ من الوقت والجهد، بحثا عن نظريةٍ تفسِّر جميع الظواهر الكونية؛ لكنهم لم يفلحوا في النهاية. وقد كان المصطلح في البداية يُستخدم لوصف بعض النظريات العامة بطريقة ساخرة على أنها "نظريات لكلِّ شيء" لعموميتها الواسعة، مع مرورِ الوقت ترسَّخ استخدام المصطلح مع "فيزياء الكمّ" لوصف النظرية التي تستطيع ربط أو توحيد النظريات المتعلِّقة بالتفاعلات الرئيسة الأربعة في الطبيعة (قوة نووية قوية، قوة نووية ضعيفة، قوة كهرومغناطيسية، الجاذبية).

ولقد ترشحت أربع نظريات لتكون الواحدة منها "نظرية كلِّ شيء"، كلُّها لم تفلح إلى حدِّ اليوم، وهي:

- نظرية الثقالة الفائقة Supergravity
- نظرية-إم M-Theory
- نظرية الأوتار String theory
- نظرية الأوتار الفائقة Superstring Theory

"نظرية كلِّ شيء" في الفلسفة

الفلسفة هو المجال الأنسبُ لمقالنا هذا، ولذا كان من المفيد البحثُ عن "نظرية كلِّ شيء في حقل الفلسفة"، وهذا ما تم فعلاً، فتبيَّن أنَّ ثمة

"نظرية كلِّ شيء الفلسفية"، غير أنها لا تعالج إلاَّ ظواهرَ الكون، أي وكأنها نظريةٌ فيزيائية من مدخل فلسفيٍّ، ولذا عرف أنَّ أرسطو، وأفلاطون، وهيغل، ووايتهيد، وآخرون.. كانت لهم محاولات "لبناء نظام شامل للكون". كما كان هناك آخرون متردِّدون بشكل كبير حول احتمالية وجود مثل هذه النظام. ويبقى أننا لم نطَّلع على "نظرية كلِّ شيء" ذات طابع فكريٍّ حضاريٍّ شموليٍّ إنسانيٍّ؛ وهذا لا يعني نفيِ الوجود بالطبع.

إخفاق الفزيائيين، وطبيعة ذلك

أولا: العجز عن تحقيق "نظرية كلِّ شيء"

لم يفلح الفيزيائيون في بناء "نظرية كلِّ شيء" وقد أصيبوا بخيبة أملٍ كبرى، رغم أنهم جنَّدوا لها جيوشا من الباحثين؛ فمثلا، ورد في مقدمة كتاب "الكون الأنيق: الأوتار الفائقة، والأبعاد الدفينة، والبحث عن النظرية النهائية" للفيزيائي "برايان غرين"، الذي صدر بالعربية ضمن سلسلة "المنظمة العربية للترجمة"، نقرأ هذه العبارة الدالة على مدى العمل العلمي المؤسَّسي في المحيط الغربي، يقول: "إنني أقرُّ بكلِّ امتنان بالدعم الكريم لأبحاثي في الفيزياء النظرية على مدى أكثر من عقد ونصف من السنين، بواسطة المؤسَّسة القومية للعلوم، ومؤسَّسة ألفريد أ. سلون، وقسم الطاقة بالولايات المتحدة. وربما ليس غريبا أن تكون أبحاثي قد تركَّزت على تأثير نظرية الأوتار الفائقة على مفهومنا عن الزمان والمكان، وفي الفصلين الأخيرين قمتُ بشرح بعض الاكتشافات التي كان لي حظٌّ المشاركة في إنجازها. ومع أنني آمل أن يستمتع القارئ بالأمور الداخلية، فإنني أدرك أن ذلك قد يترك انطباعا مبالغا فيه على الدور الذي لعبتُه في تطوير نظرية

الأوتار الفائقة. ولذلك أنتهز الفرصة لأقرَّ بفضل أكثر من ألف فيزيائي من جميع أنحاء العالم، ساهموا وكرَّسوا حياتهم لجهود تحديث النظرية النهائية للكون. وإنني أعتذر لكلِّ الذين لم يتضمَّن الكتاب أبحاثهم، ولا يعكس ذلك إلاَّ وجهة النظر التي اخترتها، وتحديد حجم الكتاب"(٦٥).

والقارئ للمقالات المتخصصة عام ٢٠٠٥، المنشورة في مختلف مجلات ومواقع العلوم، وكذا المطالِع لكتاب "الكون الأنيق: الزمان، المكان، الحقيقة... كل شيء لإعادة التفكير"(٦٦)، الذي تصدَّر قائمة الكتب الأكثر مبيعا، وكان أوَّل كتاب يحظى بهذا الحجم الهائل من الاهتمام، بعد كتاب "موجز تاريخ الزمان" لـ"ستيفن هاوكنـغ"(٦٧)، الصادر في الثمانينيات؛ هذا القارئ يلاحِظ أنها تبشِّر ببوادر "نظرية كلِّ شيء"، وأنها هي نظرية الأوتار الفائقة، وهذا سيحلُّ مشكلة تأزُّم الفيزياء، والاختلال الواقع بين قوانين الكون المتناهي في الكبر وقوانين الكون المتناهي في الصغر.(٦٨)

أمَّا بعد عامين فقط، أي خلال عام ٢٠٠٧م، فقد بدا أنَّ المولودَ المبشَّر به لم يهلَّ، أو أنه ولد ميِّتا، فكتب "لي سيمون" -وهو أحد رواد نظرية "الأوتار الفائقة"- مقالات بعنوان: "لا شيء بخير في الفيزياء،

---

(65) Brian Greene: "The Elegant Universe"

(66) Paris : R. Laffont, DL 2005 Brian Greene: La magie du cosmos : l’espace, le temps, la réalité : tout est à repenser

(٦٧) هو صاحب كتاب: موجز تاريخ الزمان، وصاحب نظرية الثقوب السوداء، وأحد أبرز علماء الفزياء المعاصرين.

(٦٨) انظـر: مقال: حديـث عن حدِّ العلم، محمـد باباعمي، مجلة حراء، العـدد:٣٠ (مايو-يونيو ٢٠١٢م).

فشلُ نظرية الأوتار!"[٦٩]، وهذا بعد تجنيد العقول لأكثر من عشرين عاما كاملةً، على حساب مجالات البحث الأخرى، في الفيزياء بالخصوص، الأكثر نفعا للبشرية، والأكثر إلحاحا على مسار الحضارة. ولقد تحطَّمت جميع نظريات "كلِّ شيء" الفيزيائية على عتبة المشاكل الخمسة للفيزياء المعاصرة.

وهذا بتقديرنا يعني أنَّ الفيزياء ليس دورُها هو الوصول إلى حدِّ اليقين، ولا الاهتداء إلى الصدق المطلق، ولا تحديد المعايير للفكر البشريِّ، ولا شرح الغايات والمآلات والحقائق الكبرى، وإنما دورها الهام جدًّا يكمن في التطوير، وضمان مواصلة عجلة الفكر والعقل في السير، وموضوعها لا ينبغي أن يتجاوز المادَّة إلى الإنسان أو الخالق أو المعنى أو الغيب، فهذه جميعا ليست الفيزياء مرشحة للبثِّ فيها؛ ولذا كان من خصائص العلوم الطبيعية عموما، والفيزياء بالخصوص، ما سماه "كارل بوبر": "القابلية للتفنيد"؛ فكلَّما كانت نظرية أكثر قابلية للتفنيد كانت أكثر علمية، وكلما كانت أكثر قابلية للتصديق تحولت إلى "معتقد" (dogma).[٧٠]

ولقد زار العالم الأمريكي "مايك سيمونس" معهد المناهج بالجزائر، وألقى فيه محاضرةً حول تبسيط العلوم؛ ومن جملة الأسئلة التي طُرحت عليه من قِبل الحضور، سؤال عن "نظرية كلِّ شيء" وعن مدى تحققها وإمكانيتها؟ فكان جوابه دالاًّ على ما ذكرناه من ضعف الإنسان وأثرِ ذلك على استحالة استيعاب المطلق، قال في ذلك: "لا أستطيع نفي هذه

---

(69) Lee Smolin: Rien ne va plus en physique! : l'échec de la théorie des cordes. Paris : Dunod, DL 2007.

(٧٠) انظر: منطق الكشف العلمي، كارل بوبر.

النظرية علميًّا، ولكن، الشيء الذي أنا متأكد منه بأنَّ ضعف الإنسان وضيقَ قدراته المعرفية، لا يستطيع من خلالها أن يفسّر كلَّ ما يحدث أمامه في الكون بنظرية بشرية واحدة. فأنا أرى بأنَّ هذا غير منطقي"[٧١].

ثانيا: "النوترينو" يحطِّم بناء الفزياء من لدن آنشتين

ومِن أبرز الأدلَّة على أنَّ العلوم الدقيقة ليست المرشَّح الأوَّل لليقين، أنَّها دوما تستند إلى الرياضيات لتكتسي حلّة من اليقين الرياضي، وفي ذلك يقول "هينري بوانكاري": "إنَّ العلوم تتسابق لاستعمال الرياضيات للتعبير عن نفسها ولغزو المجهول!"[٧٢]. بل إنَّ القضايا الرياضية نفسها حين تتعلق بالمنطق التجريبي تبقى معلَّقة، وغير يقينية كليًّا.[٧٣]

ودليل آخر على "لايقينية العلوم التجريبية"، هو أنَّ نظريةً ما قد تسيطر على الفكر البشري قرونا، وتؤتي ثمارها وأُكلها، فتبنى عليها صروحٌ، ثم

---

[٧١] موقع فييكوس: مايك سيمونس بمعهد المناهج: واقع المسلمين أثناني عن الشهادتين.

[٧٢] انظر: العلم والفرضية، هونري بوانكاري.

[٧٣] يقول محمد باقر الصدر، في مقال له تحت عنوان: "اليقين الرياضي والمنطق الوضعي": "المشكلة تبدأ من إدراك الفرق بين قضايا العلوم الطبيعية، وقضايا الرياضة والمنطق الأوّليّة من النواحي الآتية: إنّ قضايا الرياضة والمنطق تبدو يقينيّة، فهناك فرق كبير بين ١ + ١ = ٢، أو أنّ المثلث له ثلاثة أضلاع، أو أنّ اثنين نصف الأربعة؛ وبين قضايا العلوم الطبيعية نظير: إنّ المغناطيس يجذب الحديد، والمعدن يتمدّد بالحرارة، والماء يغلي إذا صار حارًّا بدرجة مئة، وكلّ إنسانٍ يموت. فإنّ القضايا الأُولى لا نتصوّر إمكانيّة الشكّ فيها بحال، بينما يمكن أن نشكّ في القضايا الطبيعية من النوع الثاني. فلو أنّ عددًا كبيرًا من الناس الموثوق بفهمهم وإدراكهم للتجارب العلميّة أخبرونا بوجود نوع من الماء لا يغلي بالحرارة، أو أنّ بعض المعادن لا تتمدّد بالحرارة، لتوقّف إيماننا بالقضيّة العامّة، بينما لا نستطيع أن نشكّ في الحقيقة الرياضية القائلة إنّ الاثنين نصف الأربعة، ولو أخبرنا أكبر عدد ممكن من الناس بأنّ الاثنين أحيانًا يكون ثلث الأربعة".

يأتي من يدحضها، ويبين الخطأ فيها، فتموتُ ويولد مكانها مولود هو الأنسب لذلك الزمان، ومن ذلك "نظرية نيوتن" التي حلَّ محلَّها "النظرية النسبية"، ثم جاءت "النظرية الكمومية" لتحلَّ محل "النسبية"، ومن بعدهما برزت "نظرية الفوضى".

واليومَ، وفي الأسابيع الماضية -فقط- أشارت نتيجة تجربة أجريت في "مُصادم هادرون" العائد للمنظمة الأوروبية للبحوث النووية (CERN) إلى أنَّه بإمكان بعض الجزيئات أن تتعدَّى سرعة الضوء، الأمر الذي يعتبر من المستحيلات حسب قوانين الفيزياء المعمول بها. فقد لاحظ العلماء أنَّ جزيئات "نوترينو" (Neutrino) التي أرسلت من مقرِّ المنظمة في جنيف بسويسرا (CERN Genova)، إلى مختبر "جران ساسو" (Gran Sasso) في إيطاليا، الذي يبعد عنه بمسافة ٧٣٢ كيلومترا قد وصلت قبل موعدها بجزء من الثانية.

ولقد وضعت هذه النتيجة التي تهدِّد بدحض كلِّ ما توصَّل إليه علم الفيزياء في القرن الأخير على الأنترنت، لكي يدرسها العلماء. وقد نشرت النتائج يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر ٢٠١١، على الساعة الثانية، في موقع جامعة "كورنيل" (Cornell)[٧٤]، فتسارعت وسائل الإعلام لنشر الخبر، ثم توالت التجارب آلاف المرات،[٧٥] فأعطت النتيجة نفسها، حتى إنَّ مخابرَ

---

[٧٤] الرابط هو: http://xxx.lanl.gov/ وانظر، تقرير (CNRS) الذي نشر على الأنترنت قبل يوم من الإعلام الرسمي؛ ولقد بدا السبق العلمي، ونسبة المشروع إلى عالم البلد، واضحا في تلكم التقارير. رغم أن المشروع أوروبي، وليس منسوبا لدولة معينة. ولذا تشير بعض التقارير للعالم أونتونيو إريداتو (Antonio Ereditato) الإيطالي الأصل؛ وتقارير أخرى تسلط الضوء على العالم الفرنسي انتسابا داريو أوتيريو (Dario Autiero).

[٧٥] تذكر بعض المراجع أنَّ التجربة أعيدت حوالى ١٥ ألف مرة؛ وصار الاكتشاف رسميا في المحافل العلمية.

الولايات المتحدة لم تتقبل النتيجة ابتداء، ثم نَقلت التجربة، وأعادتها، فأعطت نتيجة إيجابية.

كلُّ هذا لا يقلّل من قيمة النظريات العلمية الفيزيائية وغيرها؛ بل الأسف ملء الجوانح من تأخُّر أصحاب الديانات عموما، والمسلمين بالخصوص، في هذا المضمار؛[٧٦] وإنما المقصد من هذا المقال هو إثبات أنَّ ما يبدو يقينيا في حقبة زمنية قد يصير خطأ في حقبة لاحقة، وهذه ميزة العلم، وهي متلازمة مع وظيفته؛ كما لا يمكن أن تتسم العلوم المعيارية بمثل هذه الصفة، وإلاَّ زال المعيار، وشقيت البشرية.

إخفاق الفكر الغربي، وسقوط الأيديولوجيات التوتاليرية

لو طرح اليوم عالمٌ من العلماء إحدى أبرز النظريات الغربية، على أنها الحلُّ والجواب على "سؤال الأزمة"، فبشَّر مثلا بالماركسية، أو بالنيتشوية، أو بالفرويدية...مثلا؛ فإنه سيتحوَّل إلى مهزلة، وإلى مثال للتخلف الفكريِّ؛ وما ذلك إلاّ لكون النظريات الراديكالية، الشمولية، الاختزالية، التي تقصُر الجواب على أعمق الأزمات في "سبب واحد"، أو "جملة من الأسباب" من طبيعة واحدة، متجاهلةً تركيبية الظاهرة البشرية. يقول المسيري: "تشكل أطروحات نموذج الرصد الموضوعي المادي (المتلقي) التربة الخصبة (وليس السبب الوحيد) لظهور النماذج الاختزالية

---

[٧٦] يقول الأستاذ فتح الله في هذا الصدد: "وكما تعاقب ظهور العلماء في عالمنا الإسلامي من أمثال ابن سينا والفارابي والخوارزمي والرازي والزهراوي، إبان تحقُّق الوسط والبيئة الشبيهة، كذلك استَخدم الغربُ ما تَوارَثه من المكتسباتِ خير استخدام وبأوسع وجه ممكن في ذلك الوسط، واستطاع أن يسِمَ القرون الأخيرة بسِمَتِه." (ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٤).

التي تتسم بما يلي: التماسك الشديد - البساطة - التجانس - الواحدية - السببية الصلبة - الطموح نحو شمولية التفسير - الطموح نحو درجة عالية من اليقينية - الطموح نحو الدقة المتناهية في المصطلحات".

ولعلنا نقتصر هنا على "العلمانية الشاملة"، التي اكتسحت -ولا تزال- عقول الملايير من البشر، ولم يسلم منها حتى المشتغلون بالفكر من "العالم الديني" كما يُفترض؛ ذلك لأنَّ هذا النموذج هيمن على مناهج وأساليب التفكير بصورة فادحة. فهذا النموذج ثبت فشله، لأنه سعى إلى "فصل القيم والغايات الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الدولة وعن مرجعيتها النهائية، وتطبيق القانون المادي/الطبيعي على كلِّ مناحي الحياة، وتصفية أيِّ ثنائية بحيث يتم تسوية كلِّ الظواهر الإنسانية بالظواهر الطبيعية، فتنزع القداسة تمامًا عن العالم، ويتحول إلى مادة استعمالية يمكن إدراكها بالحواس الخمس" (المسيري).

فيلاحظ استعمال هذه الصيغ العمومية التعميمية: "كل"، و"أي"، و"تماما"؛ فليس فيها احتمال للنسبية، وللخطأ، وللرأي الآخر؛ ذلك أنَّ هذه النظريات الشمولية عوضَ أن تبقى نظريات في مستوى "الاجتهاد البشري"، أريد لها أن تتحوَّل إلى "ديانة"، أو إلى "بديل عن الديانة"، بحيث تجيب عن "أسئلة الوجود"، وإشكالات "الفراغ الكوني"؛ لا باعتماد المصدر الموثوق (الوحي)، والعلم الموثوق (علم الخالق)، وبالواسطة الموثوقة (الرسول)؛ لكن بالتنكر لها جميعا، وبافتراض القدرة على الاستغناء عنها كلية، وبأنَّ العقل والعلم هما المصدران الوحيدان، وما سواهما هو من قبيل "الخرافة"، أو "الغيب الذي لا يصدَّق ولا يكذَّب".

ولقد أعلن فشل "الإيديولوجيات" في العديد من المحافل، وبصيغ

عديدة، منها "النهايات"، على نمط "نهاية التاريخ"، و"نهاية الإنسان"، و"نهاية المعنى"...(٧٧) ثم على صورة "الصدامات"، على نمط "صدام الحضارات"، و"صدام الثقافات"، و"صدام القيم"...(٧٨) وقبل ذلك كانت "الصدَمات" تنخر عمق البشرية، وتعبِّر عن الفشل الذريع للنبوات الجديدة؛ ويعبِّر عن ذلك كتاب "صدمةُ المستقبل"(٧٩).

ولقد أوصلت "النهايات" و"الصدامات" و"الصدمات" البشريةَ إلى حافة الهاوية، وازداد العنف بمسميات مختلفة، وتأزَّم الاقتصاد، واسغولت أممٌ لقوَّتها، وديست أخرى بسبب حماقاتها وضعفها، وكلُّ هذا لا ينبئ إلاَّ عن فشل الأيديولوجيات التبشيرية، والنظريات الشمولية البشرية، ولا يدلُّ إلاَّ على ضرورة البحث من جديد عن السعادة في منظومة "التوحيد" لا في صفوف "الواحدية". يقول المسيري: "إنَّ إعلان فوكوياما نهاية التاريخ هو إعلان نهاية الإنسان وانتصار الطبيعة/المادة، أي الموضوع (اللاّإنساني) على الذات (الإنسانية)، ومعناه تَحوُّل العالم بأسره إلى كيان خاضع للقوانين الواحدية المادية (التي تجسدها الحضارة الغربية) التي لا تُفرِّق بين الإنسان والأشياء والحيوان والتي تُحوِّل العالم بأسره إلى مادة استعمالية، فنهاية التاريخ هي في واقع الأمر نهاية التاريخ الإنساني وبداية التاريخ الطبيعي".

تفرد الفكر الإسلامي بإمكانية تحقيق السعادة البشرية

كتب "مراد هوفمان" كتابا بعنوان "الإسلام كبديل"، ولم يكن في

---

(٧٧) انظر: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، فرنسيس فوكوياما.

.(La fin de l'Histoire,le monde diplomatique. février 2011)

(٧٨) انظر: صدام الحضارات، ساموئيل هنتنغتون.

(٧٩) انظر: مؤلفات ألفن توفلر: صدمة المستقبل؛ والموجة الثالثة، وتحوُّل السلطة.

الحقيقة من نوع الكتّاب الذين يوظِّفون الشعارات الكبيرة الرنانة، لمجرَّد التهويل، وإنما هو عالِم محترَم، له خصائصه الفكرية والحضارية، وصاحب منهج علميّ متميّز؛ ومما جاء في كتابه: "إنَّ الانتشار العفويَّ للإسلام هو سمة من سماته على مرِّ التاريخ، وذلك لأنَّه دينُ الفطرة المنزّل على قلب المصطفى ﷺ"[٨٠]. وقال في موطن آخر: "الإسلام دين شامل وقادر على المواجهة، وله تميُّزه في جعل التعليم فريضة، والعلم عبادة... وإنَّ صمود الإسلام ورفضه الانسحاب من مسرح الأحداث، عُدَّ في جانب كثير من الغربيين خروجًا عن سياق الزمن والتاريخ، بل عدّوه إهانة بالغة للغرب"[٨١].

والعالم "مراد هوفمان" يعرف أنَّ الكثيرين من الداخل والخارج على السواء، سيعتبرون هذا مجرَّد حملة دعائية، وأنَّ من المستحيل أن يعود الإسلام إلى واجهة التاريخ، ففنَّد هذا الزعم، وأشار بوضوح إلى شرط تحققه، وقال: "لا تستبعد أن يعاود الشرق قيادةَ العالم حضاريًّا، فما زالت مقولة "يأتي النور من الشرق" صالحةً... إنَّ الله سيعيننا إذا غيّرنا ما بأنفسنا، ليس بإصلاح الإسلام، ولكن بإصلاح موقفنا وأفعالنا تجاه الإسلام"[٨٢].

كما كتب "هوستن سميث" كتابا مبدعا، بعنوان "لماذا الدين ضرورة حتمية؟!"، طبَّق من خلاله منهج النفق المغلق، الذي صنعته المادية والعلموية المعاصرة، ونهاية النفق هي بالضرورة موصولة بالوحي الإلهي، وقد اعتمد المؤلف على "البرادايمات" وعلى أسلوب "التمثُّل" ليعالج موضوعه، وهو

---

[٨٠] انظر: يوميات مسلم ألماني، مراد هوفمان.

[٨١] انظر: يوميات مسلم ألماني، مراد هوفمان.

[٨٢] الإسلام كبديل، مراد هوفمان، ص:١٣٦.

وإن لم يؤكد على ديانة دون أخرى، إلاَّ أنه يشترط الوحي والمدد الرباني لبلوغ السعادة، وبغيرهما ستستمر البشرية في شقائها الانتحاري.

أين الأستاذ فتح الله في هذا السياق؟

لا شكَّ أنَّ بحثا معمَّقا حول "الفكر الشمولي عند الأستاذ فتح الله كولن" سيكون جديرا بالاهتمام، وحقيقا بالعناية؛ وإننا بداية ندعو الباحثين في مختلف التخصُّصات إلى هذا الإنجاز الفكريِّ العلميِّ الحضاريِّ المتميِّز؛ وسنقتصر على بعض الومضات، تمثيلا لا حصرًا، وفتحًا للشهية لا ادِّعاء للطبخة المنتهية الجاهزة.

الوحي وسعادة البشرية

عن ضرورة الوحي لسعادة البشرية؛ نقرأ للأستاذ العديدَ من المقالات، منها: "دنيا في رحم الولادة"، و"وارثو الأرض"، و"الأجيال المثالية"، و"رسالة الإحياء"... وغيرها كثير؛ وفي ذلك يقول في مقال "نحو سلطنة القلوب": "ينبغي أن لا نرتاب في أنَّ ذوينا وبخاصَّة الأجيال الفتية منَّا، سيكونون في القابل القريب أصحابَ القول الفصل في سنوات الألفية الثالثة، ما لم تعصف رياحٌ معاكسةٌ فلم تبدِّد المكاسب المتراكمة حتى الآن بطريقة أو بأخرى. إنَّ أجيال اليوم المؤمنةَ السائرةَ في الطريق، المشدودةَ بالتحفُّز الروحيِّ الكامل استعدادًا لمنازلة الغبن والقهر والظلم الذي أصابها منذ قرون، يزفون بتحفُّزهم هذا من الآن ببشائر مهمَّة عما سيتحقَّق من تجديدات أساسية في جميع طبقات المجتمع في مطالع الألفية الثالثة. وحينما يحلُّ الموسم سيؤتي الإيمانُ والعزم والثبات وعشقُ الحقيقة والفكرُ المنهجي بثماره -علمًا بأنَّ كلا منها في حدِّ ذاتها طاقة

كامنة بالقوة- وسنعيش "انبعاثات عديدةً" تحتضن وحدات الحياة كلها"[٨٣].

إنَّ "التوتُّر الروحيَّ"، أو ما أسماه فتح الله في هذا المقال "بالتحفُّز الروحيِّ"، هو سرُّ الحركية، وهو الشعلة التي لو لامست محرِّكا (قلبًا) به طاقةٌ وهواءٌ؛ فإنَّه لا شكَّ سيحترق شوقًا وعشقًا، وسيبلغ بالمركبة آمادًا بعيدة، ولسوف يبلِّغها مقاصد سعيدة، في الدنيا أولا، ثم في الآخرة ثانيا. أمَّا مَن فقد ذلكم التوتُّر والتحفُّز الروحيَّ؛ أو كان متوتِّرا ماديًّا ومصلحيًّا ليس إلاَّ، شأن أصحاب الحضارات المادية الإلحادية؛ فإنَّه سيتحرَّك، وسيبني، وسيُنجز؛[٨٤] لكنَّ حركته وبناءه وإنجازه لن يعدو المظاهر القريبة، وهو ولا ريب آيلٌ إلى هلاك ودمار، إن لم يكن اليوم فغدًا. وهذا مؤدَّى قول السحرة لفرعون: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(طه:٧٢) ".

المنجزات العلمية

أمَّا عن زهو العالَم المعاصر بالمنجزات التقنية، فيقول فتح الله: "إنَّ هذا العالم يحاول أن يسلِّي نفسه بالمنجَزات العلميَّة والتكنولوجية هنا وهناك، وأن يُسرِّي عن غمِّه بالثروة والراحة أحيانا. لكن من البدهيّ أنها لن تَمنح الإنسان سعادةً مستمرَّة أبدا، ولن تلبِّي رغبة البقاء والخلود المكنونةَ في أعماقه. ولذلك، ما من شيء يتخذه دواء وعلاجًا إلا ويزيد

---

[٨٣] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٠.

[٨٤] يسمِّي مالك بن نبي الرجلَ الذي فقد كلَّ أسباب الحركة والحركية، وركن إلى الخمول والخمود، وآثر الدون على المعالي؛ لسببٍ أو لآخر... يسمِّيه "رجلَ القلَّة"، و"رجلَ النصف"؛ وهو يميّزه عن "رجل الفطرة"، الذي وإن بدا ساكنًا؛ إلاَّ أنه يحمل بذور الحركية والفعل؛ خلافا للآخَر، الحامل لبذور الأفكار الميتة والقاتلة. (انظر: شروط النهضة، مالك بن نبي).

في قتامة أفق الأمل الإنساني ويضيف بؤسًا إلى بؤسه الروحي. فهذا العالم يتباهى بالعلم والتكنولوجيا إزاء الفراغ والاكتئاب الذي أوجده في الحياة الاجتماعية نتيجة لخطئه العظيم في تحديد نقطة الانطلاق.. ولْنتركْه يسلِّي نفسه ويلهو باللذائذ والأذواق، أو يتطلع ببصره إلى أعماق الفضاء في حين أنه يعاني من افتقاد الروح والمعنى الذي ضيعه في قلبه، مُهدِرا العمرَ خلف ضالته في وديان أخرى"[٨٥].

ونسجِّل تنبيهَ الأستاذ إلى "الخطأ في نقطة الانطلاق"، أي بلغة "علم المناهج" يكمن الخطأ في اعتقاد "المسلَّمات"، و"البدهيات"، و"اليقينيات" أي ما عبَّر عنه بـ"افتقاد الروح والمعنى". وبلغة "نظرية المعرفة" نقول: "يكمن الخطأ في الرؤية الكونية" وفي "النماذج الإدراكية". فهو يقول في مكان آخر: "بدهي أنَّ نظرياتٍ بدت ثابتةً ومتينة، تترك مواقعها إبان هذه المناقشة والمساءلة لتحلَّ محلها آراء جديدة مختلفة، فتَرحل مُسلّماتٌ كانت تصان في حدقات العيون باسم العلم، متهاويةً واحدة بعد أخرى، لتحل محلها مسلماتٌ أخرى تحط واحدة بعد أخرى"[٨٦].

ولا أدلَّ على هذا من انسحاق الأيديولوجيات، واحدةً تلو أخرى، بين أضراس العصر الحاضر، بما يحمل من أزمات وحروب وخلافات، دلَّت دلالة واضحة أنَّ المنطلق خاطئٌ، وأنَّ البداية منحرفة انحرافا خطيرًا.

ولقد ألَّف العديد من الكتَّاب والمفكِّرين، الغربيين بالخصوص، بحوثًا ودراسات تصف وتحلِّل هلاك الأيديولوجيات والفلسفات، من ذلك مثلا: "نهاية الأيديولوجية" لـ"دانيال بال"، الذي لاقى إقبالا وصدى بالغا في الدوائر العلمية العالمية.

---

(٨٥) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٧.

(٨٦) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٣٥.

خلافة الله في الأرض

يحاول الأستاذ أن يعرض ملمحا هامًّا وخطيرا، وهو أنَّ الإنسان "سواء باعتباره عالما" أو "باعتباره موضوعا للعلم"، وظيفتُه الأساسية هي "خلافة الله في الأرض"، فإذا ما استوعب هذا المفهوم، وارتكز عليه وجب عليه "أن يكون عاشقا للحقيقة، وحريصا على العلم والتحرِّي، وشغوفا بالبحث واكتسابِ المهارة في كلِّ مجال. لكن ينبغي أن يتقي المؤمن ويحذر من الاتكاء على المصادر الأخرى في الأمور المتعلقة بالنُّظُم العَقَدية والفكرية، والموضوعاتِ المرتبطة بالكتاب والسنة وبكل ما يتعلق بتمثُّل الرسول ﷺ، وطرائقِ التحليل والبحث في السيرة وتاريخِ الإسلام عموما، والفنِّ والأدب ونحو ذلك، لأنَّ الذين أقاموا بنيانهم الفكري على معاداة الإسلام، ونظروا إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يُرجى منهم التصرفُ بحسن النية وطلبِ الخير للمسلمين وتمنِّي التقدم لهم. أمَّا العلمُ والتكنولوجيا -وهما خارج إطار ما ذكرناه- فقد ظلت الأيدي تتناقلهما بين الأمم في الماضي، وستستمر المبادلة فيهما مستقبلاً، وتنتقل أمانةً ووديعةً في أيدي حائزيها. فالعلوم والتكنولوجيا ليست حكرًا على دين أو أمَّة. لذلك، تستطيع كلُّ أمَّة سليمةِ المشاعر والفكر والمعتقدات، منتصبةٍ على ساقيها بثبات ورسوخ، أن تعتصر هذه العلوم الصِّرفة وتقطرها في روحها، فتجعلَها صوتَ قلبِها ونَفَسَه، ووسيلةً تُوصِل البشر إلى الله تعالى"[٨٧].

يمكننا أن نطالع هذه الفقرات مطالعة نصية حرفية جافة، أو مطالعة لغوية أدبية فنية؛ غير أنَّ القراءة المعرفية تجلِّي لنا دلالات عميقة لا حدَّ

[٨٧] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٤.

لها، ومن ذلك: اعتماد حكم "الوجوب" الذي هو مِن الأحكام الشرعية المترتب عليها آثار دينية؛ فالأستاذ يحكم بـ:

- وجوب عشق الحقيقة.
- ووجوب الحرص على العلم والتحري.
- ووجوب الشغف بالبحث.
- ووجوب اكتساب المهارة في كلّ مجال.

وهو ما يعبِّر عنه المفكِّر الأديب عباس محمود العقاد بعنوانه الدال "التفكير فريضة إسلامية"؛ ولا شكَّ أنَّ مصدر هذا الحكم هو القاعدة الأصولية: "ما لا يتم الواجب إلاَّ به، فهو واجب"، فعزَّة المسلمين، ونصرةُ الإسلام، وظهورُ دين الله تعالى، وسعادةُ بني البشر... كلُّ ذلك مقصد للشارع، لا يتمُّ ولا يتحقَّق إلا بالأحكام التي أوردها الأستاذ، لو أنها أخذت بجدية، ولم تقرأ قراءة "استرخائية اختيارية اعتيادية".

ونقرأ في الفقرة أعلاه، حول "مصادر المعرفة" كون "الوحي" هو المصدر في كلِّ ما من شأنه أن يعالج "النظم العقدية والفكرية"، أو كلِّ ما يعالج حقيقة الكون، ومعنى الإنسان، والمصير، والغيب... فكلُّ ذلك لا يمكن للعلوم الدقيقة أن تبثَّ فيه، ولا حتى أن تدلي بدلوها؛ فهي ليست مرشَّحة لذلك.

ثم يدخل الأستاذ مفهوما "عقديا" في نظرية المعرفة، وهو "النيّة"؛ فمن ساءت نيته ساء مصدره ومورده، ولم ينتظر منه الصدق، ولم يكن أهلا ليتعلَّم منه؛ يقول: "إنَّ الذين أقاموا بنيانهم الفكري على معاداة الإسلام، ونظروا إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يُرجى

منهم التصرفُ بحسن النية وطلبِ الخير للمسلمين وتمنِّي التقدم لهم."(٨٨)

ولو أنَّك -اليوم- في محفل علميٍّ أكاديميٍّ متخصِّص، حتى في العديد من الجامعات العربية، ربطت بين النية والمعرفة؛ لوجدت الكثير من الدارسين يقفون أمامك محتجين أنَّ النية لا تقاس، وهي "ذاتية"، ولا تؤثر على العلم، وما دخلها في البحث العلمي؟ ودليل ذلك العشرات من المصادر "في منهجية البحث العلمي"، التي كتبت باللغة العربية، من قبل باحثين من مختلف التخصصات، قلَّ منهم من يدرج النية في "شروط الصدق المعرفي"، ولقد أبدع المسيري رحمه الله حين فنَّد خرافة "الذاتية والموضوعية" بالبديل المعرفي، المعنون بـ"التفسيرية"؛ فالنية أكثر تفسيرية من أيِّ معطى آخر في مسار العلم اليوم، ولا يعنينا -كما نقرأ عند الأستاذ- أن تتقبلها الدوائر الرسمية، أو ترفضها. ونحسب هذا من إبداعات الأستاذ فتح الله كولن؛ كاشفا عن صفاء نيته وسريرته.

وفي السياق نفسه تأتي "سلامة المشاعر والفكر والمعتقدات، والثبات والرسوخ" لتمكِّن الأمَّة من أن "تعتصر هذه العلوم الصِّرفة وتقطرها في روحها، فتجعلَها صوتَ قلبِها ونَفَسَه، ووسيلةً تُوصِل البشر إلى الله تعالى".

أمَّا "العلم والتكنولوجية" في رأي الأستاذ، فهما محلٌّ لأنْ يتمَّ "تناقلهما بين الأمم في الماضي"، و"المبادلة فيهما مستقبلاً"، و"الانتقال أمانةً ووديعةً في أيدي حائزيها". والخلاصة أنَّ "العلوم والتكنولوجيا ليست حكرًا على دين أو أمَّة".

فهذه الدلالات المعرفية الواردة، تؤكِّد -بما لا يدع مجالا للشكِّ- أنَّ

(٨٨) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٤.

الأستاذ يرسم الفوارق بين "العلوم اليقينية" التي مصدرها الوحي، وصبغتها "صدق النية"، عن العلوم الأقل يقينية، التي هي ملك لكلِّ من يُعمل فيها عقله؛ ومن ثم فهو يشير إلى شمولية وكلية الأولى، وإلى إنسانية ونسبية الثانية؛ وهذا ما نحاول إثباته من خلال ورقتنا هذه.

الصراع الموهوم بين العلم والدين

في ذات السياق يحلِّل الأستاذ "سبب شقاء البشرية"، وسبب عجزها عن اكتشاف الحقيقة ناصعةً، سواء في الغرب ابتداء، أم في الشرق ولوعا وأثرا، فيقول: "والمؤلم أنَّ فلسفة العلم في أوروبا -وعلى نقيض المرونة في عالمنا الفكري- قد أوقعت الغربَ كله في صراع دائم بين العلم والدين لأمور وأوضاع خصوصية، فخَلَّفَ ذلك انفصامًا بين العقل والقلب. وهذا هو السبب الرئيس للمعضلات المتتابعة منذ عصور في النُّظم الغربية كلِّها. بل لقد تفاقمت الأزمة من مخاصمةِ جبهة العلم والفلسفة للدوغمائيات الكنسية، إلى مخاصمة "المفاهيم" الدينية كافة بمرور الزمان... فكأنَّ العلم والفلسفة حاميةٌ ومدافِعةٌ عن الإلحاد. وقد أصاب -للأسف الشديد- الفكرَ الإسلاميَّ البريء، غبارٌ من هذا العداء ضد الأديان كلها، إذ عُرِّض لأشنع ظلمٍ وأبشعِ غبن، ووُضِع في قفص الاتهام مع الكنيسة التي هي المعنية في الأصل بهذه الخصومة. انقلبت هذه الحركة المعادية لدوغمائياتِ تلك التنظيمات التي ظهرت بمظهر الدين، والمنطلقةُ في بداياتها من الحرية الفكرية والعلمية.. انقلبت بمرور الزمان إلى معاداة الله والدين والتدين، ثم إلى تحمسٍ في أرجاء العالم كله لإسكات المتدينين وإحباطهم وتضييقِ الخناق عليهم، بل إزالتِهم من الوجود تمامًا. ومع أنه لم يكن للعالم

الإسلامي مشكلة البتَّة مع العلم أو حريةِ الفكر، ولكنَّ زمرًا من أعداء الدين تغاضوا عن هذه الحقيقة الفارقة واتخذوه غرضًا لمراميهم العدائية الدنيئة مساوين له بالمسيحية الكنسية."[٨٩].

الصراع الدائم بين العلم والدين كان منشأه انحرافات في الكنيسة، غير أنَّ الذين حاربوا الانحرافات كانوا "ثوريين"، فعوض أن يصفُّوا مجاري المياه، راحوا يجففون المنابع كلَّها، فحاربوا كلَّ "وحي" وكلَّ "دين" وكلَّ "إله"... يقول كارل ماركس: "الدين تنهيدة الكائن المضطهَد، قلبُ عالم لا قلب له، وروح شروط بلا روح. إنه أفيون الشعب"، أمَّا "جان ميليه" فيقول: "سأختم بالقول بأني أرجو الله الذي تثير تلك الطائفة -أي المسيحيين- سخطَه أن يتلطَّف، ويعود بنا إلى الدين الطبيعيِّ، الذي ليست المسيحية غير عدوِّه الصريح" وما الدين الطبيعيُّ سوى العلم طبعًا، ويفسر "كلوت" ذلك بقوله: "ما من إله آخر غير الطبيعة".

هذا الصراع أغرى المنتصِر، ومنحه "زهوا" و"غرورا"، حتى ظنَّ أنه يستطيع أن يقول أكثر مما يعلم، أو يمكنه أن يسحب ما يعلم ليشمل ما لا يعلم؛ وإلاَّ فما الذي يبرِّر -مثلا- آراء "ستيفن هاوكينغ" -الكوسمولوجي والفزيائي- عن الله، وعن الغيب، في مثل قوله: في كتابه الأخير "التصميم العظيم": "إنَّ العلم بات قادرا اليوم على القول إنَّ الله لم يخلق الكون، وإنَّ الانفجار الكبير لم يكن سوى عواقب حتمية لقوانين الفيزياء". وما هذا الصلف سوى ادعاء -لا مبرر له- أنَّ العالِم هو صاحب القول الفصل في "كلِّ شيء"، وهو القادر على اكتشاف نظرية تفسر "كلَّ شيء" في

[٨٩] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٥.

الوجود، ليس الماديَّ فقط، بل والمعنويَّ كذلك. وليس المحسوس فقط، بل والغيبي أيضا.

وفي رأينا، استطاع فتح الله أن يضع اليد على الجرح، بحديثه عن "ديكتاتورية العلم" أو بالأحرى، "حين يحترف العالم الظلم باسم العلم"، ويقول عنها إنها تحولَّت إلى احتراف: "معاداة الله والدين والتدين، ثم إلى تحمُّسٍ في أرجاء العالم كلِّه، لإسكات المتدينين، وإحباطهم، وتضييقِ الخناق عليهم، بل إزالتِهم من الوجود تمامًا"[٩٠]. ولكم قرأنا من كتب حول "ديمقراطية العلم"، وعن "الحرية في العلم"، وعن أنَّ "الاستبداد وليد الدين لا العلم"؛ وها هو فتح الله يكشف النقاب عن العكس، وهو كذلك لا ينفي أن يولد التعصب والظلم من رحم الدين، حين ينحرف أهله به.

وهذه خطوة أخرى في نظرية المعرفة، من منظور "أصيل" لا "تأصيلي كما يسمَّى أحيانا"؛ لعلَّ فتح الله هو أحد أبرز روَّادها، لو تمكننا من دراستها، والتنظير لها، بعقلية منفتحة، وجهد لا يقتصر على الفرد، ولكن يتجاوزه إلى "جماعة علمية"، بكل ما يعنيه المصطلح من دلالة.

الرؤية الكونية، ومصدر الحقيقة المطلقة

حين يتمُّ الحديث عن "الرؤية الكونية"، يشار أساسا إلى مكوِّنات ثلاث هي "الله، والإنسان، والكون"، ثم يتم التركيز على "التصور، والحكم، والموقف" على هذه العناصر، ولقد كان الحديث عنها قبلُ يحشر في الدوائر الرسمية ضمن "ما وراء العلم"، أو "في حقول الفلسفة" على الغالب؛ أمَّا اليوم، فبفضل جهود علمية متكاثفة، وبسبب إخفاقات

[٩٠] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٥.

تجزيئية إقصائية متوالية، اضطرَّ المنصفون أن يعودوا إلى الجذور، وإلى بواطن المشكلة والأزمة، فوجدوها في التصوُّر، والحكم، والموقف من "الله، والإنسان، والكون"؛ أي في "الرؤية الكونية" ولا ريب.

في كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، يعرض فتح الله لهذه المسألة بعمق، لكن دون أن يسميها باسمها المعروف مباشرة، فيكتب مقالا بعنوان "الله، الكون، الإنسان.. والنبوة"، ويمكن تفسيره بعبارة "النبوة والرؤية الكونية"، ومما ورد فيه: "إنَّ قراءة الوجود والأحداث قراءةً جيدة وتفسيرَها تفسيرًا صائبًا، وكذلك الحفاظ على الموازنة بين الإنسان والكون وحقيقةِ الألوهية، لهي من أهم جوانب الأعماق النبوية ومن أرقى مميزاتها.. فإن الإدراك العميق للوجود كـ"كلٍّ"، والفهمَ التام لتجلي الأشياء -التي بعضها نماذج للبعض الآخر- في صورتها العمومية، ولقوانين الوحدة التي هي ذاتُ صفةٍ كونية ومحيطة بالموجودات... كلُّ ذلك إنما تَيسَّرَ للأنبياء وحدهم، وعلى رأسهم حضرة روح سيد الأنام -عليه أكمل التحايا- وهذا أبهر معجزاتهم قاطبة. وإذ لا زالت البشرية تتهجى في أيامنا هذه حروفَ الحقائق المتعلقة بالإنسان والكائنات وما وراء الطبيعة مع توسعها العلمي وتقدمها التكنولوجي، فإنَّ الأنبياء وقفوا مليا -وبجد- على هذه الحقائق منذ آلاف السنين، وقالوا بالتمام لأممهم ما ينبغي أن يقال في شأن الرجوع بالأشياء لصاحبها؛ فبعضهم أجمل وبعضهم فصَّل، وذلك بجَهازهم الخارق للعادة، ومكانتهم الخاصة عند الحق تعالى، والتبليغاتِ المتوالية من الماورائيات"[٩١].

---

[٩١] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٣٣.

لا تخطئ القارئَ النزعةُ "الكونية الشمولية" في هذا النصِّ، إذ الألفاظ والعبارات دالة على ذلك، منها، ألفاظ مثل: "قراءة جيدة... تفسير صائب... الموازنة... الإدراك العميق للوجود ككلٍّ... والفهم التامَّ لتجلي الأشياء... في صورتها العمومية.... وقوانين الوحدة... وصفة كونية محيطة بالموجودات....الخ". ودلالة هذه العبارات أنَّ "تفسير كلِّ شيء، وبيان كلِّ شيء، سواء أتعلق ذلك بالإنسان، أم بالكون، أم بالحقيقة الإلهية... لا يتأتى إلاَّ للوحي، وللأنبياء، ولا يمكن أن يدركه إلاَّ من ارتشف رشفة من نبع الصفاء الأبديِّ، واغترف غرفة من نهر الحقيقة النورانية؛ وهل يمكن أن تكون هذه سوى "نظرية كلِّ شيء" بدلالتها المعرفية التوحيدية الشمولية، لا بمعناها الأبستمولوجي المادي الواحدي؟!

ليس المقصد التهوين من شأن العلم المادي والتقنية

يشدُّني إلى فتح الله تلكم القدرة على الموازنة والتوازن، فهو بأيِّ مبرِّر كان، لا يميل إلى الغلوِّ، ولا يقبل الأحكام الجزافية المطلقة، ومن ذلك تصحيحه لخطأ قد يقع فيه "الطالب، وغير المتمرِّس"، أو "العالم بالتراث الفقهيِّ، مع جهل بالتراث العلميِّ"، من احتقار ما توصَّلت إليه البشرية من علم، ومن تقدُّم تقنيٍّ وتكنولوجيٍّ لا غبار عليه؛ وفي ذلك يقول: "وأنبِّه هنا إلى أني لا أقصد بما قلته التهوينَ من شأن العلم وثمراته، أو الانتقاصَ من أهمية المباحث العلمية؛ بل نعتقد أنَّ العلم وثمراته منظومةُ قيمٍ هامة جدًّا وتستحق التوقير والتقدير"[٩٢].

وفي ذات السياق يقول محمد مهاتير: "صحيح أنَّ الإسلام يطلب من

[٩٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٣٤.

المسلمين أن يدرسوا العقيدة، ولكنه يطلب منهم أيضا أن يدرسوا كلَّ المعارف. إنَّ إدارة الظهر للمعارف الأخرى لن يجعل المرء أكثر إسلاما".

فما هو المقصد المعرفيُّ المنهجيُّ، إذن؟

يجيب فتح الله: "المقصود هو التذكير إلى مصدرٍ للعلم لا يُلتفت إليه اليوم، مع أنه أصح المصادر في التعبير عن حقيقة الإنسان والوجود والخلق، وأكملُها وأشملها، مع تنزهه عن الخطأ فيما يقوله ويرشد إليه... ألا وهو مصدر "النبوة" التي احتفظت بنداوتها أبدًا، باستثناء التحريف الحاصل في بعض الكتب السابقة... إنَّ العلوم المعاصرة اليوم قد تكتشف -من منظور كليٍّ وبتقويم شمولي- أمورًا مهمَّة تتعلَّق بالنظام والانسجام والحركة في الوجود والحوادث، ونحن نستقبل ذلك بالتقدير والتوقير؛ لكنَّ جمعًا من المجهَّزين بجَهاز خاصٍّ، قد أعلنوا في أقدم العصور وبواكير الزمان -ولو بشكل إجمالي- هذه المعلوماتِ والتفسيرات التي توصَّل إليها العصرُ باستخدامِ أعظم التكنولوجيات. فإذا كان هناك قسم من الجهات العلمية لم يلتفتوا إليها أو لم يوقروها التوقير اللائق، فإننا نرفع عند ذاك أصواتنا -في حدود أدبنا- فوق أصواتهم، ونجهر بأعلى صوتنا بما نراه حقًّا"[٩٣].

فنظرية كلَّ شيء، من وجهة نظر هذا البحث، ومن مدخل الأستاذ فتح الله، لا تعنى بـ"تفسير كلِّ شيء" كما في بعض الطرحات العلمية الغربية؛ غير أنها تعنى بالبحث عن المصدر، أو المصادر، التي تعبر عن الحقائق بصورة شمولية كلية، مصدر لا يشوبه تحريف ولا يعتريه تزييف، ولا يلحقه

[٩٣] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٣٥.

خطأ ولا يناله خطل، وما ذلك المصدر سوى "الوحي" أوان نقائه، وحين لا تعبث به أيدي الناس، وعندما لا تشوِّه محياه بحماقاتها ونفاقها وتصرفاتها الرعناء؛ وهذا مؤدَّى قول الأستاذ: "المقصود هو التذكير إلى مصدرٍ للعلم لا يُلتفت إليه اليوم، مع أنه أصح المصادر في التعبير عن حقيقة الإنسان والوجود والخلق، وأكملُها وأشملها، مع تنزهه عن الخطأ في ما يقوله ويرشد إليه... ألا وهو مصدر "النبوة" التي احتفظت بنداوتها أبدًا".

وظيفة العلم، ونظرية كلِّ شيء

هل ثمة وظيفة للعلم سوى تمكين البشرية من السعادة، والرخاء، والطمأنينة الأبدية، لا الظرفية فقط؟

يحلل الأستاذ فتح الله وظيفة العلم، من مدخل معرفي، ويشترط في تحقيقها "تفسير الوجود بفهم شمولي ينتظم كلَّه وجزءَه"، أي الشرط هو "نظرية كلِّ شيء" باعتبار سعة الفهم، ونقاء المصدر، لا بغرض التفصيل في كلِّ شيء بوحداته؛ ثم إنَّ تلكم الوظيفة، ما هي إلاَّ "السعادة"، و"التوازن بين كلِّ الأشياء وتناسبها"، و"ربط كلِّ المخلوقات بخالقها"، و"النجاة من الوقوع في التناقض الداخلي" أيا كان نوعه.

يقول فتح الله: "فالسعداء هؤلاء، لهم نظر خاص إلى الوجود وما وراء الوجود؛ فهم يطَّلعون على كلِّ شيء بأنوار البصيرة، ويقوِّمون الأشياء والأحداث في الدائرة التي وضَعَتْها فيها قدرة الخالق تعالى، ويتناولون كلَّ شيء بحقيقته في نفس الأمر (بحقيقة جوهره)، وإذ يفسِّرون الوجود بفهم شموليٍّ ينتظم كلَّه وجزءَه، يعتنون بتوازنِ كلِّ الأشياء فيما بينها وتناسُبِها، وبروابطها بالخالق تعالى، فلا يقعون أبدًا في تناقض داخليٍّ.

ولذلك، هؤلاء وحدهم أفلحوا مدى الدهر في النظر الصائب والفكر الصائب والتعبير الصائب، بشأن حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ فهم وحدهم استطاعوا أن يبيِّنوا التوحيد بجميع ضرورياته ولوازمه، وهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا الموازنات السليمة بين الأسماء الإلهية والصفات السبحانية والشؤونات الذاتية مع الذات الإلهية... وكذا هم وحدهم عبروا تعبيرًا صائبًا عن خصوصياتِ دائرةِ الألوهية ودائرة الربوبية باعتبارها تجلياتٍ مختلفةً لنبع واحد. ولولا أَنْ تجلت الإرادة الإلهية بالإحسان في إرسال الرسل، لعجزتْ أخصبُ الأدمغة -على توالي العصور والدهور ومع أعظم الهمة والجهد- عن تحصيل مثل هذه الحقائق قطعًا وبتاتا، بل عجزُها ظاهر للعيان بواقع الحال!"[٩٤].

ولقد ردَّ محمد باقر الصدر، في كتابه "اقتصادنا"، على الذين ادعوا أنَّ العلم على صورته الوضعية، كفيل بإسعاد البشرية، ففنَّد هذا الوهم قائلا: "ويتردد على بعض الشفاه: أنَّ العلم الذي تطور بشكل هائل كفيل بحلّ المشكلة الاجتماعية.. إنَّ هذا الإنسان الذي سجَّل في تاريخ قصير كلَّ هذه الفتوحات العلمية، وانتصر في جميع معاركه مع الطبيعة لقادر بما أوتي من علم وبصيرة، أن يبني المجتمع السعيد المتماسك، ويضع التنظيم الاجتماعي التي يكفل المصالح الاجتماعية الإنسانية، فلم يعد الإنسان بحاجة إلى مصدر يستوحي منه موقفه الاجتماعي سوى العلم الذي قاده من نصر إلى نصر في كل الميادين". ثم قال: "وهذا الادعاء في الحقيقة يكشف الجهل بوظيفة العلم في الحياة الإنسانية، فإنَّ العلم وأساليبه ومناهجه ما

---

[٩٤] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٣٩.

هي إلاَّ أدوات بحثٍ ووسائل تحليل، إنها ليست إلاَّ أداة لكشف الحقائق الموضوعية، سواء في الظواهر الطبيعية، أو العلوم الإنسانية". فسعادة البشرية إذن لا تتأتَّى من باب العلم، ولكنها تتنزَّل من سماء الوحي.

الإسلام كلّ... كلٌّ يستحيل تجزُّؤه

مما تقدم نستنتج أنَّ فتح الله كولن يدافع عن أنَّ "الحقيقة" في كلِّيتها وشموليتها، لا تصدر إلاَّ من نبع التفسير الديني، ولا تكون إلاَّ من مدرسة الأنبياء عليهم السلام، المعلَّمين من قبل ربِّ العزّة، العالم العليم بكلِّ شيء؛ وذروة تلكم الحقيقة هو "كلام الله تعالى"، المنزَّل على مفسِّر أسرار الوجود، محمد عليه أفضل الصلاة، وأزكى التسليم.

يقول فتح الله في هذا الشأن: "الحاصل أنَّ الإسلام صوتُ كتابِ الكائنات ونَفَسُه وتفسيرُه وإيضاحه، كذلك هو رسْمُ ماضي الكائنات وحاضرِها ومستقبلِها، وصورتُها وخارطتها، ومفتاحٌ سرّيٌّ لأبوابها التي قد تُظَن أنها مغلقة. الإسلام "كلٌّ" يعبر عن هذه الأمور والشؤون جميعًا. "كلٌّ" يستحيل تَجَزُّؤه، ويستحيل أن يُحمَّل جزؤه القِيَمَ المحمّلةَ على الكل. فإنَّ تجزئته إلى أجزاء، ثم محاولةَ استنباطِ فهمٍ كاملٍ وتام من الأجزاء غلطٌ وخطل وإهانة لروحه. وسوف يبقى من يريد أن يفهمه أو يحصره في تفسيرِ آياتٍ وأحاديث معدودة بأسلوب وعظيٍّ، مهزوزَ الوجدان بأحاسيسِ نقص حقيقي، ومُعانِيًا من خواء روحي دائم؛ مهما كدَّ وسعَى لسماع مجموعة الأنغام الرائعة هذه. الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكرٌ، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاًّ متكاملاً، فيفسرها، ويقوّمها بقيمه، ويقدِّم لمنتسبيه

مائدةً سماوية من غير نقص. وهو يفسِّر أداء الحياة دومًا ممتزجًا مع الواقع، ولا ينادي البتة بأحكامه في وديان الخيال بمعزل عن الحياة. يَربط أحكامَه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يَبني الأحكامَ في دنيا الأحلام. الإسلام موجود وحركي في الحياة بكلِّ مساحاتها، من القضايا العقدية إلى الأنشطة الفنية والثقافية... وذلك هو أهم الأمارات والأسس لحيويته وعالميته الأبدية"[٩٥].

من هنا نخلصُ إلى أنَّ فتح الله مشدودٌ إلى "شمولية الحقيقة"، وإلى "عالمية الفكر الإسلامي"، وإلى "الرؤية الكلية غير المختزلة" للحقائق الثلاثة (الله، الإنسان، الكون)؛ مما دفعه إلى مواجهة كلِّ "نظرة ضيقة"، ومحاربة كلِّ "عصبية مقيتة"، ودحض كلِّ "تجزيئية مميتة".

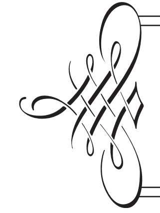
أمَّا سبب هذه "الرؤية الشمولية" فلا ريب أنه المصدر الصافي، أي الوحي المتجاوز المتعالي؛ الذي يمثل "الحقيقة كلّها"، ويعالج "أصول كلِّ شيء"، ويصدق أن يقال عنه: "فيه كلُّ شيء"؛ لا بالسرد والتفصيل، لكن بالتمثيل والتأصيل... هذه "الحقيقة الكلية"، هي التي سمّيناها في هذا البحث "نظرية كلِّ شيء في فكر الأستاذ فتح الله كولن". وما هي في أصلها سوى التفسير لحقائق الوحي، تفسيرا ناصحا مبينا، من عالم ناصح أمين.

ويجمل بنا أن نختم هذا البحث بعبارة جامعة، من كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، جاء فيها: "لقد أُرسل حضرة سيد الأنام (عليه ألفُ ألفِ صلاة وسلام) برسالة تتعلق بكلِّ أحد، وكلِّ شيء. وكان يوفي وظيفته حقها ويؤدّيها بعمق، فتمتلئ بحبه الأفئدةُ وتنجذب إليه القلوب"[٩٦].

---

[٩٥] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٦١.

[٩٦] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٤٨.



القسم الثاني

فصول ذاتية موضوعية



- "بايكان"، أو نمط "الثالث الموضوع"
- من الأنصاري إلى الأنصار، رحلة إلى المغرب
- ولكن.. كلُّنا في الهم شوقُ
- وقف الصحفيين والكتاب: من إسلام القوة إلى قوة الإسلام!

"بَايْكَان"، أو نمط "الثالث الموضوع"

قد يبدو العنوان غريبا في شقِّيه: الأوَّل "بايكان"، والثاني: "الثالث الموضوع"؛ وما ذلك إلاَّ أنه وُلد مِن رحم غيرِ المألوف لدينا، وعُصِر من صلب الغرابة في عُرفنا الفكريِّ واليوميِّ. ولكنَّني سأحاول ضمن "نظرية الوعاء الحضاري" أن أجلِّي معناه، وأؤسِّس لمبناه، وأصوغ معالمه، وأشرع في اختبار قدرته التفسيرية؛ فهو إذن "مصطلح جديد"، وهو بالتالي مدخل لمفهوم جدير.

الأصل اللغوي والاصطلاحي

أمَّا في أصل الكلمة، فإنَّ "بَايْكَان" هو اسمٌ لشركةٍ، تصنع المدافئ المنزلية والصناعية في تركيا، علامتها تكتب بالحرف اللاّتيني "Baykan"، ودلالة اللفظ لغويًّا لم أجدها في القاموس المترجِم، ولعلَّه اسمٌ لعلَم؛ لكنَّ الشقَّ الأوَّل من المصطلح، بالحرف الصغير "bay"، يعني "السيّد"

وأمَّا عبارة "الثالث الموضوع" فهي من قبيل المشاكلة لمبدأٍ في المنطق، يعرف بـ"مبدأ الثالث المرفوع" وهو من المبادئ الأولية، ومعناه: "إذا صدقتْ إحدى القضيّتين المتناقضتين، كذبت الثانية، والعكس بالعكس، ولا ثالث بينهما".

قصَّة ميلاد المفهوم

وقصَّة ميلاد المفهوم، هي أنَّني منذ نزولي أرض الأناضول مقيمًا،[١] وأنا أحاول توصيف المجتمع والعلاقات الاجتماعية في تركيا، وفي المحيط الذي أتحرَّك ضمنه بالخصوص: فهل هو من نوع "النمط التعاقديِّ"[٢]، أم هو من نوع "النمط التراحميّ"[٣]؛ باعتماد ما صاغه المفكِّر عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- من خصائص للنظامين والنمطين، في مشروعه الفكري الجادِّ.

علما أنَّ المصطلحين من إنتاج علماء الاجتماع في الغرب، وأنَّ عمل المسيري لم يقتصر على مجرَّد النقل، بل أضاف وأبدع، واستطاع أن يوجد أبعادا وتطبيقات أخرى، من خلال تجربته وحياته الشخصية في مذكراته المعنونة بـ"رحلتي الفكرية"، ومن خلال دراسته للرؤية الكونية للجماعات اليهودية، وبخاصة باعتماد "الجماعات الوظيفية" نموذجا للتحليل، في "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية".

---

(١) كان ذلك أواسط الشهر العاشر من عام ٢٠١١م. ولقد سبق لي أن أقمت صائفة كاملة بها، وألّفت بحثا بعنوان "البراديم كولن". كذا توالت الزيارات العلمية والعملية منذ عدة سنوات.

(٢) تتميز العلاقات في المجتمعات التعاقدية بـ"النفعية، والحياد، والترشيد، والحوسلة". فالعلاقة نفعية واحدية واضحة صلبة مُصمَتة مادية، ليست مركَّبة أو متعدِّدة الأبعاد. لا تتسم بأي إبهام، فهي علاقة تبادُل بسيطة يُفترَض فيها أنَّ الهدف واضح، وتحدِّدها شروط مسبقة واضحة مفهومة تمامًا للطرفين "بشكل واع أو غير واع. وما يضمن استمرار العلاقة هو استمرار المنفعة".

(٣) "التراحم" يعني "وجود أبعاد غير مادية في العلاقات بين الأفراد، وأنها علاقات إنسانية شخصية لا تقوم على المنفعة وحدها، ومن ثمَّ فهي ليست علاقات عقلانية مجرَّدة، أو تعاقدية نفعية محضة، بل هي علاقات عضوية مركَّبة، فالتراحم بهذا ينظم مجموعة من المفاهيم الأخلاقية كالترابط والتعاون والإيثار".

ولم يكن من اليسير عليَّ التسرُّع في الحكم، ولا اختزال التصنيف، وبخاصَّة مع "حالة تركيا"، وبالأخصِّ مع محيط "الخدمة".

فقدَّر الله "قصَّة المدفأة"، ثم جاء الجواب على أنَّه نمط "ثالثٌ موضوعٌ"، وليس "مرفوعا"، أي هو ملتقى للنظامين، ومجمع للمنهجين، وتناغم بين النمطين، حتى وإن بدا أنَّهما متناقضان ظاهرا؛ إلاَّ أنهما غير متناقضين عقلا وواقعا. كيف ذلك؟

المدْفأة[٤] الملهِمة

في يوم باردٍ، كان الثلج يؤذن بالهبوب، دخلتُ المنزل بعد نهارٍ طافح بالعمل، فإذا المدفأة قد تعطَّلت، وأنا الغريب في بلد غريب، ولا أعرف ما يحمله الليل من أمر غريب؛ ثم إنَّ البرد قد لا يرحمُ، ومعي فلذاتٌ زغبٌ، وتحت مسؤوليتي بناةٌ أمرَ بهنَّ الرسول الكريم وأوصى![٥]

ما العمل؟ وكيف السبيل إلى الخلاص؟

لو كنتُ في محيط "النمط التعاوني"، لاحتميت بالجوار، وبالأقربين، ولأعلنتُ لهم ما أنا عليه؛ ولحُلَّ المشكل بالمرحمة، والتعاون، والإيثار... على أيِّ شكل من الأشكال كان.

---

(٤) هي مدفأة وسخان للماء في آن واحد؛ يسميها البعض بالدارجة "الكُومْبِي"، وأصله بالانجليزية "combine" أي "الضمُّ والمزج والجمع" بين وظيفتين.

(٥) أوصى الرسول ﷺ بالبنات، وأمر بالعناية بهن، وحذر من الإشـقاق عليهن، وذكر أنَّ فاعل ذلك محروم من الجنة، داخل إلى النار، والأحاديث واردة في ذلك، منها حديث عن عائشة رضي الله عنها زوجة النبي ﷺ قالت: "جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي شيئا، غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئا، ثم خرجت وابنتها، فدخل علي النبي ﷺ، فحدّثته حديثها، فقال النبي ﷺ: «من ابتلى من البنات بشيء فأحسن إليهن، كنَّ له سترا من النار».

ولو كنتُ ضمن "نمط تعاقديّ"، لأعملتُ آلة العقود، والتدخُّل السريع، والنظام المحسوب؛ ولحُلَّ المشكل بهذه الطريقة فقط.

ولكنني، فجأة وجدتُني في "نمط تراحمي - تعاقدي"، بكلِّ الخصائص التي قد تبدو متناقضة، أو أنها لا تلتقي في مجتمع ما. وهو ما أطلقتُ عليه اسم "نمط بَايْكَان"، أو "نمط الثالث الموضوع".

بايكان، أو الثالث الموضوع

من جهةِ "التراحم"، لم يمرَّ وقت سريع، وقد سألتُ أحد الإخوة الباحثين مجرَّد سؤال عن طريقة إيجاد مَن يُصلح المدفأة؛ حتى جنَّد صديقا آخر، فجاؤوا بالسيارة مِن بعيد، وتركوا مهامَّهم ومشاغلهم، متدثرين بمعنى "التفاني في الخدمة"، التي وُطّئوا ووُطِّنوا عليها، وما إن وصلوا البيت، حتى تجنَّدوا لإصلاح المدفأة، بلا تكلُّف ولا تردُّد؛ وكان صديقٌ ثالث يهاتفني كلَّ ساعة، ويتابع القضية، ويُبدي تألمه وتخوُّفه، ويقترح الحلول؛ ويخشى أن تبيت البنات على البرد -حسب تعبيره-، أو أننا نفتقد الماء الساخن للوضوء... فكان قلبه الرحيم يدقُّ على إيقاع مشكلتي البسيطة، حتى غمرني بالحبِّ وبالعطف من حيث يدري أو لا يدري.

ومن جهةِ "التعاقد"، هاتفَ الصديقان، وهما في البيت، شركة "بَايْكَان"، وكان من الجهة الأخرى للهاتف موظِّفة، تُدير محاولات الإصلاح الأولى عن بعدٍ، لعلَّها تكون سهلةً، ولا يتكلَّف ذلك انتقالُ فريق الصيانة، ولا يكلِّف صاحب المدفأة مزيدا من الدفع، أو يحمله إلى فقدان الثقة في "الماركة المسجّلة" للشركة.

وبعد أمدٍ، تبيَّن أنَّ الخلل لا يمكن تصليحه إلا بحضور الخبير،

فعقدَت الشركة موعدًا ليوم غدٍ، على أن تتَّصل بالصديق ليريها المكان؛ وما أسرع الغدُ في مثل هذه الظروف، حيث كنتُ في البيت، وكان الصديق يسيِّر العملية بالهاتف، من بعدٍ... حتى رنَّ جرس الباب، ودخل الشاب الحرفيُّ، في بدلة محترفة، وبسمتٍ هادئ، بينه وبين صديقي الهاتف المحمول، لأنني لا أتقن اللغة التركية طبعا...

اجتهد الشاب المرسَل من الشركة، حتى أصلح الخلل؛ وهاتف الشركة، فعرف أنَّ الضمان قد انتهى منذ زمن؛ ثم غيَّر قطعة الغيار، وعيَّن المقابل، فقبلتُ، وكان بين يديه جهازان، أحدهما موصَل بالإنترنت، والآخر طابعة صغيرة، بحجم اليد، لطباعة الفاتورات.

سلَّمني الموظَّف الخبير الفاتورةَ، وأخذ نسخةً منها، وبها: تاريخ الإخبار عن العَطَل، والساعة والدقيقة: ٢٠١٢/١٠/٠١/ - ١٨:٥٠، ثم تاريخ الإصلاح والساعة والدقيقة: ٢٠١٢/١١/٠١/ - ١٧:٥٠، واسم موظف الإصلاح، ثم نوع الإصلاح بالرموز، ثم ثمنُ العملية وقطعة الغيار... فدفعتُ المقابِل، ودفِئت واطمأننتُ؛ ولكن ما كان يحدث في العقل والقلب من فوران، فاقَ الحال المادية اليسيرة، وغطَّى على الحرارة الشتوية المطلوبة، والتي استعدتُها بحمد الله تعالى: إنها الحيرة من هذا النظام البديع، ومن هذا النمط الجديد!. ويوم غد، التقيتُ بصديقي "المتراحم"، صاحب الهاتف، فقال: "هاتفتْ الشركةُ "المتعاقدة"، لتتأكَّد مِن تمام الإصلاح، ومِن أنَّه لم يحدث خلل بعد العملية".

هل عايش المسيري هذا النمط الجديد؟

لو كنتُ ضمن "نمط تراحمي"، في الجزائر مثلا، سأجد الحلَّ

"التعاوني" بسهولة، وسأجد من يساعدني ويعينني، ولكن هيهات أن أجد "الخدمة الواضحة"، و"العقد الصريح"، و"الصيانة الفعالة"، بهذه الجودة وبهذه السرعة. واسأل الناس -إن شئتَ- عن "أصحاب الحِرف"، تجدْ أنَّ لكلٍّ منهم قصَّة مع حِرَفيّ، فإن لم تكن هذه حالهم جميعا، فهي حالهم غالبا. ولعلَّ البعض منَّا عدَّها "قدرا مقدورا" لا فكاك عنها إلى يوم الدين؛ ولقد كان الجاحظ في ذكره لمثالب "أصحاب الحرف" ممن يعتقد ذلك.

ولو كنتُ في سياق "نمط تعاقديٍّ"، في كندا مثلا، فإنَّ آلة "التعاقد والنظام"، و"الصيانة السريعة"، و"الوضوح في الحقوق والواجبات"، ستعملُ بلا هوادة، وستوجِد لك الحلَّ العمليَّ بسرعة، وقد تكلِّفك رزنامة ثقيلةً من "التفاصيل"؛ لكنك يقينا ستفقد "الدفء القلبي"، و"المرحمة الإيمانية"، والجهة التي تغمرك "بالحبِّ والحنان"... وقد تتراكم البرودة عندك، فتكون برودتين: برودة مادية، وأخرى معنوية. وهذا الوضع إن لم يكن عامًّا، فهو الغالب طبعا.

أمَا وإنك في "تركيا"، وللناس أصول وجذور لا تخفى، ودماثة الخلق سمة غالبة، وطبيعةٌ في الناس؛ وداخل تركيا أنت في محيط "تربَّى على يد مجدِّد مصلح"... فالتراب، والماء، والهواء، والشمس... جميعها قد تكاثف للعناية "بشجرة الحياة" هنا... إنها شجرةٌ أصلها ثابت راسخ، وفرعها شامخ سامق "في السماء"، وهي بحمد الله ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(إبراهيم:٢٥)...

أمَا وإنَّك كذلك، فإنَّ النمط لن يكون أبدا تعاقديا غربيا؛ ولن يكون أبدا تراحميا شرقيا... وإنما هو "خلطة عبقرية ذكية" جمعت إلى خصائص الشرق مميزات الغرب، ومزجت حركيات الغرب بروحيات الشرق؛

فالنمط إذن هو "تعاقدي رحيم"، أو هو "تراحمي منظَّم بالعقود"[٦]...

وفي تقديري إنَّ الدكتور عبد الوهاب المسيري، رحمه الله، لم يعايش مثل هذا النمط الجديد، لكنه كان ضمن "نمط تراحميّ مفرط" في مصر، ومثله في أيِّ بلد عربيٍّ آخر؛ ثم انتقَل إلى "نمط تعاقديٍّ صارم" في أمريكا، ومثله في كلِّ بلد غربيٍّ أوروبيّ؛ فهو لم يذق طعمه واقعيا، ولم ينعم به في حياته اليومية؛ غير أنَّه تصوَّره نظريا، ودعا إليه فكريا؛ ذلك أنه نمط يعود بنا إلى "الفطرة السليمة"، وهو أصلا الحال السنَنية التي أرسى الإسلام قواعدها، وصاغ القرآن أسسَها، فتمثَّلها رسول الرحمة والعهود، محمَّد عليه أزكى السلام؛ ثم تلقفها منه الصحابة الكرام، واقتفوا أثره؛ حتى جاء الأعراب، بعد قرون، فاختلط عليهم الأمر، وسرت الفوضى في حياتهم.

للتمثيل لا للحصر

الحقُّ أنَّ حادثة المدفأة ليست الوحيدة، وإنما لها العشرات من مثيلاتها في تجربتي القصيرة هنا بتركيا؛ ولكنَّ "التصورَ والحكم والموقف" قد اكتمل بهذه المناسبة، وفي هذه الحادثة، فكانت بمثابة "لحظة أرخميدس". وإلاَّ فالواحد منَّا يعايش يوميا هذه القدرة على "المرحمة التي لا حدَّ لها"، وكذا "النظام والانضباط الذي لا يحيد ولا يحابي"...

---

[٦] حاول معتز الخطيب أن يعطي مفهوم "التراحم" بعدا أوسع من بعده "الاجتماعي الأنتروبولوجي"؛ فلمفهوم التراحم في الإسلام "ظلال أوسع تخرجه عن حدود المفهوم الأنتروبولوجي الضيق، وتميّزه عن النموذج التراحمي في المجتمعات التقليدية غير الإسلامية" وقد وفِّق في هذا الطرح والتأصيل؛ إلاَّ أننا يجب أن نلاحظ أنَّ دلالة التراحم في المجتمعات الإسلامية في مرحلتها الأخيرة، أي ما بعد الاستقلال، وفي حالة "التخلف وما بعد الحضارة"، هي أقرب إلى النمط التقليدي القبلي منها إلى النمط الإسلامي الشمولي العميق. وبتعبير الدكتور أبو سليمان: "تغلَّب الأعراب على الأصحاب".

وفي كلِّ ذلك، أدعو الله وأسأله أن يقدِّرنا "ضمن وعائنا الحضاري" في دوائره المنداحة، على الوصول إلى مثل هذا المقام العليّ؛ ذلك أنَّ الكثير من الوقت، والطاقة، والمال، والعلاقات، والفكر... يُهراق ويُغتال، ويقع ضحيَّة أخطاءٍ وتصرُّفاتٍ نصِفها أحيانا بالتراحم، وبالأخوة، وبعدم التكلُّف... وقد نستغرب لو أنَّ أحدا من الأقارب -مثلا- ذكَّرنا بعقد بيننا وبينه، ولقد نعتبر ذلك فقدانا للثقة، فنعاديه، ونعلن أنه "لم يعد من جماعتنا"، فهو من "خارج السرب".

والتحقيق أنَّ المولى جلَّ وعلا يقول: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(البَلَد:١٧)، في آية.. ويقول في آية أخرى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العَصْر:٣).. وفي آيةٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(الْمَائِدَة:١)...

فبهذا، وبذاك، تجد الحياة سبيلها إلى السعادة والراحة واليسر؛ وبغياب أحدهما، أو كليهما، تكون الحياة جحيما، ونصلى نارها جميعا. وما جمال المعنى إلاَّ في الجمع بين "التواصي بالمرحمة، وبالحقِّ، وبالصبر"؛ وفي "الوفاء بالعقود"، استجابة لأمر ربِّ الأسباب والمسبِّبات، سبحانه، وهو إله النتائج والمقدِّمات، أكرم به من إله عزيز حكيم.

من الفكر إلى الفعل

هذا الفصل، ليس للتسلية، ولا هو لمجرَّد سرد المعلومات، وإنما هو إحلال للفكر والفطنة أولا، ثم محاولة لإرساء الحركية والفعل، ثانيا؛ وعلى كلِّ قارئ تحريكُ مقدَّراته ومواهبه، واستثمارُ عواطفه ومعارفه، لتصحيح ما يمكن تصحيحه، وبناء ما يجمل بناؤه؛ لعلَّ الله تعالى ينظر إلينا بعين الرحمة، ونحظى بالسعادتين في الدنيا: "سعادة طاعته، وسعادة

عنايته"... ثم ننال "السعادة الأبدية"، يوم لقائه، ثمرةً "للوفاء بالعقود"، وكذا نتيجة "لرحمته بنا وحبه لنا"؛ وهنالك في الجنة سيسود نمط واحدٌ، لا نمطان، ولا ثلاثة: النمط التراحمي المطلق. وعلى الله قصد السبيل.



من الأنصاريِّ إلى الأنصار، رحلة إلى المغرب

تنادت الجموع أنَّ المغربِ اليومَ فتحت القلب قبل العين، وفرشت الأرض حريرا ودمقسا، وأرسلت الوفود إلى بطون البلد، تهدي عِلية القوم وعلماءه دعوات لزيارة مباركة، ليست كباقي الزيارات: إنها مجلّة "حِرَاء"، ستحل ضيفا على المغرب، وستنظم جامعةُ محمد الخامس، ملتقى دوليا، لقراءة وتحليل كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ فتح الله كولن.

ولقد تلقت هيئة التنظيم حوالى خمسين ورقة ومداخلة ومحاضرة، فعمدت إلى الغربلة والاختيار، لا على أساس المستوى فقط، وإنما بالنظر إلى مَن يمكن أن يؤثِر بسهمه لغيره، مِن أهل الدار، ومن المقربين إلى الجامعة الأبرار.

قال أمير الركب: "ستكون معنا، ضمن وفْد حراء، وستكون حلقةَ وصل بين المغرب والجزائر"؛ فاستجبت، وشمرت على الساعد، فأتممت محاضرة بعنوان "نظرية كلِّ شيء، بين عجز الفزياء وتألق الوحي، فتح الله كولن نموذجا"، وسلّمتها للمنظِّمين، ثم بُرمجت...

وما هي إلاَّ أيام حتى كان لنا موعد، بُعيد الصبح، في مطار إسطنبول"؛ يممنا منه شطر المغرب، فكانت لنا بها أيام، ازددتُ فيها التحامًا بالأخيار، ومما ينسب لعمر رضي الله عنه أنه قال لرجل ادّعى أنه يعرف رجلا: "هل سافرت معه؟!، هل تعاملت معه بالدينار والدرهم؟!" قال الرجل: "لا"، قال عمر رضي الله عنه: "ما أراك تعرفه".

ولقد زاد فتح الله، من محض تجربته، في إحدى كلماته، سؤالا هو: "هل سُجنتَ معه؟!".

وها أنا اليوم أسافر مع أبناء "الخدمة"، وأكتشف خفايا خصالهم الجميلة، وخبايا خلالهم الحميدة، أستسقي البركات من روحهم التواقة، وعقلهم الحصيف.

ولقد آليت على نفسي أن أكتب مقالا لحراء حين العودة... وفي الطائرة، حين الإياب، اعتصرتُ كلمات، أودعتها مقالا بعنوان: "مِن الأنصاريّ إلى الأنصار"، نشر بعد ذلك في "حراء"[٧]؛ أضعه بين يدي القارئ لهذا السِّفر، لأنه مغروز في دلالة الفصول الذاتية الموضوعية، المقربة لصورة المشروع أكثر وأكثر.

مِن الأنصاريّ إلى الأنصار.. شتان... شتان

مَن قال إنَّ ما يسِم الحياةَ من أحداث هو وليدُ صدفة؟!

مَن قال إنَّ ثمَّة فوضى تحكم نسق الحياة، وتصبغ عالَم الشهادة؟!

من ذا الذي يصدِّق أنَّ شيئا ما، أيَّ شيءٍ، حتى وإن كان وقوعُ ذبابة على صحن أحدٍ منَّا، هو مجرَّد حدث لا معنى له في منطق المعنى؟!

نعم، إنَّ غلوَّ تصوُّراتنا، وشطَط أحكامنا أحيانًا؛ لا تعني أنَّ المدرَكات تابعةٌ أو هي موشور لإدراكنا القاصِر. فشتان بين الشيء وظلِّ الشيء، وشتَّان بين الحقيقة وشبح الحقيقة.

فريد الأنصاريُّ، شمس تسطع من المغرب

مِن هذا المقام السامق، الذي لا يجد للعبثية والفوضى مكانا، أقرأ العلاقة بين المفكِّر العبقريِّ "فريد الأنصاري" رحمه الله؛ وميلادِ "جيل الأنصار" حماهم الله، من رحم المغرب الحبيب.

---

[٧] مجلة "حراء"، العدد: ٢٩ (مارس-أبريل ٢٠١٢).

"فالأنصاريُّ" لم يمت، ولم يغادر، إذ لا تزال أنفاسه الطاهرة تعبق في كلِّ بقعة من بقاع الأرض الطيِّبة، ولا تزال كلماته الصادقة توقظ الضمائر، مع كلِّ حنين وأنين، وفي كلِّ وقت وحين...

إنَّ "الأنصاريَّ" قد وهب الحياة لأهله وذويه، وفدى بنفسه لبلده وقومه؛ فكان -اليومَ- مغربُه مشرقًا، ولقد كان -قبل ذلك- مشرقُه مغربا.

كيف ذلك؟

إنه -رحمه الله- يوم أشرق فجرُه الصادقُ على المغرب، اختفت الخفافيش، وكفَّت البوم عن زرع الشؤوم، وارتفع الريح الصقيع -مِن تلكم الربوع- ومعه الشتاء الفظيع؛ فحلَّ محلَّهما النسيمُ العليل، والربيع الجميل.

أشرق على الناس بقلبه المؤمن الموقِن، وبعقله الذكيِّ الأصمعيِّ، فصدَق أن يقال فيه، ما قاله الدكتور عبَّادي في وصفه: "إنه اكتشف عرف القرآن، فسما إلى مقام الملائكة وأهلِ الجنان"، ثم لقي القبول في السماء، ونزل غيثا هامعا على أهل الأرض، هدية ورحمة من ربِّ الأرض والسماء.

ثم إنَّ "الأنصاريَّ"، رحمه الله، يوم فارق الحياة، واستجاب لنداء الأزل، وأفلَت شمس روحه الزكية... حينها، أشرق على المغرب يومٌ يذكِّرنا بيوم الفتح، أو إن شئت فقُل: هو أشبه ما يكون بيوم الحديبية: بدت فيه أمارات الخير، ولَمَّا تكتمل بعدُ تمثُّلاته؛ حاشا في أفئدة الملهَمين، وعلى أرواح الواصِلين، هؤلاء رأوا جماله، وتملَّوا حسنه، رأْي العين، بل عين اليقين.

المهاجرون والأنصار

"الهجرة" حركةٌ بعد سكون، وطاقةٌ بعد كمون، ووعيٌ بعد غفلة،

وجهادٌ بعد غفوة... والمهاجِرون هم جميعُ من اتَّخذ الهجرة سبيلا، فلم يبخل ولم يذلَّ ولم يتقاعس...

أمَّا "النصرة" فأبرز أركانها: القلبُ المحبُّ، والعقل النافذ، والساعد الكريم، والسيف الصقيل، والخلق المتين؛ وأمَّا الأنصار فهم كلُّ من جعل تلكم الصفاتِ أرضه وسماءه، وصبغ بها ليله ونهاره؛ ولم يتردَّد طرفة عين، ولا أقلَّ من ذلك ولا أكثر.

ومن ثم، كان لكلِّ زمان مهاجروه وأنصاره، تماما كما أنَّ لجميع الأحيان صحابته وأتباعه؛ ولذا وجب على كلِّ مسلم أن يكون صحابيَّ وقته، أو تابعيَّ زمانه، وأن لا يكون ثالثهما فيزيغ. يجب على كلِّ مؤمن أن يجعل الهجرة والنصرة منتهى آماله، ومطلق أحلامه.

واليوم، كانت الهجرة من سفوح الأناضول، وجاءت النصرة من شواطئ المغرب: في الدار البيضاء، والرباط، ووجدة، وفاس، ومكناس... وليست جميعُ الشطآن محاذيةً للبحار والمحيطات.

هنالك، في جامعة محمد الخامس، بالرباط، رباطِ الفتح، رأيتُ بأمِّ عيني "أنصارًا": منهم رجال ومنهم نساء، منهم فقراء ومنهم أغنياء، منهم طلبة علم ومنهم علماء... جميعُهم، جاء ليعبِّر عن حبِّه وولائه، ويعلن عن وفائه وصفائه، ولقد سمعتُ صوتا أجشَّ يقول: "إن أتاكم الناس بدلائهم، أو حتى ببحارهم وأنهُرهم، فلستُ أملك سوى قِربة واحدة، جفَّت منذ أمدٍ، ولا أعرف هل ستحمل الماء، أم أنها ستهريقه أرضا... حسبي أني جئت بقربتي، وأنشدت مع الشاعر:

ذي قربتي يا أخي في الحبِّ أرسِلْها　　　إلى الحبيب، فهل يُرضيه متَّسمي؟"

ثمَّ يمَّم بنا الوفدُ شطر وجْدَة، فاستقبلنا على مشارفها "رجال جبال"، من طينة المصطفى، ومن روْح المجتبى؛ قاسمونا قلوبهم وعقولهم، فأطعموا وآووا، ونصروا وانتصروا... ولم تطُل الزيارة كثيرا؛ لكأنَّها نسمة من ريح الجنَّة هبَّت، ثم انقطعت، لتعود ولو بعد حين...

ومِن عادة الناس أن يلحِقوا ذكرَ فاسٍ بمكناس؛ ولكنَّا اليوم -لحاجة في النفس لا تباح- بدأنا بمكناس، ثم ولينا شطرَ فاس؛ وفي مقبرتها الهادئة، تقطَّعت بنا الأنفاس، واختنقت، فكانت العينُ كاشفةً سرَّ الكوامن؛ ذلك أنَّا وقفنا على قبر "الأنصاريِّ"، رحمه الله، ونحن نعجب من شبر ترابٍ يأوي قلبا وعقلا ومعنى، في حينٍ يعجز الكون برمَّته عن حمله؛ ومما زاد الدمع سخونةً والكبد تمزقًا، أنَّ قبر العالم الفذِّ غير مجصَّص، ولا مبلَّط... وحسُن أن نقول: إنَّ القبر عرف بالأنصاريِّ، ولم يُعرف هو بالقبر؛ لكنَّ الكثير من القبور في العالمين، لا يعرَف مَن ينزلها، لولا أنَّ العلامات والكتابات، والجصَّ والرخام، تذكِّر بساكنيها... رحمك الله يا أنصاري برحمته الواسعة، وأسكنك ربوع جنانه الفسيحة...

في فاسٍ ألفى فتحُ الله قلوب الناسِ منشرحة، والعقول منهم مفتَّقة، والأيدي مبسوطة، وهي تقول بملء فيها: ها نحن نستقبلكم، ونقاسمكم كلَّ ما نملك من معنًى ومبنًى، فلا تحرمونا عِطر "الأنصار" ولا تفوِّتوا علينا فرصة "الانتصار".

ولقد كان للوفد لقاء حميميٌّ علميٌّ في جامعتها، فلم تتَّسع المقاعدُ للحاضرين، وذلك ليلا بعد العِشاء، وليس من العادة أن يؤمَّ الناس حرَم الجامعة حين الظُّلمة إلاَّ أن يتيقَّنوا أنَّ ثمة نورا حقيقا، وفكرا دقيقا، وقلبا رقيقا.

ولقد كانت "الدار البيضاء" محطَّ الرحال، وعنوان الجمال والجلال؛ منها البداية وفيها النهاية، فما شبعت العينُ، وما ارتوى القلبُ، ولا رضي العقل... ذلك أنَّ لها أسرارا لم تفصح عنها بعدُ، وأنَّ في كنفها جواهر أجَّلت بيانَ رونقها إلى أمد... كأنها تغازلنا بوجوب العودة، بل لكأنها تتمنَّع، والتمنع في الحبِّ أقسى أنواع الحبِّ... لو يتذوَّق المتذوِّقون...

أنا لا أبغي تخصيص اسم من الأسماء، فهم مئاتٌ وهم ألوفٌ، ممن حضَّر وحاضر، وممن آوى ونصر، وممن بكى وأبكى، وممن دعا وألح في الدعاء... والوسم قد يُخفي المحاسن، وقد يبعِّد القريب، ويقلِّل من شأن ذي الشأن... فقصاراي أن أقول، وجميعُ هؤلاء الأنصار في قلب القلب... حسبي أن أقول: "إنَّ المغرب اليوم قِبلة، وعلى جبينه الأغرِّ نلقي قُبلة"،

ثم نردف ونقول: "مهلا أخيَّ، أصِخ أذنك، وألقِ السمع، فها عقبةُ، وابن سعدٍ، وطارقٌ... يحيُّون الفاتح، والرومي، والنورسي... أمَّا اليوم فقد انبرت المغرب عن بكرة أبيها لتحيِّي فتْح الله، وها قد جاءت من كلِّ حدب وصوب لإعلان البيعة، بيعةِ النصرة والانتصار... ولقد كان الأنصاريُّ أمير هذا الركب، فها قد رحل وترك أهله على المحجَّة، أوفياء بررة، ما بدَّلوا وما غيَّروا... لكنهم آووا ونصروا...

سأل السائل، وهو يحترق شوقا، في لحظات الوداع الزكيِّ:
هذا دور الأنصار قد تمَّ، فما هو دور المهاجرين يا ترى...؟!



ولكن.. كلُّنا في الهم شوقُ

هي قصيدة عصماء لأمير الشعراء أحمد شوقي، لكأنه ترنّم بها اليومَ، بقلب مَكلوم مَحزون على حال عالمنا الإسلامي إجمالاً، وعلى حال دمشق تخصيصًا، معانيها لا تزال متلألئةً لا تبهت... قال في مطلعها لا فضَّ فوه:

سلام من صبا "بَرَدى" أرقُّ ودمعٌ لا يُكفْكَف يا دمشقُ
ومعذِرة اليراع والقوافي جلالُ الرَّزْءِ عن وصف يَدِقُّ

نعَم، يموت الرجل فيخلُد المعنى دفَّاقًا... ويفنى الجسم فيبقى الروح خفَّاقًا... أمَّا الكلمة الصادقة التي بُذرت في تربة الحق، وأينعت في عالم الخلق... أمَّا هذه الكلمة، فأصدق وصف لها قولُ رب البيان، ومعلّمِ القرآن، جل جلاله وتعالى حُكمه: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(إبراهيم:٢٥)؛ إنها لِطيبها تعانق عالَم الملائكة برفقٍ، فتسقي العقول الفطِنة كلَّ آن، وتُحيي القلوب المحبة آنًا بعد آن.

ولقد أبدع شاعرنا ثانيةً حين قال، في ذات القصيدة الفيحاء، وهو يحرّك منَّا المواجد، ويُلهِب فينا الأشواق:

نصحتُ ونحن مختلفون دارًا ولكنْ، كلُّنا في الهمّ شرقُ
ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطْقُ

غير أني أستميح فصيحَ العرب شوقي عذرًا، إذا تجرَّأتُ عليه؛ لا لأخطّئه، فذلك مما لا ينبغي لمثلي أن يدّعيه على مثله، لكن لأبشّره أنّ

نصر الله تعالى بدَا حاجبُه في الأفق؛[٨] إنه قاب قوسين أو أدنى، لأجل ذلك تشجَّعتُ فحوَّرت في رائعته معنيين، وله الفضل سابقًا ولاحقًا:

أولاهما أنّ دلالة "الهمّ" قد نمت وتطوَّرت، فبعد أن كانت سلبيةً قاتمةً: سلبيتُها من سلبية الفرد المسلم يومئذ، وقتامتُها من قتامة حال الأمَّة حينئذ؛ ولقد كنَّا أوان نسج القصيدة[٩] نئنُّ تحت كلكل ضعفنا وهواننا، ونرزح تحت نير الاستعمار؛ يذبِّح أبناءنا، ويستحيي نساءنا... أمَّا اليوم فيصدق أن نقول: إننا "نرى رفرفة خمائل القضيةِ في كل صوب وناحية منذ الآن بوفاء كوفاء الفجر، وعلى مرغمة كل عائق، وبفضل الذين حفّزوا الخارطة الروحية للوطن بخفقات قلوبهم، ولوّنوها وسقوها بدموعهم... ولئن جاز العديد من خداع الفجر الكاذب، فإنَّ شهادة أصدق الشهود على شروق الشمس قريبًا هو الفجر الصادق في الأفق نفسه"[١٠]. ولذا تفتَّح معنى "الهمِ" على عالَم أكثر رحابة وإيجابية وسعة، ليعني "التوتُّر الروحيَّ"، و"الشدَه المعنويَّ"، و"الألم من أجل الأمَّة"... مِن هنا جاز لنا أن نعدِّل في البيت مُنشدين:

---

[٨] إشارة إلى قصيدة "بدا حاجب الأفق"، للأستاذ فتح الله كولن، مطلعها:

أوشك السفر على الانتهاء،

وبدا حاجب الأُفق

ذاك الربيع الذي كان مخضرًّا بكل أشكاله،

أصبح اليومَ مصفرًّا...

[٩] عاش أحمد شوقي أحلك أيام المسلمين، وعاين سقوط الخلافة، وتكالُبَ الاستعمار الغربي على البلاد المسلمة، وضعف المسلمين وهوانهم وخورهم حينها، وذلك ما بين ١٨٦٨-١٩٣٢م.

[١٠] "القضية الكبرى لشعبنا"، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، ص:١٠٥.

نصحتُ ونحن مختلفون دارًا   ولكـن، كلُّنـا فـي الهـمِّ شـوقُ

إنه لشوقٌ لغدٍ متفتِّح الأكمام، وإنه لَتوقٌ لمستقبل باسم الثغر؛ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾(يونس:٥٣)، ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾(الذاريات:٢٣).

ثانيهما أنّ الذي جمعنا اليوم ونحن نرفرف في سماء الشرق، هو "الله تعالى" جلَّ شانُه، و"كتابه الكريم" سما بيانُه، ثم "رسوله الحليم" شرح الله صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره... فلم تجمعنا -إذن- اللغةُ، ولا النطق، ولا اللسان، ولا العرق... إلا أن يعني الشاعر "بالبيان والنطق غيرِ المختلف" كلامَ الله المبين، وكتابَه المتين؛ فهنا فقط، نوافقه ونذهبُ مذهبه، ونردِّد على إثره:

ويجمعنـا إذا اختلفـت بـلادٌ   بيـانٌ غيـرُ مختلـفٍ ونُطْـقُ

سمعتُ صوتًا خافتًا، من هنالك، يهمس في أذني قائلاً: "إن يكن هذا إجمالاً، فأين التفصيل؟ وإن يك اختصارًا، فأين الإطناب؟ وإن قصدت الإلغاز، فأين مفتاح الشفرة، ورمز الأحجية؟".

قلتُ: نعَم صدقتَ، لكن رويدًا لا تستعجل ولا تختزل، واسمع قول ربنا العظيم لنبيّه موسى الكليم: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾(طه:٨٣).

قال الذكيُّ الفطِن: لكن يا هذا، تنبَّه إلى جواب الرسول الملهَم، وقد حماه ربُّه بكرمه ورعاه على عينه وعلَّمه من علمه؟

قلت: ماذا تعني؟

قال: ليست كلُّ العجلة ندامةً، وإنما العجلة إذا كانت ابتغاء رضوان الله، فهي عنده مبرَّة ومكرُمة. ألم تسمع جواب سيدنا موسى الحكيم:

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾(طه:٨٤). كذلك أنا، عجِلت إلى سماع الخبر، ابتغاءً لرضا ربي، وأملاً في فرج يحلُّ عاجلاً على أمتي، وترقُّبًا للفجر الجديد والعهد الوليد! فهل يقنعك هذا يا هذا؟

قلت: نعم، أصبتَ... ذلك المبتدأ إليك الخبر، وتلك المقدِّمة دونك المتن، وهذا الشاطئ فلنغص في البحر متوكِّلين على الله محتسبين:

بيانُ ذلك أنَّا سمعنا من أقصى الشرق مناديًا ينادي أنْ توافدوا لإحياء ذكرى "النور الخالد، مفخرة الإنسانية، محمد عليه أفضل الصلاة والسلام"... وقد يسَّر الله تعالى على يد عبده المنيب[١١] تأليف هذا السفر الفريد، ولقد تُرجم من قبلُ إلى خمسٍ وثلاثين لغة، وها اليوم يفتح الله تعالى بترجمته إلى اللغة الأندونيسية، لغةِ أكثر البلاد الإسلامية مددًا وعددًا.

نعَم، من هنالك، في الطرف الشرقي لمحور "طنجة-جاكارتا"، أو إن شئتَ فقل لخطِّ "مراكش-جاوا"[١٢]؛ من هنالك، من جاوا، وجاكارتا، وبانودنغ، وسومطرة... جاءت دعوةٌ كريمةٌ، تفضَّل بها مأجورًا كرسيُّ "الأستاذ فتح الله كولن" في "الجامعة الإسلامية الوطنية"، فاستجاب ثلَّةٌ من المثقّفين والمفكرين، من المغرب والمشرق، وأسْرَوْا ليلاً وجهة آخرِ نقطة من جغرافية الشرق. فيسَّر الله لهم أمر السفر، ثم فتح لهم من رحمته، كيف لا وقد استجابوا لأمر ربهم الحكيم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ

[١١] "النور الخالد"، للأستاذ فتح الله كولن، وقد طُبع طبعة راقية بديعة، وبيع منه في مولد هذه السنة فقط، باللغة التركية، حوالي مليوني نسخة، إضافة إلى ملايين النسخ التي بيعت من قبلُ، باللغة الأمّ، وبشتى اللغات التي ترجم إليها، علمًا بأن الهدف هو تبليغ صوت الرسول ﷺ إلى جميع سكان العالم بجميع لغات البشر.

[١٢] محور "طانجا-جاكارتا" بتعبير مالك بن نبي، ومحور "مراكش-جاوا" بتعبير فتح الله كولن.

انْظُرُوا﴾(الأنعام:١١)، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾(الملك:١٥).

وهنالك، في جاكارتا، عاصمة الجزر الأندونيسية، هنالك استُقبل الوفد بحفاوة يعجز اللسان عن وصفها؛ بورودٍ في المطار، ثم بإقامةٍ في منزل أنعِم به من منزل، وتوالت الزيارات إلى الشخصيات البارزة، والوجوه الطيبة، والعائلات السخيَّة، والمؤسَّسات البديعة... في هذه البلاد العامرة الطاهرة، التي نزل بها "المهاجرون" من شباب "الخدمة" أوائل التسعينيات من القرن الماضي، فبذروا فيها "المحبَّة" و"التسامح" ومعنى "أن تعيش للآخرين"، ودفنوا لأجل ذلكم "أنانياتهم" في تراب الخمول، موقِنين أنَّ "ما نبُت مما لم يُدفَن لا يتمُّ نتاجُه".

ولقد قال أحد وجوه البلد في كلمة بديعة قُبيل وجبة عشاءٍ دعانا إليها عن طيب خاطر: "إن فتح الله قد أعاد الاعتبار إلى الأخلاق الحميدة، في منظومة الأوامر والقيم الشرعية، هذه الأخلاقُ التي تشغل جلَّ نصوص الشارع الحكيم، ولكنها -للأسف- تكاد تغيب من واقع المسلمين اليوم"، ثم أردف قائلاً: "لم نعرف الخدمة إلا من خلال أخلاق شبابها، التي تذكِّرنا بأخلاق الصحابة، عليهم شآبيب الرحمة، ويليق بنا أن نعترف أنّ هؤلاء هم الصحابة الجدد، صحابةُ هذا العصر، بحول الله تعالى، ولا نزكِّي على الله أحدًا".

ويذكر التاريخ أن "أهل حضرموت-اليمن" نشروا الإسلام في هذه الربوعِ اليافعة، ولا يزال لهم هنا ذكر وأثر ومحمدة، بل وعِرقٌ حي نابض، ممن أصله من اليمن السعيد، يمنِ الحكمة والفخر والبطولة... أمَّا اليوم، فيسجِّل التاريخ بصوتٍ جهُورٍ صادقٍ، أنّ "أهل الخدمة" أحيَوا لحمة الدين من جديد، وأزالوا هواجس الفُرقة، وذكَّروا العالمين أنّ "الإسلام

دين أمن وأمان"، وأنّ الخيرَ كلَّه في الإقبال عليه، وأنّ الشر جميعَه في الإعراض عنه. ألم يقل المرشد الخرّيت: "رجاؤنا الوطيد المنتظَر أن نشهد قريبًا -إن لم ننقض عهد الوفاء مع الله تعالى- معاني سورة النصر بعظمتها وهيبتها كرّة أخرى... وأن ترفرف رايات الإيمان والأمل والأمن فالاطمئنان والحبور، في ظلّ الإسلام مَرّة أخرى... وأن تتعرف البشرية في الأرض كلِّها على نظامٍ عالمي جديدٍ فوق ما تتخيَّل، وأن يستفيد كلُّ إنسان، بقدر ما تسع فطرته وأفق فكره من تلك النسائم المنعشة"(١٣).

ولقد شهدنا -عيانًا ويقينًا- مدارس شامخة عتيدة، بلغت الذروة جودةً وإتقانًا، أغلبها من سخاء أهل البلد الذين آمنوا بدرب العلم مَخرجًا وفرجًا، ثم زرنا دُورًا للطلبة وأخرى للطالبات، مفتوحةً على العالم مبنى، ومتصلة بالسماء معنى، يصدق أن يُتلى عند بابها دعاءً وابتهالاً قوله تعالى: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾(الكهف:١٦).

وإن للتجارة والصناعة هنا لمكانة أيُّ مكانة، غير أنها ليست لكنز الأموال الطائلة، ثم تبذيرُها في الملاهي واللوثات، أو إسرافها في الرِّءْيَا أو في الأثاث، وإنما هي للسخاء سحًّا، استجابةً للحق ونفعًا للخلق، وهي للإنفاق في سبيل الخير والبرِّ، والبذل في طريق العلم النافع والعمل الصالح... ألم يقل نبينا المكرَّم، فداه أمِّي وأبي: «يا عمرو، نعم المالُ الصالح للرجل الصالح» (رواه البخاري).

ولقد مرَّت الأيام كلمح البصر إلى أن جاء موعد الملتقى، فجمع

---

(١٣) دنيا في رحم الولادة، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، ص:١٢.

المئات من المحبِّين المَشوقين المَشوفين، كلُّهم جاء ليشنِّف أسماعه بذكر الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، في هذه البلاد التي تستمرُّ الاحتفالات فيها بمولد البشير شهورًا وشهورًا.

كانت البداية بوجبةٍ سخيةٍ مع عشاء طيب المذاق، تحفُّه الملائكة، حيث يتعارف الناس من مختلف الأمصار، بوجوهٍ مسفرة وأخرى ضاحكة وثالثة مستبشرة... وإنك لن تصادف -في هذا المقام الإيماني المحمدي- وجهًا عبوسًا قمطريرًا، ولا وجوها عليها غبرة ترهقها قترة... وإنما هي الرحمات حين تنزَّل من رب رحيم ودود كريم.

فشنَّف الأسماع مجوِّد من أهل البلد كهلٌ، غير أن صوته لا يزال غضًّا طريًّا، وظني أن سيدنا الحبيب المصطفي لو سمعه، لقال له ما قال للصحابي الجليل أبي موسى الأشعري عليه رضوان ربي: «لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود» (رواه مسلم)؛ ولقد اتفق العلماء الأفذاذ أن المزمار دلالةٌ على الصوت الحسن.

ثم انبرت فرقة "النور الخالد" للأناشيد والمديح بأصواتها الناعمة الشجية المليحة الصافية النغم، فقامت تردِّد بحنين وأنين، مدائح وأناشيد عن المجتبى الحبيب، بلغات أربع، تتراوح بينها في سلاسة، تنسيك القيود والحدود، وتذكِّرك أن اللغات جميعها آية من آيات الله تعالى، قبحها من قبح محتواها وجمالها من جمال فحواها.

وعلى القاعة تنزَّلت غمامةٌ، فطارت القلوب طربًا واعتصارًا، لِشاعرة تُخاطب رسول الأنام بلسان قومها، فتبكي القلوب الضارعة وتدميها، وتذرُ الأفواه فاغرة والآذان مُطرِقة، وهي تنادي بأعلى صوتها: "يا رسول الله... يا رسول الله... يا رسول الله".

وكان للضيوف والأعيان كلماتٌ للترحيب، ونصائحُ كالجواهر تتنزَّل على الجموع وضيئةً ناصحةً ناصعةً... وما ذلك إلا أنها نبتت في أرض الشوق، وسُقيت بماء العشق، ونمت تحت سماء الوصل، ثم أثمرت خيرات وبركات، وغمرت الأرواح ظلاً ظليلاً، وأحلَّت الوجوه نورًا وضيئًا.

وأخيرًا، جاء بيت القصيد، عَبرات وعبارات في محاضرات وانطباعات حول "النور الخالد"، ولقد زالت جميع أسماء الخلائق وقتها، إلا اسمٌ واحدٌ فريدٌ هو اسم سيد الثقلين محمد ﷺ. ولقد صدق الله العظيم القائل وهو يبشر نبيه وينذر شانئه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾(الشرح:١-٤)، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾(الكوثر:١-٣).

وحتى اسم "فتح الله" قد ذاب في بوتقة الحبيب القريب. وكُلِّي يقينٌ أن رجاء الأستاذ قد تحقَّق، وهو الذي يكره الأضواء، ويعشق الظل، ويتفنَّن في "تصفير الذات"، وفي درء المدح والمحمدة... فيختفي عن الأنظار، وينهى عن نسبة أيّ عمل له، ويبكي لربه ليل نهار: "يا ربِّ، لا تُرني ربيع عملي، وانفع به غيري، ولا تجعل حظّي من عملي في دنياي، وادَّخِر لي الأجرَ ليوم لُقياك... آمين يا رب العالمين".

وما أروع المناجاة التي يتفطر على إثرها القلب المحبُّ للمصطفى، وتزول في ساحها الحروف والكلمات والأصوات، لتترك الصمت أبلغ معبّر، والشده أقوى برهانٍ، والهمَّ أصدق بيانٍ... إنها لمناجاة عاشق ولهان متيم، لم يخطب يد "ليلى" يومًا ولا رجاء له فيها، وإنما ليلاه "أمته ودينه". وهو لذلك يناشد "سلطان القلوب" ﷺ بقوله: "يا أيها النبي المبارك المحلق في الأعالي أبدًا... أنت روحُ الروح لنا، ورسالتُك دواء لأدوائنا المزمنة،

نرجوك أن تأتينا كرة أخرى، فلا تدعْنا بلا روح... نرجوك أن تتكلم مرة أخرى، فلا تَدَع عبيدك في مضض الهموم... في طريق مسيرتنا كثير من المتربصين بنا الداوئر، وعظائمُ من نيران الفتن تَغشي آفاقنا بدخانها... ونحن نكدح في السير مهما كان، نسعى مرة، ونكبو أخرى!.. فاجعل معيتك علامة لنا في طرق سيرنا، وأَشعِرْ قلوبنا بطمأنينة دلالتك وهدايتك إلى سواء السبيل... وإذا لم تنادنا من فوق قمم القلوب، فلم نسمع نحن -بدورنا- مِن آفاق أرواحنا أنفاسَك المُحْيِيَة، فسنصفرُّ كالأوراق التي يلتهمها الخريف، ونصير سببًا لهبوب أنسام الحزن في أفقك. وكم كنا نتمنى ألا نتطاير أشتاتًا مع الخريف، وألا نكون وسيلةَ حزن يطرأ عليك... لكن هيهات هيهات"[١٤].



(١٤) "وخاتم المنبئين عن الغيب"، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، ص:١٤٤.

وقف الصحفيين والكتّاب: من إسلام القوَّة إلى قوَّة الإسلام!

حول مائدة الفطور، في ضيافة "وقف الصحفيين والكتَّاب"، كنّا نستذكر، رفقة مدير المعهد، يومَ زرنا الوقف مع مديري "المدارس العلمية"، ولقد مرَّ على الحدث عام كامل؛ ولقد شاء الله تعالى أن يصدر كتاب "البراديم كولن" في تلك الأيام، فكانت إحدى أولى النسخ هدية لمدير الوقف؛ ويومها قال لي: "هل يمكنك أن تشرِّفنا يومًا ما لعرض كتابك على الباحثين والدارسين؟"، فأجبت بالإيجاب طبعا.

وها قد حلَّ الوقت المناسب، ونظِّم عرض على ما يزيد من ثلاثين باحثا وأستاذا جامعيا، جاؤوا من مختلف أنحاء تركيا، ومن أبرز جامعاتها، أغلبهم من تخصص "الإلهيات"، لهم باع في البحث والتأليف، بالخصوص في فكر الأستاذ فتح الله كولن؛ ولهم العديد من المؤلفات والمقالات العلمية الجماعية.

بغية اكتمال الصورة عند القارئ، أجد من المناسِب استذكار ما كتبت عن الوقف، ضمن سلسلة "مقالات فاتح القسنطينية"، التي نشرت في موقع فيكوس تباعا، ثم نشرت بعد ذلك ملحقا في كتاب "البراديم كولن"، ثم بعد ذلك أعرض المشروع الذي قدمته للإثراء والمناقشة، بعنوان: "ماذا ينتظر المثقَّف العربيِّ من فكر الأستاذ فتح الله، ومن مشروع الخدمة؟". وألحِق ذلك بملاحظات عن مجريات الندوة، والأجواء التي سادتها.

أولا- وقف الصحفيين والكتّاب: من إسلام القوة، إلى قوة الإسلام

مع مرور الوقت، وأثناء التأمُّل في النصوص التأسيسيَّة للإسلام،

والنظرِ في حقيقة المسلمين عبر تاريخهم المشرق، ومقارنة ذلك بواقعهم اليومَ في عهد النكسة والنكبة؛ تأكَّد لي بما لا يدع مجالا للشكِّ، أنَّ الإسلام نزل للكبار، لا يفهمه إلاَّ الكبار، ولا يستطيعه إلاَّ الكبار...

نعم، اقتنعتُ أنَّ الإسلام لا يأبه بالصغار، ولا يعتني بالأصفار، ولا ينفعُ من آثر سُكنى الغار، وإضرامَ النار، وملازمة الفار...

فكلَّما أخلد إنسان، أو أمَّة، إلى الأرض، صار الإسلامُ أبعدَ عنه -عنها- من بُعد مشرق الكون عن مغربه؛ أي إنَّ الملايير من السنوات الضوئية تحول بين الإسلام الحقِّ وبين المتخلِّفين المنتكسين المرتكسين...فلا إسلام بلا قوَّة، ولا قوَّة بلا إسلام، هما وجهان لعملة واحدة، واسمان لحقيقة واحدة؛ دع عنك العملات المزوَّرة، والأسماء المحرَّفة... فاليوم وجب علينا أن نتحوَّل من "إسلام القوة" إلى "قوة الإسلام" إيمانا بهذا البعد الحركي العالمي الحضاري لديننا الحنيف.

كان نبي الرحمة -وهو في أعلى مقام من مقامات قوَّة الإسلام- يحاور المشركين، والمنافقين، والملحدين، والمتمرِّدين... ويدعو الجميع إلى الاحتماء بالدليل، والجدل بالبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البَقَرَة:١١١)؛ بل إنَّ الحوار عند رسول الرحمة لا ينطلق من مبدأ: أنا على صواب، يقينًا...وأنت على خطأ، يقينًا! بل على قاعدة: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(سَبَأ:٢٤).

مِن هذه النافذة أطلَّ علينا "وقف الصحفيين والكتَّاب"؛ وهي مؤسَّسة خيرية، جمعوية، يدل عليها وصفُها بالوقف، ذات مقاييس عالمية عالية؛ أنشئت بتشجيع من الأستاذ فتح الله كولن سنة ١٩٩٤ م، بل هو الذي خطَّ لها خطواتها الأولى بأناة، ورسم لها مخطَّط السير بروية؛ فكانت

البداية من تركيا، وفي تركيا، لأجل تركيا؛ ثم ما لبثت أن صارت عالميةً بكلِّ المقاييس.

كان التشنُّج سيِّدَ الموقف في تركيا بداية الثمانينيات، وكان الناس يتقاتلون فيما بينهم، يقتل الواحد منهم الآخر لمجرَّد كونه من الجهة الأخرى، حتى إنَّ الناس لا يخرجون من بيوتهم ليلا، وإذا صادف أن خرج أحد فإنَّ احتمال أن يُغتالَ أو يؤذى قائم وممكن؛ وهنالك تأمَّل الأستاذُ في الحال والمآل، فرأى أنَّ المثقفين والكتَّاب والصحفيين والسياسيين... وكلَّ من له أتباع ومستمعون ومهتمون، هم الأصل في المسألة، فإن تسامحوا تسامح الناس، وإن تناحروا تناحر الناس، ووجد أنَّ الإسلام هو دين السلم والسلام، بلا منازعٍ، وأنه دين الرحمة والمرحمة، بلا مثيلٍ، بل هو دين التواصي بالصبر والحبِّ...فشرَع هو نفسُه في محاورة كلِّ الجهات، حتى التي يبدو أوَّل وهلة أنَّها أعتى أعداء الإسلام والمسلمين، فكان يزورهم ويدعوهم لزيارته، ويدعو الناس في "الخدمة" إلى كسب قلوب كلِّ من يعرفونه من أبناء البلد، مهما كان دينهم، وحزبهم، وإيديولوجيتهم، وسلوكهم...

يقول مديرُ المركز: "علَّم الأستاذُ كلَّ واحد منَّا أن يعتزَّ بإسلامه، ويثق في دينه، ويخلص في عبادته، ويحاور كلَّ أحد، بلا اسثناء".وكان يقول لنا: "إذا مرض أحد ممن تختلفون معه، فيجب أن تزوروه في المستشفى، حتى إذا فتح عينه لم يجد سوى أهله وأنتم... هكذا كان رسول الرحمة يفعل".

ولقد استجابت لدعوة الحوار كلُّ الجهات، مِن أعلاها إلى أدناها، وشارك فيه أكبر أسماء البلد، إذ كانوا جميعا مبهورين من كونه جاء مِن "عالم دينٍ"، ومصطلح "عالم الدين" له دلالة تقليدية سكونية، وليست

حضارية ولا حركية، غير أنَّ كُولَن خالف النموذج المعتاد، وغيَّر البراديم الكلاسيكي، وأظهر شكلا جديدا، غير مألوف في تركيا يومها، للعالِم المسلم، بما آتاه الله من مواهب فطرية، ومن قدرات علمية، ومن آفاق معرفية، ومن رؤى مستقبلية...

اليوم، على إثر هذه البدايات تأسَّس وقف الصحفيين والكتّاب، وهو يحوي سبعة منتديات تعنى بالحوار، هي:

- منتدى أبَانْت (Abant platform) وهو منتدى عالمي للحوار بين الحضارات، وبين الديانات، وبين التيارات الكبرى... وقد نظَّم الكثير من الملتقيات العالمية، من أوراسيا إلى أمريكا... إلى الكثير من مناطق الصراع في العالم.
- منتدى الفنِّ والثقافة (Culture and art platform) يشارك فيه أكبر المثقفين والفنانين، والشخصيات الشهيرة، من أمثال لاعبي كرة القدم، والمغنّين... أي كلُّ من له شعبية في مجال الإعلام، ويتناقشون قضايا التسامح، والحوار، وغرس قيم الحبِّ، والصداقة، والمعاشرة الحسنة، ونبذ سلوك العنف والإقصاء والتصادم... الذي يودي بالبلد إلى المهالك لا محالة.
- منتدى الصحفيين (Medialog platform) وهو خاص بالصحفيين من كلِّ وسائل الإعلام، ومن كلِّ الاتجاهات، يطوِّرون فيما بينهم أسلوبا صحفيا هادئا مسؤولا، ويزيلون فتائل الجدل الخانق، ويهجُرون أسلوب التعيير والشتم والسبِّ غير المبرَّر، وكلَّ ما يشوِّش على القيم والأخلاق وعلاقات المواطنة...
- منتدى حوار الأديان والثقافات (Intercultural dialog platform) وهو شبيه بمنتدى "أَبَانْت"، لكنه يهتمُّ بداخل تركيا، وينظِّم حوارات بين المسلمين

والمسيحيين، وبين المسلمين والمُوسَويين، وبين المسلمين فيما بينهم، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم... ويزيل الوهم والتهمة التي تقول: "وراء كلِّ فتنة وعنف في العالم تقف الديانة سببا"، بل يُظهر أنَّ الدين بريء من هذا، وإنما المصالح السياسية، والحسابات الضيقة، والفهم الخاطئ، هو السبب والدافع والباعث لكلّ عنف وشدَّة.

- منتدى المرأة (Women's platform) للحوار بين النساء، من مختلف المشارب والمضارب، حول اهتماماتهنَّ، بعيدا عن الادعاءات، والحسابات الضيقة، وبذلك يمنعن توظيف المرأة كشعارات ذات حساسية مرهفة وبالغة، من قبِل المغرضين والفتانين...
- منتدى البحث العلمي (Research platform) وهو منتدى للبحث العلمي، والطروحات النظرية والفكرية والعلمية العميقة، وهنا تتمُّ مناقشتها بدون خلفيات إيديولوجية أو حسابات لا أخلاقية.
- منتدى أَوْراسْيا (platform Eurasia) وهو منتدى يدور حول قضايا أوراسيا (روسيا، وبيلوروسيا، وكازاخستان، وقرغيزيا، وطاجيكستان، وأوزبكستان)، ويشارك فيه أبناء هذه البلاد؛ يُسهمون في نزع فتيل الخلاف بين أبناء الأرض الواحدة، والتاريخ الواحد، والحضارة الواحدة؛ لصالح نموهم ورقيهم، ولأجل وضع أكثر سلاما وأمنا وتقبلا للآخر.

ولقد أصدر "وقف الصحافيين والكتاب" العشرات من الكتب والمؤلفات، بمختلف اللغات، كما أنَّه يُصدر مجلات دورية وشهرية، حول قضايا الحوار، بالتركية والانجليزية، راقية الإعداد والطبع، وواسعة النشر والتوزيع.

وقد أنشئ حديثا "مركز بحوث فتح الله كولن"، ضمن الوقف، وهو المسؤول عن البحث، وعن تنظيم مؤتمرات عالمية، لمناقشة فكر الأستاذ كولن، فقد نظَّم ملتقيات في أرقى الجامعات العالمية: في أمريكا، وروسيا، والسويد، وألمانيا... وغيرها.أمَّا عن الملتقيات المنظَّمة في العالم العربي -مصر، اليمن، الأردن...- فهي بإشراف مجلَّة "حراء" الغرَّاء.

ولقد كان سؤالي لمدير المركز عن مدى الاستفادة من هذه الروح أولا، ومن الفكرة ثانية، ومن المؤسَّسة ثالثا، ومن الخبرة رابعا... وخامسا، وسادسا... فكان الجواب أنَّ "قلوبنا وعقولنا مفتوحة لاحتضان أيِّ تعاون في هذا الشأن، من مثل استقبال أساتذة من العالم العربي، أو عقد منتديات حوار على هذا الأساس في أيِّ بلد عربي...". لكن ثمَّة حساسية وصعوبة، لم يُخفها المسؤول عن المركز في شأن البلاد العربية.

* * *

هكذا، يكون الإسلام: مبادئُ كبرى، تجد أفعالا كبرى، من رجال كبار، وبالتالي تحقِّق إنجازات لا حدَّ لها، وتنشر خيرا عميما لا مثيل له، فيصير المسلم في عالَم اليوم هو مَن يقود قاطرة الحضارات، ولا يبقى في ذيل الأمم والمدنيات، يلهث وراء السراب؛ يلعق دماءه وجراحاته، فيثير الشفقة عند القريب، ويستوفز الشماتة عند البعيد...

الإسلام حضارة، والإسلام عمارة... الإسلام حركية وفكر، وعلم وعمل، وتخطيط وتنفيذ، وإبداع وريادة...هكذا لنكن، أو لا نكون...أمَّا ديننا فهو أعظم، وأرحب، وأوسع...وصدق الله العظيم: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة: ٣).

ثانيا- ماذا ينتظره العالم العربي من فكر الأستاذ فتح الله، ومشروع الخدمة؟

هذه الورقة لا تتجاوز السؤالَ والإشكالَ، إذ تعتقد أنها تتلمَّس المعالم الأولى "للبراديم كولن"، وهي بذلك تتشوَّف للإفادة من تجارب الباحثين والدارسين لفكر الأستاذ، ولمشروع "الخدمة"، من الداخل الحركيِّ أو اللغوي أو المعرفي، التركيِّ بالخصوص.

تتوجَّه هذه الورقة إلى "وقف الصحفيين والكتّاب" برسالة مفادها:

"إنَّ العالم العربي اليومَ، من خلال المثقف العربي، لا ينظر إلى البراديم كولن على أنه "موضوعٌ" للدراسة، أو "تجربةٌ للوصف والتحليل"، أو حتى "نموذج في الفكر الإسلاميِّ المعاصر" للاطلاع عليه بغرض الفضول والمقارنة... لكنَّ الأمر مختلفٌ تماما، إذ السياق الزمنيُّ، وحالُ الأمَّة، والأزمةُ المعرفية والثقافية والحضارية، والبحثُ الجاد عن "المنفَذ"، وعن "المنقِذ"، وعن "النموذج الفكري الممكن" و"المثالِ العملي الحضاري الناجح"... كلُّ ذلك يجعل مهمَّة الغوص في هذه التجربة "واجبا شرعيًّا"، كذا نقلُ التجربة، مع تكييفها حسب سياق الزمان والمكان... أي، إنَّ المثقف العربي ينظر إلى الأستاذ من منظور "المجدِّد" و"الإمام"، لا من نافذة "العالِم"، و"المنظِّر"... ومن ثم يكون لزاما عليه "اتباعه"، والعمل وفق "مخطَّطه وبرنامجه"، ففكر الأستاذ ليس "حكرا" على وطنٍ، أو مجتمع، أو بيئة جغرافية... وإنما هو "كلٌّ حضاريٌّ" للمسلمين، بل للعالم أجمع.

ولا ينبغي الانسياق وراء دعوى "الموضوعية السلبية المتلقية"، ولا اعتقاد "الحياد" تجاه الموضوع المدروس، ولا أنه "نهائيٌّ وعلميٌّ"؛ بل

المطلوب، في سياقنا الحضاري المعرفي، هو "ذاتٌ: متفاعلةٌ، فاعلةٌ، صادقةٌ... غير متعصِّبةٍ، ولا مغلقةٍ، ولا إقصائيةٍ"، وقصارى الباحث في الأخير أن يقول: "هذا هو اجتهادي وأعتقد أنه أكثر تفسيريةً، وأرجو أن تقوموا باختبار ما توصلت إليه". وهذا ما يقوله الجهد الذي أنا بصدده، دارسا، باحثا، منقبا، سائلا...

والباحث في جميع ما كتب، ينطلق من سؤال صغير كبير، وهو:

"ما العلاقة بين العلم والعمل؟ وكيف نحوِّل الفكر إلى فعل"؟

هذا السؤال ذاته هو عنوان "الأزمة المعرفية"، في الفكر الإسلامي المعاصر؛ ومن ثمَّ كان "النموذج المهيمِن" عاجزا عن الإجابة عنه، رغم العديد من المحاولات، بمختلف المسمَّيات: الإصلاح، النهضة، الحداثة، الثورة... الخ.

ومعلوم أنَّ الإجابة عنه، باصطلاح نظرية المعرفة، تعتبر "نموذجا بديلا" أو "براديما بديلا" (Alternative Paradigm)، وذلك بأن يمرَّ عبر مرحلة "تحوُّل البراديم" (shift paradigm). وهو ما تحقق فعلا، في فكر الأستاذ فتح الله، ومن خلال تمثله في الواقع؛ ولذا جاز أن يصطلح على هذا البراديم البديل اسم: "البراديم كولن".

ولقد آثرت هذه المقاربة، رغم ما فيها من مخاطر، لأنها -في تقديري- الأكثر دلالة على واقع "فكر الأستاذ والخدمة"، وإلا فالمنهج المتَّبع عادة يميل إلى "الوصف"، أو إلى "التأريخ والاسترداد"، أو حتى إلى "المقاربة الكمية الإمبريقية"، وأحيانا يعتمد "نظرياتٍ نفسية أو اجتماعية" قد لا تلائم طبيعة الموضوع بالضرورة؛ ولا أشجب هذه المقاربات، فلها محاسنها ولها مساوئها، بالطبع؛ لكنني أفضِّل المقاربة بالنموذج، ذلك أنَّ للنموذج

"قدرةً تفسيرية عالية، تساعدنا في الخروج من الثنائيات الاختزالية: الأستاذ والأتباع، القمَّة والقاعدة، التخطيط والتنفيذ... فهو يحلُّ بديلا عن هذه الثنائيات صورا شاملة كونية مركَّبة، تلج إلى النصوص بعمق، وتستنطق المؤسَّسات بروية، وتتخطَّى السرد الزمني النمطيَّ؛ فمشروع "كولن" -في تقدير هذا البحث- ليس مشروعا كلاسيكيا تقليديا معتادا، ولذا يكون من الظلم حشره في هذه الخانة وضمن هذا الإطار، ويستحيل فهمه من هذا المنطلق وبهذه المقدِّمة".

ومن أبرز ما عالج الباحث في البراديم كولن:

- مشكلتا التصنيف والحدِّ الفاصل: بتحليل "الصور الذهنية"، و"العبارات الموجزة" في فكر الأستاذ، ضمن نتاجِه باللغة العربية؛ ثم "التصرفات العفوية، والسلوك الواعي" للمنتمين إلى "الخدمة".

- البعد الحركي للدلالة والتعريف: تبيَّن من خلاله أنَّ "الألفاظ والمصطلحات عند كولن لا تسكن ولا تخمد عند دلالة واحدة، وإنما تنمو وتتطوَّر، وتولَد وتكبر وترشُد، وتحتكُّ بمختلف العلوم والمعارف، وتلج أغوار القلب لتتمرَّغ في عالم الروح والوجدان، ثم تصَّاعد إلى فضاء العقل لتكتسي الصفاء والمنطق والمعقولية...ثم تتنزَّل إلى أرض الواقع تختبره ويختبرها... وتعيد الكرَّة تلو الكرَّة مسافرةً بين القلب والعقل والواقع، فَتِيلُها مغروس في زيت القرآن والسنَّة الشريفة، لا تنحرف عنهما قيد أنلمة، وهواؤها ممزوج بالتجارب البشرية الغابرة والحالية، وأفقها ممتدٌّ إلى سماء المستقبل والبصيرة والفراسة الصادقة... فتغدو هذه الألفاظ وتلكم المصطلحات بعد عملية التعريف "كيانات حية نابضة بالحياة"، تهب الحركية والتمكين بفضل الخالق الوهَّاب....

ولقد دعوت حينها إلى "بناء قاموس معرفي لمفاهيم البراديم كولن"؛ ولعلي اليوم قد خطوت الخطوة الأولى في هذا السبيل... يبقى أنَّها ترتطم بالعديد من الإشكالات، على رأسها: النسبة الضئيلة لما ترجم إلى العربية من فكر الأستاذ.

- المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك، في البراديم كولن: عالج الفصل عمق العلاقة بين الفكر والفعل، وأنه عند كولن ليس إجراءً عفويا ساذجا، وإنما هو إبداع لا نظير له. لا يدعي الباحث أنه استوعبه، وإنما يدعو إلى الغوص فيه، ولعلَّ "نموذج المنطاد" يكون بحول الله مواصلة لدراسة: الإدراك، والمدركات، والفعل والحركية... وكلِّ ما يمت إلى هذا الموضوع الشيق الشائك، بصلة.

- أسباب الرشد وموانعه: وهي ليست أسبابا من نمطٍ واحد، وإنما تنقسم إلى أسباب "قلبية إيمانية"، وأخرى "عقلية معرفية"، وأسباب "دعوية حضارية"، ثم "فنية جمالية". وقد تم التمثيل لكلٍّ منها بمثالين؛ لعلَّ البحث في كتابته لـ"نظرية كلِّ شيء" ودفاعه المستميت عن أطروحة "الفكر الشموليِّ الكونيِّ عند الأستاذ"، يواصل الحفر في مقدمات هذا الفصل، الذي قد يحتاج إلى مراحل أخرى، وإلى جهود تترى... لمَّا تبذل بعدُ، في تقدير الباحث.

* * *

وأخيرا، أودُّ أن أقول: إنَّ "نموذج الرشد" الذي طوِّر عبر سنوات من البحث، وألِّف فيه العديدُ من المقالات، ثم أجرِيتْ حوله محاضرات وملتقيات؛ كان أوَّلُ مصدر مكتمل لاختبار قدرته التفسيرية، هو كتاب "البراديم كولن"، ثم رواية "بوبال"... هذا النموذج لا يزال طور المراجعة

والتنقيح، وهو يقوم على أسس ثلاثة أساسية، هي:

١. ذاتية اتباع الأسباب

٢. حركية الفكر والفعل

٣. سداد المسلك، في العلل

أقول: في كلّ عمود من نموذج الرشد يتبدَّى مشروعٌ علميٌّ جماعيٌّ في "فكر الأستاذ فتح الله"، ولعلِّي أنتهي بالدعوة إلى تجاوز "عقبة اللغة"، وإلغاء "عقدة الآخَر الثقافي"، والكفِّ عن شعار "الموضوعية الساكنة" التي لا تتناغم مع حقيقة ديننا الحنيف، والخروجِ من "الفردية العلمية" التي طالما حذر منها الأستاذ نفسه، وأخذِ القضية بجدية لائقة... -بعد كلِّ هذه الإجراءات- أرسِلُ دعوة صادقة إلى أخي الباحث، والعالم، والمفكر... إلى بناءِ "جماعة علمية"، بمقاييس "علم اجتماع العلوم" أو أدقَّ منها وأعمق، "جماعةٍ علميةٍ" مختصَّة في فكر الأستاذ فتح الله، وفي مشروع الخدمة... بين الفكر والفعل.

وإن تكن هذه "الجماعة العلمية" قد تأسَّست، بهذه المعايير أو بأقوى منها، فالرجاء إشراك "الباحث العربي" فيها، إذ لا شكَّ أنه المؤهَّل الأوَّل لفهم الأستاذ، لأسباب يطول شرحها.

ثالثا- ملاحظات حول مجريات الندوة

تميزت الندوة بجملة من الخصائص التي تجعلها مثالا للقاءات العلمية المثمرة، من ذلك نذكر:

- التنظيم الجيد، وتوزيع المشروع على الأساتذة قبل موعد الندوة.
- ضبط الوقت، والتحكم في تقسيم الفترات، بين المداخلة والحوار.

• التسجيل والتصوير من قبل مؤسَّسة إعلامية محترفة، لكلِّ مجريات الندوة، بغية نشرها وتنزيلها كتابيا بعد ذلك.

• عمق القضايا المطروحة، والصراحة المتناهية من قبل الأساتذة.

• الخلُق الجميل، والاحترام المتبادل، مع الصراحة والدقة العلمية.

مما يؤكد مبدأ "الثالث الموضوع"، فلا تعارض بين الأمرين.

• الصدق، والنقد، وقبول النقد، والبحث عن الواجب من قبل كلِّ طرف... فالكلُّ يسأل عن "دوره هو"، وعن "مظاهر تقصيره"... ولا يجهد نفسه في إلقاء اللوم على الآخرين.

• الاحترام الشديد للعالم الإسلاميّ عموما، والعربيّ بالخصوص؛ واعتقاد أنَّ اللحمة الإيمانية فوق كلِّ اعتبار.

• الاحترام البين لعلماء المسلمين عموما، وذكرهم بما هم أهل له، بلا تعصب ولا ادعاء.

• الكلمة الطيبة، والابتسامة الصافية، والأريحية والهدوء، سمات لجميع الحضور بلا استثناء.

• احترام التنظيم، والمنظم، والالتزام بالشروط والقواعد، فلا أحد يطلب الاستثناء، أو التمديد في الوقت، أو مراعاته بخصوصية ما.

• النزعة العلمية، التي تطغى على الحوار، فالكل يبحث عما يجب فعله، وعما من شأنه أن ينجز ولم ينجز، وعن أوجه التقصير في الفعل... بغية تحويل ذلك إلى مشاريع، أو خطط، أو خطوات...

• بدا جليا مشكل اللغة، وأنه يقف حاجزا أمام تراث الأستاذ وفكره، في تحوله إلى العالم العربي؛ ولعل ضعف وتيرة الترجمة تلقي بكلكلها

على القضية، فتحرمنا الخير العميم. من هنا ركز المشاركون على وجوب اتخاذ مبادرات متبادلة من كلا الطرفين، للترجمة أولا، ولتعلم التركية ثانيا.

- يؤكد الحضور، أنَّه "علينا تبليغ فكر الأستاذ بمستوى يفوق المستوى الجامعي، من خلال مراكز متطورة متخصصة عالمية؛ وإلا فلا ننتظر الكثير، ولا نتفاءل بأنه سيبلغ مقصده، وسينال الأثر اللائق به، من الناحية الفكرية على الأقلِّ".

- وينتهي الحوار في كلِّ مرة بالسؤال والجواب عن "الخطوة العملية"، وهذا متوافق مع طبيعة النموذج، حسبَ طرحه، أي "تحويل الفكر إلى فعل، والعلم إلى عمل".

- يُجمِع الكلُّ أنَّ مصطلح "البراديم" لائق وموفَّق، وأنه يؤدي الغرض، مع بعض التحفظات من اختزال فهمه لدى غير المتخصصين.

- ويبقى البحث أحوج ما يكون إلى نقد عميق، بخاصة لو ترجم إلى اللغة التركية، وقرأه المتخصِّصون، وتعمَّقوا فيه؛ لا شكَّ أنهم سيفيدون المؤلف إفادة كبيرة.




القسم الثالث

بين مالك بن نبي وفتح الله كولن

- مالك بن نبي.. من سمات التخلف إلى بذور الحضارة
- مشكلة المعرفة، والخصوصية الإسلامية عند مالك بن نبي
- بين مالك بن نبي وفتح الله كولن: مقارنة مختلفة، باعتماد الأحجية العلمية منهجا

مالك بن نبي.. من سمات التخلف إلى بذور الحضارة[1]

تعرَّفت على مالك بن نبي في يوم من أيام الله ولما أتجاوز التاسعة عشرة من العمر، كنت طالبًا في ثانوية "مفدي زكرياء" أوائل الثمانينيات من القرن المنصرم، وكان لأستاذ اللغة العربية "ابن ساحة" الفضلُ في ذلك. ولعلِّي سمعتُ اسم "مالك بن نبي" وتعجبتُ من هذه الصيغة في إحدى دروس اللغة العربية التي كان أستاذي يديرها بنجاح وإبداع منقطع النظير

التشبُّه بالكرام فلاح

أوَّل كتاب قرأته هو "مذكرات شاهد للقرن" باللغة العربية، مرحلة "الطفل" ثم "الطالب"، ولهذا الاختيار دافع معقول هو أنني -وأنا الدارس في شعبة الرياضيات- وددتُ الدخول في شعبة أدبية فكرية اجتماعية، ولم يكن المحيط يحبِّذ مثل هذا "النزول" من مستوى هو الأعلى، إلى مستوى -في عين الجميع- هو الأدنى، غير أني وجدتُ في مالك بن نبي الأنموذجَ والمثال، فهو المهندس الذي تحوَّل من "المعادلات الرياضية" و"الرسوم الصناعية"، إلى "النظريات الحضارية" و"المعالجات الفكرية". فصادف -بهذا- هوىً في نفسي وأمدَّني بالراحة والطمأنينة، وكنت دومًا أفتخر بهذا التشابه وإن لم يكن عميقًا، إلا أن التشبُّه بالكرام فلاح.

---

[1] مجلة حراء، العدد:٢٧ (نوفمبر-ديسمبر ٢٠١١).

ثم بعد توقُّفي عن الدراسة في جامعة باب الزوار للعلوم والتكنولوجيا، سنة ١٩٨٨م، والتحاقي بالمعهد العالي لأصول الدين في الجامعة المركزية، شاء الله أن تُفتح نافذة الحرية على كتب مالك بن نبي مع الانفتاح السياسيِّ، وأن تدخل عناوينه إلى السوق الجزائرية باللغة العربية، فاشتريتها من مكتبة "العالم الثالث" بشارع العربي بن مهيدي بأثمان تبدو اليوم بخسة (من ٣٠ إلى ٦٠ دينارًا جزائريًّا للعنوان الواحد).

ثم التزمتُ مطالعتها كاملة، ووجدت فيها الملاذ والمأوى لعالم الأفكار الذي غاب كليَّة عن ساحة المعهد، وحل محله الطرح التراثي الكلامي المذهبي المسطح. فكانت جامعتي هي "مالك بن نبي" لا "المعهد العالي"، إلى جوار بعض الأسماء المعتبرة مثل: محمد إقبال، وأبو الأعلى المودودي، ووحيد الدين خان... إضافة إلى أساتذتي -الآخذين بيدي- الدكاترة: محمد ناصر، ومحمد الزيني، وأحمد موساوي.

وفي بدايات التسعينيات عرض عليَّ ناشرٌ لبنانيٌّ قائمةَ إصدارات دار الفكر، وهو صاحب دار الملكية بالجزائر، وطلب مني وضع علامة على العناوين التي يترجَّح رواجُها في الجزائر، فلم أفكِّر طويلاً حتى وضعت العلامة على جميع مؤلَّفات مالك بن نبي، وما هي إلا أشهر حتى غطى اسم مالك بن نبي أرفف المكتبات التي طالما طاردته وأبعدته وتنكرت له.

وكنت بين الحين والحين أعود إلى ابن نبي لفهم ظاهرة أو لتفسير أزمة أو لمراجعة فكرة... وبخاصَّة مع تصاعد الفتن في الجزائر، وضياع الأمل في "جزائر عزيزة متمكنة قوية"، وتعدُّد مستويات الأزمات وتنوُّعها، محليًّا ووطنيًّا ودوليًّا.

غير أن العجيب حقًّا في هذه الأيام وقد عقدت العزم على إعادة مطالعة جميع العناوين التي بين يدي مما ألَّف ابن نبي، العجيبُ حقًّا أنني اكتشفتُ في أرفف "معهد المناهج" مذكرات شاهد للقرن باللغة الفرنسية، نشر "سمر للنشر والتوزيع" سنة ٢٠٠٦م، وما إن قارنتها بالنسخة العربية حتى عرفت أنَّ ما تُرجم إلى اللغة العربية هو أقل من نصف المذكرات، وهو ينتهي إلى سنة ١٩٣٩م، أمَّا من هذا التاريخ إلى سنة وفاته ١٩٧٣م، فقد أودع في جزأين آخرين بعد "الطفل" و"الطالب"، وهما "الكاتب" و"الدفاتر"، وقد سمى جزءًا من "الكاتب" باسمٍ كنتُ قد عرفته من قبل، ولم يشأ الله أن أقرأه وهو "العفن"(Pourritures)

ومع سفري إلى "قسنطينة" وهي المدينة التي عرفت الكثير من أحداث حياة الرجل، وهي تعرفه ويعرفها جيدًا، فهي القريبة من مسقط رأسه "تبسة"، حملتُ معي الكتاب لعلّي أطالعه في الطريق أو قبيل النوم، وكان في حقيبتي -أو بالأحرى في جهاز الكمبيوتر المحمول- مشروع "تفعيل المرجعية الإباضية الميزابية".

بعد اشتغالي في المشروع وكتابة بعض فصوله متأثرًا بكتاب "فكرة الأفرو-آسيوية"، تحوّلت مذكِّرات ابن نبي إلى محور لبرنامجي اليوميِّ. وقد هالني ما اكتشفتُ من معاناة الرجل مما لم أكن أعرفه من قبلُ؛ حتى صرت اليوم متيقنًا أنَّ مالك بن نبي لم يكن يؤلف مقالاته، بل كان يعيشها بصبره كلمةً كلمةً، وينحتها من محنه وإحنه فكرةً فكرةً. فيصدق -اليومَ- أن يقال فيه "الرجل هو الفكر، والفكر هو الرجل".

من معاناة مالك بن نبي

فمالك بن نبي -من خلال مذكِّراته- قد سُجن وعُذِّب وحُوصر وأُفقرت أسرته (أبوه وأخته وكلُّ محيطه) وسُجنت زوجته مرَّات، وعرَف "الهجرة" كما سماها، وهي محاولة الهروب إلى الخارج بالأرجل، وعانى الأمرَّين في سبيل نشر أعماله، وفكَّر مرارًا في الانتحار، وكان معوزًا مُنعت عنه كلُّ أسباب التوظيف، وعرف بعض المناصب الشاقَّة التي تستدعي الجهد العضليَّ وهو المتعب المريض.

ولكن الذي أفرغ جعبته من الصبر وجعله يدعو الله أن يعجِّل الموت له، هو الهجران والحصار الذي فرضه عليه أبناء المستعمَرات من العرب والمسلمين بفعل "القابلية للاستعمار"، سواء بالتواطؤ مع المستعمِر، أو عن جهل وغفلة، أو لأمور أخرى لم يستطع تحديدها.

ولقد عانى الأمرَّين مع الحركات الوطنية بكلِّ أطيافها، وعرف في بعض "الزعامات" كلَّ معاني الخسَّة والرذيلة، وتيقَّن أنَّ أغلبهم طلاَّب سلطة، وجلَّهم أخطبوط يبتز الشعب ويغتال الأمل لمآربه الخاصة. وقلَّ منهم من مات مؤمنًا بمواقفه، منافحًا عن دينه ووطنه. وهؤلاء -عمومًا- كانوا تحت وطأة الأيادي الخفية والظاهرة للاستعمار، بالتنسيق مع القلوب الضعيفة والمنافقة لأبناء المستعمرات.

ويكفي أن ندرك أنَّ الرجل -وهو مَن هو- قد عرف الجوع وشارف على الهلاك مرارا، وقد اقتسم مع الطلبة الجامعيين غرفتهم وهو في الخمسينيات من عمره بالقاهرة، وقد أُرغِم على ترك عائلته سنوات وهو لا يعرف عنها شيئًا، ويدعو الله أن يكون قد رزقها الموت "لأنه أرحم

عليهم من الحياة" كمال قال.

إطلالة على مذكرات ابن نبي

وقد شرع الرجل في تأليف "الظاهرة القرآنية" تحت قصف قنابل الألمان في الحرب العالمية الثانية، وكتَبَ معظم مؤلفاته دون اعتماد المكتبات والمصادر، لأنه حُرم منها عن قصد من قِبَل الداخل والخارج.

وهو الذي كتب بتاريخ ٢٢ مايو ١٩٥٨م: "منذ خمسة أيام وأنا أحسُّ الفراغ تحت قدميَّ، والضباب أمام ناظريَّ، والأسف داخل أحشائي.." إلى أن يقول: "كلُّ مطلع شمس في مثل هذه الفترة العصيبة عليَّ، أستيقظ من النوم لأقول: هل هو يوم آخر؟! لا أعرف أحيانًا ما هي شخصيتي الحقيقية، فأنا نقطة تصارع بين جميع المتناقضات التي يمكنها أن توجد في إنسان على ظهر الأرض".

ويكتب في تاريخ آخر من دفاتره ومذكراته: "مرَّة تلو أخرى لا أجد السلام لي في هذا العالم، إنها الخيبة والشك في كلِّ شيء... إذا لم تداركني رحمة الإله فأنا ضائع جسمًا وروحًا، مثل زورق في محيط تلهو به الأعاصير العاتية، متى تعرف طريقي نهايتَها إلى الجهة الأخرى من الحياة؟ يا ربِّ، امنحني بعض الأمتار، بعض السنتيمترات، أقصّر بها طريقي الشقية، فأنا متعب".

تحويل العلم إلى عمل

أنا لست هنا مهتمًّا بعرض هذه المذكرات ولا مولعًا بالغرابة والترف الفكري، ولست بحاجة لبيان حجم المعلومات، فالكتاب الأصلي كفيل بإعطاء الصورة الحقيقية لما أقول، إنما وددتُ أن أُسقط ما قرأت على

واقعنا اليوم، بعد مضي ما يقارب أربعين عامًا على وفاة الرجل.

أردتُ أن أقارن بين ذاتي بكلِّ حماقاتها وضعفها، وهذه الذات التي خرقت حُجب الكون واستقرت عند باريها، صابرة محتسبة رغم كلِّ المعاناة التي لا تتحملها الجبال الشامخة، ولا الأكوان الشاهقة.

فالرخاء الذي يحيط حياتنا هو -ولا شك- نعمةٌ من الخالق المنَّان. لكن -للأسف- إنه يترك قلمنا باردًا مهزومًا، يذره بعيدًا عن واقع الحياة -كما هي- هو أقرب إلى ترديد الصدى ومضغ الحجر منه إلى تغيير النفوس وإحداث الانقلابات الفكرية في دنيا الناس.

ما العمل وأنا حائر في منعرج فكريٍّ لمَّا أجد له الجواب الكافي؟ ما العمل وإشكالية تحويل العلم إلى عمل والفكرةِ إلى فعل، تقضُّ مضجعي وتذيقني العلقم آناء الليل وأطراف النهار؟ ما العمل وفي تقديري أنَّ الأمة الإسلامية لا تزال تدور في دائرة مفرغة من المشاكل والمعيقات والأزمات الذاتية والنفسية والداخلية... تحركها الأيدي الاستعمارية السياسية الخارجية؟

وأعيد السؤال على نفسي آلاف المرات: ما هو خطي الفكري؟ ما هي رسالتي؟ ما هو منهجي؟ وما هي أفعالي؟ وما قيمة علمي؟ وما نسبة فعلي إلى فكري؟

أعيش الفراغ الكوني والأسئلة المحيّرة، ولا أجد لها جوابًا، وقد تعالت أصوات الادِّعاء، وكثر اللغط، واستَشْرَت الخطابةُ، وتعلَّق الناس -إلا من رحم ربي- بالألفاظ والكلمات والأشكال والمظاهر، فأعرضوا عن المحتويات وعن حقائق الأمور والصدق والجهاد.

وتزداد هذه الحال استحكامًا كلَّما تكالبت السياسة على الأخلاق،

وكلَّما نهشت ذئاب الخيانة أرواح المغفلين، وكلَّما سادت القردة والزعانف والرعاع.

تزداد كلَّما صفَّق الجمهور للمسرحية، وتأخَّر زمن النصر الحقِّ، وخاب الأمل في نهاية النفق، وتيقَّن اللبيب بطول الليل وبشدّة البرد على عالمنا الإسلامي الحائر.

غربة المفكرين وآلام التفكير

وقد ظننت أني أعيش هذه الغُربة وحدي، لكنني يوم كتبت "آلام التفكير" -في موقع فييكوس- بدا وكأنَّ العديد من العقلاء يتجرَّعون علقم هذه الفتنة، ولا يملكون الوسائل التي بها يعبِّرون، ولا اللغة التي بها يكتبون، ولا الفكر الذي به يحلِّلون... فهم أحياء داخل جسم ميتٍ، ومنتبهون بين شعب مرتاح إلى نوم مميت.

فكيف نجمع شتات هؤلاء في صفٍّ واحد؟ وكيف نصنع من الأطراف المترامية هيكلاً متينًا؟ مَن لها؟ ومتى؟ وبأي منهج وفكر؟

جُرّبت الثورات فلم تفلح؛ ذلك أنها زرعت الدم والقتل والإبادة، عوضَ الحياة والأمل والعمل.

جُرّبت الكتب والمقالات، غير أنها خاطبت بعض الناس، ونبّهت بعض الأفئدة، ولم تلج إلى قرارة النفوس لتغيِّرها، ولا إلى أغوار العقول لتصقلها.

جُرّبت المدارس والمعاهد، فأثمرت رجالاً ليسوا الأسوأ في الميدان، ولكنهم يقينًا لم يكونوا الأحسنَ والأجدر بصنع واقع مختلف تمامًا عن أيِّ مرحلة تاريخية أخرى عرفها العالم الإسلامي.

جُرّبت الحركات والجماعات، فجرَّدت أتباعها من الإحساس الحضاريِّ العام، وبدَّلتهم بإحساس ذاتيٍّ مفرد، ينظر إلى العالم من كُوَّة مغلقة، فيفسِّر الكون كلَّه من زاويته الضيِّقة، ويختزل الحقيقة فيما بلغه عن "زعيمه" أو "مرشده"، وهو قابع في الدهاليز وداخل البنايات، بعيدًا عن سعة الكون والحياة.

الفرد يحمل بذرة المجموع

ماذا بقي لنا أن نجرِّب إذن؟ هل من الحكمة أن نتوقَّف هنيهة، ونفكِّر مليًّا، ونعيد قراءة الواقع ببصيرة، ونجتهد في قراءة الأدلَّة والنصوص بوعي ودراية، ثم نقترح الدواء اللائق والشفاء الرائق؟

أولم يفعل ذلك بعض العلماء -منهم مالك بن نبي- فلم يفلحوا، ولم يغيّروا هذا الواقع التغيير المنشود؟

أقول -والله أعلم- الخرقُ أوسع من أن تخيطه إبرة واحدةٌ، والجرح أعقد من أن يشفيه دواء واحد، والأرض أظمأ من أن تسقيها قطرة واحدة، والفؤاد أفرغ من أن يعمره أمل واحد، والفكر أجدب من أن تحييه فكرة واحدة.

ولنجرّب جمع الطاقات جميعها على صعيد واحد، لكن شريطة أن يكون مفطورا في خلية كلٍّ منها ما يدفعها للاجتماع والتكتُّل، تمامًا مثل الفطرة التي تحملها الطيور وهي تحلِّق في أسراب، تُحسب بالألوف والملايين، في نظام متسق ومتناغم، ذلك أنَّ الفرد يحمل بذرة المجموع، وأنَّ المجموع يتكوَّن من قوَّة الأفراد.

وحتى يتمكن أيُّ طرف من الالتحاق بالمجموع، يجب عليه أن يتخلى

عن فكرة "أنا ولا أحد"، وفكرة "الصواب المطلق معي والخطأ المطلق مع غيري"، وفكرة "بي يصلح الوجود وبغيري يخرب"... ففنُّ الاجتماع قد يكون أحيانًا كسبيًّا، ولكنه في كثير من الأحيان يكون فطريًّا، يُنْبئ عن معدن الفرد، مصداقًا لقول المصطفى ﷺ: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقِهُوا» (متفق عليه).

فلتكن –أخي– من المعدن الصالح الذي يزرع بذور الحضارة بعد أن يستأصل سمات التخلف، غير مكترث ولا آبهٍ بما يُقال عنه أو بما يقال فيه. فالله سبحانه وتعالى وحده هو الكفيل أن يبارك خطواته، وهو الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهو القائل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(التوبة:١٠٥).



مشكلة المعرفة، والخصوصية الإسلامية عند مالك بن نبي

لو كان مالك بن نبي عالما متخصِّصا، محشورا في زاوية ضيِّقة من زوايا المعرفة البشرية، لكان البحثُ في "مشكلة المعرفة" عنده أمرًا هيِّنا، يكفي فيه بعضُ الجهد حتى يستوي على سوقه؛ لكن، ما دام الرجل موسوعة معرفية عميقة، ومشروعا فكريا عالميا، ونسقا منهجيا متميزا، فإنَّ صياغة محاضرةٍ، أو مقالٍ، أو بحثٍ، عن نظرية المعرفة في نتاجه يصبح أمرا مستعصيا؛ ولذا لا بدَّ أن أنبِّه أنَّ هذا العمل لا يعدو أن يكون مقاربة، ومدخلا، ومحاولة، يستتبع جهودا أخرى مكثفة، أطول نفسا، وأوفر جهدا ووقتا.

بدايةً، سنتعرض لـ"مشكلة المعرفة" كما هي في المصادر المتخصصة، ثم نقيس ما أنتجه مالك بن نبي في عناوين هذه المشكلة البعيدة الغور في حقل "الفلسفة" و"نظرية المعرفة" و"الأبستيمولوجيا"؛ معتمدين على أسلوب الاستشكال أكثر من أسلوب الحكم والقطع والختم، ذلك أنَّ الحوار الفعَّال حريٌّ بإجلاء الصورة وتوضيحها، ولقد قرَّر بعض العلماء أنَّ "الاستشكال علمٌ"، وهو مفيد إذا لم يحِد عن الأمانة والانضباط والوضوح.

فلنحاول أن نكون كذلك في هذه المداخلة، سائلين الله التوفيق والسداد.

مشكلة المعرفة

يقول محمد باقر الصدر، في كتابة "فلسفتنا": "تدور حول المعرفة الإنسانية مناقشات فلسفية حادَّة، تحتلُّ مركزًا رئيسًا في الفلسفة، وخاصَّة

الفلسفة الحديثة، فهي نقطة الانطلاق الفلسفيِّ لإقامة فلسفة متماسكة عن الكون والعالم، فما لم تحدَّد مصادر الفكر البشري ومقاييسه وقيمه لا يمكن القيام بأية دراسة مهما كان لونها. وإحدى تلك المناقشات الضخمة هي المناقشة التي تتناول مصادر المعرفة ومنابعها الأساسية بالبحث والدرس، وتحاول أن تستكشف الركائز الأولية للكيان الفكري الجبار الذي تملكه البشرية فتجيب بذلك على هذا السؤال: كيف نشأت المعرفة عند الإنسان؟ وكيف تكوَّنت حياته العقلية بكل ما تزخر به من أفكار ومفاهيم؟ وما هو المصدر الذي يمد الإنسان بذلك السيل من الفكر والإدراك؟"[٢].

فلا يمكن إذن أن يقيم عالم صرحا أو نظرية فلسفية دون ضبط مشكلة المعرفة؛ من هنا، وبما أنَّ ابن نبي، باتفاق الباحثين والدارسين، هو صاحب مشروع فكري حضاري فلسفي، فلا بد إذن أن يكون له حضور في قضايا "مشكلة المعرفة"، وإذا ما رمنا التبسيط، فإننا نحدد المشكلات التي تتثيرها نظرية المعرفة في الإجابة على الأسئلة الثلاثة الآتية:

"أولا: طبيعة المعرفة الإنسانية.

ثانيا: مصادر المعرفة.

ثالثا: حدود المعرفة وإمكاناتها"[٣].

وسنحاول أن نعرِّف كل ركن من هذه الأركان على حده، انطلاقا من طبيعة المعرفة، التي هي الركيزة والمبتدأ.

---

(٢) فلسفتنا، محمد باقر الصدر، ص:٥٥.

(٣) نظرية المعرفة، عبد المهيمين، ص:٣٢ (بتصرف).

طبيعة المعرفة

عن طبيعة المعرفة يبرز السؤال الجوهريُّ حول معيار الحقيقة: "هل هو الوضوح والبداهة، أم النجاح والمنفعة"... ترى الأطروحة الأولى أنَّ مصدر المعرفة من طبيعة عقلية؛ فالمعارف هي نتاجٌ عقليٌّ وليست مجرَّد نسخٍ مطابقة للواقع، ومن هذا المنطلق فإنَّ معيار الحقيقة هو العقل الذي أنتج المعرفة، وعلامة ذلك الوضوحُ والبداهة... وتعود هذه الأطروحة إلى فلسفة "أفلاطون" الذي قال في كتابه "الجمهورية": "من الواجب على النفس الباحثة عن الحقيقة أن تمزِّق حجاب البدن، وأن تنجو من عبوديته، وأن تظهر ذاتها بالتأمُّل".

وفي الفلسفة الحديثة اعتمد "ديكارت" في بناء الحقيقة على العقل، ورفض الحواس؛ لأنها خدَّاعة، قال في كتابه "حديث الطريقة": "لا أتلقى على الإطلاق شيئا على أنّه حق ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك".. ويقول في موضع آخر: "كنت دوما شديد الرغبة في تعلم التمييز بين الحق والباطل، حتى أنظر بتبصر في أفعالي، وأسير بأمان في هذه الحياة"[٤].

أمَّا الأطروحة الثانية فتتمثل في "المذهب البراغماتي"، وهي ترى أنَّ الحقيقة تقاس بمعيار النجاح والمنفعة، أي بمطابقة الأشياء لمنفعتنا لا مطابقة الفكر لذاته أو للأشياء الخارجية... ترتبط هذه الأطروحة بالفيلسوف الأمريكي "بيرس" الذي قال: "المعرفة كائن ما كانت لا تستحق هذا الاسم إلاَّ إذا كانت لها نتائج عملية يمكن لكلِّ إنسان أن يشاهدها إذا أراد".. وتعمَّقت هذه الأطروحة على يد "وليم جيمس" الذي

---

[٤] حديث الطريقة، ديكارت، ص:٦٦.

قال في كتابه "محاضرات في البراغماتية": "الحقُّ ليس إلاَّ التفكير الملائم لغايته، والصواب ليس إلاَّ الفعل الملائم في مجال السلوك". ويُعتبر "جون ديوي" حلقة إضافية في سلسلة المذهب البراغماتي، حيث ربط بين التفكير والمنفعة قال في كتابه "كيف نفكِّر"، مؤكِّدا أنه "يبدأ التفكير إذا اعترضت الإنسان مشكلة تتطلَّب الحل".

ويظهر اتجاه ثالث ينظر إلى الحقيقة نظرة تكاملية تجمع العقل والواقع والمنفعة في معيار واحد؛ فالإنسان عند "ابن خلدون" ولد خالٍ من المعرفة وباتصاله بالواقع شرع في بنائها؛ فالحواس -إذن- تقدِّم مادة المعرفة، والعقل ينظِّمها ويفسِّرها من خلال فكرة الزمان والمكان والسببية والغائية (مقولات العقل)، وكما قال "كانط": "الأفكار من دون مضمون حسيّ جوفاء، والإحساس من دون تصورات عقلية أعمى"، ومتى اتّحد العقل بالواقع تحققت المنفعة وانكشفت الحقيقة.

هذه هي المذاهب الثلاثة في تحديد طبيعة المعرفة، والسؤال المستنبط هو: ما هو مذهب ابن نبي؟ أهو عقلي، أم براغماتي، أم هو بين بين؟

أساسا، هل يمكن أن نعثر على موقف كامل، ورؤية واضحة، عند ابن نبي، في هذا الجدل الفلسفي التاريخي العميق؟

ذلك ما نحاول استجلاءه، وبدأ الغوص فيه، في مداخلتنا، تاركين التعمق والتفصيل لأوانه ولأربابه.

مصادر المعرفة

تبعا لتحديد طبيعة المعرفة، ونتيجةً لازمة عليها، انقسمت المدارس الفلسفية في تحديد مصادر المعرفة إلى مذاهب، من أبرزها:

١- المذهب التجريبي: الذي يرى أنَّ مصادر معارفنا كلَّها هي "الخبرة الحسية، ووسيلة اكتساب المعرفة هي الحواس وحدها" وينسب هذا المذهب إلى جملة من الفلاسفة على رأسهم "ديفيد هيوم"، و"جون لوك"[٥].

٢- المذهب العقلي: وهو لا ينكر الحواسَّ؛ ولكنه لا يجعلها مصدرا صادقا للمعرفة إذ "لا بدَّ من مصدر آخر للمعرفة غير الحواس. وليس ثمة مصدر آخر للمعرفة يمكن الركون إليه إلاَّ العقل، فما يصدر عن العقل صادق بالضرورة"[٦]. ويقوم المذهب على فكرتين أساسيتين، هما "الشك في قدرة الحواس كوسيلة لنقل المعارف الضرورية عن العالم، والإيمان بالعقل كمصدر وحيد للمعرفة"[٧].

٣- ومن المنطقي أن يأتي المذهب الثالث، الذي يجمع بين المصدرين المتقدِّمين، والذي يُعرف بالمذهب النقدي، ليقرِّر على لسان "كانت" أنَّ "المعرفة لا تتم إلاَّ بالخبرة الحسية والمبادئ العقلية معا، ومن هذا يتضح أنَّ المذهب النقدي قد وقف بين الواقعية والتجريبية"[٨].

من هذا المدخل، نسأل: ما هي مكانة الحواس في مصادر المعرفة عند ابن نبي؟ هل ينحو منحى المذهب العقلي؟ أم أنَّ الجمع بين الاثنين هو الصواب؟ لكن، كيف يتم الجمع، أليس هو نوعا من التلفيق لا غير؟

أين يصنف مالك بن نبي، موضوع هذا المبحث، في هذه الاتجاهات؟

---

[٥] نظرية المعرفة، عبد المهيمين، ص:٣٩-٤٠.

[٦] نظرية المعرفة، عبد المهيمين، ص:٤٢.

[٧] المعرفة والتجربة، إنصاف أحمد، ص:٢٨.

[٨] نظرية المعرفة، عبد المهيمين، ص:٣٢.

إمكان المعرفة وحدودها

هل المعرفة ممكنة؟ وإذا كانت ممكنة فما حدودها؟ هذان هما السؤالان الرئيسان في هذا المبحث. ولقد ظهر -كما هو مفترض- مذهبان رئيسان، هما:

١-مذهب الشك: وهو مذهب ينكر إمكان المعرفة، وينكر كلَّ صورة من صور المعرفة، وهو مذهب "ينفي قدرة الإنسان على الحصول على معارف يقينية" وقد نبت هذا المذهب عند السوفسطائيين، بزعامة "بروتاجوراس وجورجياس".

٢-مذهب اليقين والاعتقاد: وهو يقرر أنَّ ادعاء الشك باستحالة المعرفة ادعاء باطلٌ، ولقد قضى الفلاسفة على الشك باعتباره نظرية في المعرفة، وإن أبقوه منهجا في البحث لا مذهبا. فالشك الديكارتي مثلا هو "خطوة ضرورية... وهو منهج إلى حقيقة أولى، ووسيلة هادفة إلى يقين عقلي"[٩]. ويتوزع اليقينيون إلى عدة مدارس، ليس المجال مجال عرضها وسردها.

من خلال هذين المذهبين في إمكان المعرفة، إلى أي اتجاه يميل ابن نبي؟ وأين عبَّر عن موقفه فيما ألَّف من كتب؟ أم أنه لم يتعرَّض لهذه الإشكالات إلاَّ عرضا، بما لا يسمح بالحكم المبرهن عليه في هذا النقاش؟

لا شكَّ أنَّ البحث والتنقيب في جملة ما كتب ابن نبي، وما كتب عنه، قد يفتح لنا نوافذ للجواب عن هذه الإشكالات، ولنحاول إذن اقتحام العقبة، والغوص في المسألة.

---

[٩] المعرفة والتجربة، إنصاف أحمد، ص:٣٦.

الخصوصية الإسلامية

تعالج بحوث "التأصيل" السؤال العميق: ماذا يعني أن يكون العلم إسلاميا؟ وقد عبَّرت مدرسة "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" عن ذلك بصياغتها لمفاهيم "أسلمة العلوم" أو "أسلمة المعرفة"، وبعيدا عن الجدل الدائر في مشروعية هذه الأسلمة من عدم مشروعيتها؛ فإنَّ الأسلمة معناها: "التأصيل الإسلامي للعلوم والمعارف، أو توجيه العلوم وجهة إسلامية، أو إسلام المعرفة، أو النظام المعرفي للإسلام، أو علم العلوم والمعارف".

وقد عرَّف الدكتور عماد الدين خليل مفهوم أسلمة المعرفة بكونها "ممارسة النشاط المعرفي كشفا وتجميعا وتوصيلا ونشرا؛ من زاوية التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة".

أمَّا الدكتور طه جابر العلواني، أحد روَّاد المعهد ومؤسِّسيه الأوائل، فيقول: "أسلمة المعرفة تمثِّل الجانب الذي يمكن أن نطلق عليه الجانب النظريَّ من الإسلام، أو الجانب المعرفيَّ، الذي يقابل الجانب النظريَّ في سواه".

وفي ورقتنا هذه، نطرح سؤالا دقيقا هو: ما هو مفهوم الخصوصية الإسلامية لنظرية المعرفة عند ابن نبي؟

يجتهد البعض في نقل نظرية المعرفة كما وردت في المصادر الغربية، ويحشر لها نصوصا قرآنية وحديثية، ويسمي ذلك: الخصوصية الإسلامية؛ بينما يرى آخرون أنَّ الخصوصية تعني النسبة إلى الفلاسفة المسلمين؛ يقول الصدر: "نظرية الانتزاع، وهي نظرية الفلاسفة الإسلاميين بصورة عامة"[١٠].

---

[١٠] فلسفتنا، محمد باقر الصدر، ص:٦٦.

فهل مالك بن نبي في خصوصيته الإسلامية تبنى المنهج الأول، أم هو من رواد المنهج الثاني، أم أنه صاحب منهج مختلف عنهما؟

في فكر ابن نبي

ألَّف ابن نبي ما يربو على عشرين عنوانا، بعضُها صدر على شكل مقالات، ثم جمع في عناوين منهجية، من ذلك نذكر "بين الرشاد والتيه"، والبعض الآخر ألقاه ابن نبي على شكل محاضرات، ثم جمعه، أو جمع من بعده في كتب مستقلة، نمثل لهذا النوع بـ"وجهة العالم الإسلامي"، و"مجالس دمشق". ومنها ما صدر مؤلفا مستقلا، اعتنى بصياغته كلية، أبرز العناوين في هذا النوع هي "الظاهرة القرآنية"، و"شروط النهضة"، و"مشكلة الثقافة"، و"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي". وثمة أصناف أخرى، ليس المقام مقام تحليلها جميعا؛ ذلك أنَّ السؤال الحري بهذا البحث، هو: في أيٍّ من هذه المؤلفات عالج مالك بن نبي مشكلة المعرفة؟ وبأي نسبة؟ وما هي العناوين التي تعتبر مصدرا، وما هي تلك التي تعد مرجعا؟

لا شك أنَّ الجواب لا يملكه إلاَّ بحث متخصِّص، في وقت طويل، وبجهد مستقص، وهذا ما لا ندَّعيه، وما ينبغي لنا أن نفعل. غير أنَّ الحكم الأولي، وطول ممارستنا لمصادر ابن نبي، كلُّ ذلك يقضي أنَّ كتاب "مشكلة الأفكار"، ومن قبله "شروط النهضة"، و"مشكلة الثقافة"، هي المصادر الأساسية المعتمدة في استجلاء معالم نظرية المعرفة عند ابن نبي، وتأتي الكتب الأخرى على شكل تطبيقات، أو شروح، أو إضافات.

عن فكر ابن نبي

أوَّل ما يجمُل السؤال عنه هو: هل تمت معالجة نظرية المعرفة عند

مالك بن نبي من قِبل باحثين متقدِّمين؛ سواء في دراسات وبحوث أكاديمية، أم في مقالات علمية، أم ضمن أجزاء من مؤلفات خاصة؟

لقد حلل زكي الميلاد "نظرية الثقافة عند مالك بن نبي"، تحت عنوان "نحو قراءة معرفية جديدة"، وقد تناول الباحث بالخصوص الفرقَ بين "الثقافة" و"العلم"، وخطورة الخلط بينهما في المجال الفكري، وعلى هذا الأساس "تصبح الثقافة -كما يقول- نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن قياس الفرق الضروري بين الثقافة والعلم".

غير أنَّ زكي الميلاد لم يتطرق للعناوين الرئيسة، والإشكالات الأساسية لنظرية المعرفة عند مالك بن نبي، وعلى كلٍّ ليس هذا مقصده من بحثه.[١١]

أمَّا محمد إبراهيم فقد تعرَّض في مقال له إلى "مشكلة الأفكار عند مالك بن نبي"؛ غير أنه -للأسف- نقل شذرات وومضات من فكر الرجل، لا يربط بينها رابط، والمقال مخلٌّ جدًّا، لا يرقى إلى مستوى التحليل الفلسفي العلميِّ المتخصص.[١٢]

أمَّا الدكتور مصطفى عشوي، ففي مقال له بعنوان: "إنسان الحضارة في فكر ابن نبي"، فقد أبدع في عرض الجوانب الأساسية في الإنسان في فكر مالك بن نبي: "الجانب الروحي، والجانب الجسمي، والجانب الوجداني، والجانب العقلي"؛ وفي الجانب العقلي أورد بعض الملامح عن مشكلة المعرفة عن ابن نبي، وبالخصوص علاقة الأفكار بالعمل، أو ما عرف بالمنطق العملي. ويبقى المقال جادا وهاما، غير أنه ليس متخصصا في

---

[١١] موقع الكلمة للأبحاث، kalem.net.

[١٢] موقع منتدى العراق، iraqimunteda.com.

نظرية المعرفة عن مفكرنا.

ومن الضروري، كي يكتمل الحكم فيما كتب مالك بن نبي، وما كتب عنه، حول نظرية المعرفة، أن تجرى بحوث استقصائية طويلة النفس، لعلها تليق رسائل للماجستير وأطروحات للدكتوراه، في مستوى أهمية الموضوع، وأثره على مسار الفكر الإسلامي والإنساني المعاصر.

أما في سياقنا، فيكفي أن نذكر أننا لم نعثر على عمل علميٍّ واحد عالج نظرية المعرفة عند مالك بن نبي، وهذا لا ينفي وجوده، طبعا.

للإجابة على الأسئلة والإشكالات السابقة، نجد أنَّ عرض خصائص مشكلة المعرفة عند ابن نبي، ستكون مفتاحا ومدخلا للولوج إلى الموضوع بمنهجية، إذ ليست التفاصيل قادرةً على إبراز صورة شمولية مركَّبة. ومن ثمَّ، فإنَّ أبرز الخصائص التي استنبطناها، تتمثل في العناوين الآتية:

١- فكرٌ خارج التصنيف

إنَّ التصنيفات في عمومها ملزمة للمشتغلين في حقلها؛ غير أنَّها قد تتجاوز البعض، وقد يتجاوزها البعض الآخر؛ فهي تتجاوز من لم يبلغ مستواها، ولم يرقَ مراقيها؛ أمَّا العباقرة الذين خبروا ذلك المجال، وعرفوا أسراره وأغواره، فإنهم يتجاوزون -غالبا- تلكم التصنيفات، ذلك أنها مجرَّد إجراء منهجيٍّ مساير لقصور العقل، أمَا وقد رشُد هذا العقل العبقري، فما حاجته إذن لهذا التصنيف؟

ومالك بن نبي لو حاولت تصنيفه في خانة معينة، لأدركتك الصعوبة قبل أن تدركها، ولاستحال عليك الصدق في فعلك هذا؛ فهل هو تراثي أم حداثي؟ وهل هو عقليٌّ أم نصيٌّ؟ وهل هو فيلسوف أم عالم اجتماع، أم

مفسِّر أم مؤرِّخ...؟ أم هو عالم إنسانيٌّ أم عالم طبيعيٌّ؟ أم هو عالم مقتصر على دوائره القريبة؟ أم هو عالمي النزعة والاهتمام والأثر؟

لو وسمته بالتراثية -مثلا- لوجدت الرجل متحكما في الوسائل المنهجية، وفي الأفكار الأكثر حداثة، تحكُّما يجعلك تعدل عن رأيك؛ ولو وصمته بالحداثة، لألفيته عالما بأصول التراث ومصادره، قادرا على استنباط أعمق الأفكار والمواقف منها، بلا عقدة ولا ادعاء.

ولو قلت إنه عقلي، لقرأت له احترامه الشديد للوحي، وقدرته على الالتزام بالنص في نصاعته؛ أمَّا إذا قلت عنه إنه نصي نقلي، فسترى أنَّ العقل عنده فاعل فعال، وأنَّه سببه إلى الفهم والإدراك والوعي.

وهو ليس فيلسوفا مصنفا ضمن المدارس الفلسفية الكلاسيكية، ولا هو عالم اجتماع، له نظريات في علم الاجتماع، ولا هو مفسر للقرآن الكريم، مشتغل به، ولا هو مؤرخ، أو فيلسوف للتاريخ؛ بل لو صنفته ضمن العلماء في العلوم الإنسانية لظلمته؛ لأن في فكره الكيمياء والفيزياء والرياضيات... ومن باب أولى لا تجد أن تدرجه مع العلماء الطبيعيين أو الرياضيين أو الفلكيين.

وفي تقديري إنَّ أبرز خاصية من خصائص مشكلة المعرفة عند ابن نبي أنها ارتقت إلى مستوى "البناء الشمولي"، و"النظرية الكاملة المحكمة"، وأنها خارج التصنيفات المعرفية المألوفة؛ فلا هو مثالي، ولا هو مادي؛ ولا هو عقلي، ولا هو حسي؛ والصفة الوحيدة التي تستوعبه هي أنه "عالم مسلم إنساني"؛ وهذا بالذات عنوان الخصوصية التي تميز الرجل عن غيره، وتجعله يفوق من سواه في هذا المضمار.

٢- الرؤية الكونية ورؤية العالم عند مالك بن نبي

إنَّ "الرؤية الكونية" أو "رؤية العالم" تقع في قلب مشكلة المعرفة، ذلك أنها الطريقة التي يحدد بها العقل فهمه "للخواء" ولـ"اللامعنى" ولـ"الاغتراب في الحياة"؛ وهو المنهج الذي يرسم به الإنسان علاقته بالمعرفة وبالوجود.

يقول إنصاف حمد: "وبسبب من الاختلاف الواضح في المنهج لدى كل من المذهبين [العقلي والتجريبي]، فإنه من الطبيعي أن يكون لكل منهما نظرة مختلفة حول ماهية الإنسان، وإجابات مختلفة حول الأسئلة المطروحة على صعيد نظرية المعرفة مثل مشكلة أصل المعرفة، ودور كل من الذات العارفة والموضوع المعروف في عملية المعرفة، ومشكلة حدود المعرفة، ومعيار الحقيقة واليقين"[١٣].

وقد عالج مالك بن نبي هذه القضية بإسهاب، وإن لم يوظِّف المصطلحات المعروفة حاليا، مثل "الرؤية الكونية" و"رؤية العالم"، وذلك في كتاب "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، تحت عنوان "الإجابتان عن الفراغ الكوني"، ويوظف ابن نبي قصتين هما: قصَّة "روبنسون كروزو"، و"حي بن يقظان" ليظهر طبيعة الجواب عن سؤال الكون المختلفة بين الاثنين، فبينما ينحو الأول نحو الأشياء، وهذا ما يذكرنا في مشكلة المعرفة بالمادية وبالمذهب التجريبي الحسي، ينحو ابن طفيل في قصته إلى الجواب بطريقة عقلية تصاعدية من "المادة" إلى "الروح"، منها إلى "خلود الروح" وأخيرا إلى فكرة "الخالق"؛ وهو ما يذكرنا بالمذهب

---

[١٣] المعرفة والتجربة، إنصاف أحمد، ص:٢٧.

الشمولي الإسلامي الكوني.

٣- العوالم الثلاثة عوضا عن مصادر المعرفة

تقدَّم أنَّ نظرية المعرفة تبحث في المصادر التي يستقي منها الإنسان معارفه، وأنَّ الفلاسفة انقسموا إلى "مذهب تجريبي حسيٍّ" و"مذهب عقليٍّ" وثالث "نقديٍّ" يحاول أن يجمع بين الحس والعقل؛ ولقد استطاع مالك بن نبي أن يتجاوز بذكاء هذا التقسيم العقيم، بل إنه تجاوز حتى نظرية "الانتزاع" التي تنسب إلى الفكر الفلسفي الإسلامي؛ واعتمد في ذلك على مناهج "الأبستمولوجية"، بخاصة ما عرف عند "جون بياجيه"، من النظر إلى مراحل نمو الطفل، حسب مباحث علم النفس والتربية، ثم تعميم ذلك على مراحل نمو البشرية، وكأنها في ذلك كائن بشري يمر بنفس المراحل التي يمر بها الإنسان.

من هنا نسب ابن نبي إلى الطفل في مرحلته الأولى "عالم الحس"، وعبر عن ذلك بـ"عالم الأشياء"؛ ثم نسب إليه في مرحلة ثانية نوعا من التجرد عن الحس وبداية الارتباط بالعقل، وهو ما عبر عنه "بعالم الأشخاص"، وأخيرا تأتي المرحلة الثالثة، مرحلة النضج، وفيها يرتبط الطفل بعالم الأفكار، إذ يبدأ من هذه "اللحظة في "تكوين راوبط شخصية مع مفاهيم تجريدية".

ونحن نتساءل: هل هذه المفاهيم التجريدية مختلفة عن مدركات العقل، سواء في التصور أم التصديق؟

لا شك أنَّ الجواب سيكون بالنفي، وبهذا تتعدَّد مصادر المعرفة لدى البشرية، وتنمو من مرحلة "الأشياء" إلى "الأشخاص"، وأخيرا "الأفكار"؛

ولكنها قد تتقهقر وتتنزل من عالم إلى ما دونه، تماما مثلما الحال للشيخ الذي يهرم، ويفقد المراحل واحدة تلو أخرى، على النحو الآتي:

١- عالم الأفكار، بفقده كلَّ قدرة خلاقة.

٢- عالم الأشخاص، نتيجة اللامبالاة أو النفور.

٣- عالم الأشياء، نتيجة الضعف وعدم الإقبال".

وفكرة "العوالم الثلاثة" في تقديري هي بؤرة نظرية مالك بن نبي في "المعرفة" بل، هي محور نظريته في "الوجود"؛ وهي التي ميزته عن غيره من الفلاسفة التقليديين من جهة، والمقلِّدين من جهة ثانية. وعليها يبني الكثير من الاستنتاجات الحضارية العملية الاجتماعية.

والجدير بالذكر أنَّ أحمد داوود أوغلو، في كتابه "البراديم البديل"، ذكر أنَّ مشكلة الغرب هي مشكلة "نظرية المعرفة"، فعلى أساسها يبني صرحه المعرفي بكلِّ خصائصه؛ أمَّا الفكر الإسلامي، فمحوره ليس هو نظرية المعرفة، وإنما "نظرية الوجود"؛ ومن ثم، حتى في تناولنا لنظرية المعرفة ننتقل طواعية وضرورة إلى نظرية الوجود، ونعالج إشكالاته، ونبرهن على مستوياته. وهذا الذي لوحظ عند ابن نبي بامتياز، ودلَّ على أصالته بجدارة.

٤- الفاعلية، بديلا عن النزعة البراغماتية

لم يهتم مالك بن نبي في كامل مؤلفاته بالسؤال التقليدي في نظرية المعرفة، وهو: هل المعيار الحقيقي للعلم "هو الوضوح والبداهة، أم النجاح والمنفعة"؟؛ وبالتالي لم يحشر فكره في ثنائية "العقلانية" و"البراغماتية"؛ لكنه عالج بصورة مختلفة، ذات السؤال، فوفِّق أيما توفيق،

يقول في "وجهة العالم الإسلامي": إنَّ من أبرز المشكلات التي تواجه العالم الإسلامي العجزُ عن التفكير وعن العمل، وهو في المجال النفسي يدل على انعدام الرباط المنطقي (الجدلي) بين الفكر ونتيجته المادية، فالفكرة والعمل الذي تقتضيه لا يتمثلان ككل لا يتجزأ".

وقد عالج هذه المشكلة تحت عنوان "المنطق العملي"؛ ثم فرَّق بين الكفاءة والفعالية، وفصَل القول في العلاقة بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل؛ وقد استفدنا من ذلك كله في صياغة "منظومة الرشد"، التي تعنى بنقاط ثلاث، هي:

١- ذاتية اتباع الأسباب

٢- حركية الفكر والفعل

٣- سداد المسلك.

واضح أنَّ العمود الثاني هو محور ما نحن بصدده، وهو يقع في صلب نظرية المعرفة كلِّها، ذلك أنَّ الحاجة ماسة إلى فاعلية بلا براغماتية، أو إلى الجانب الإيجابي من البراغماتية، بعيدا عن جانبها السلبي؛ ولعلَّ مصطلح "النافعية" يكون الأنسب لذلك، وهو مسبوك من دعاء للرسول الكريم عليه السلام، يقول فيه: «اللهمَّ إني أسألك علما نافعا»، فإذا كانت النفعية تخص الثمرة المادية القريبة، فإنَّ النافعية تعالج الثمرات القريبة والبعيدة، يقول تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠)، ويقول: ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾(محمد:٣٥).

٥- عجز العلم عن تأسيس المجتمع

مما يندرج ضمن طبيعة المعرفة السؤال عن حدِّ العلم: فهل العلم قادر

وحده على إسعاد العباد، وعلى تأسيس المجتمعات وقيادة الحضارات؟ أم أنَّ للعلم مجاله الخاص به، فهو ليس من طبيعة الغايات والنهايات والقيم المطلقة؟

يجيب مالك بن نبي على هذه الإشكالية بقاعدة صاغها بعد تحليل مستفيض، اختار له عنوانا معبرا: "القيمة الخلقية"، فقال: إنَّ "الدين هو وحده الذي يستطيع أن يؤسِّس مجتمعنا، والعلم لا يستطيع تأسيس مجتمع"، وبعبارة مفسِّرة يقرِّر أنَّ الانسجام بين أفراد مجتمع ما، الذي هو أساس قيام المجتمع "لا يمكن أن يقدمه العلم، ولكن تقدمِّه الأخلاق"[١٤].

وإلى هنا، نكون قد أشرنا، مجرَّد إشارة، إلى "الخصوصية الإسلامية لنظرية المعرفة، عند مالك بن نبي"، ولقد افتتحت الشهية أمامنا، لبحوث طويلة النفس، تخرجنا من قفص الوصف الرتيب، والترجمة السردية، والعرض المعلوماتيِّ؛ إلى فضاء التحليل، والنقد، والتركيب، والإبداع؛ وهي جميعها خصائص منهجية لطالما دافع عنها ابن نبي بلا هوادة، ووفق فيها أيما توفيق.



---

[١٤] الحقيقة والمآل، مالك بن نبي، ص:٨١-٨٢.

بين مالك بن نبي وفتح الله كولن:
مقارنة مختلِفة، باعتماد الأحجية العلمية منهجا

في لقاء علميٍّ مع مدير وكالة جيهان، الأستاذ عبد الحميد بيليجي؛[١٥] وبعد حوار ثريٍّ، ومعلومات ضافيةٍ، سخا بها الأستاذ مشكورًا ومأجورًا، سألني عن اهتمامي بمالك بن نبي؛ ولا شك أنَّ توافُق البلد أوحى له بالسؤال، فلمَّا أعلمته بعلاقتي الوطيدةِ بفكره منذ أمد؛ قال: "هل في الإمكان أن نُجري مقارنة بين فكر الأستاذ فتح الله والأستاذ ابن نبي؟"

كان الجواب، بالطبع، إيجابا.

ثم سألني عن أبرز نقاط الافتراق والالتقاء بين الرجلين، فأجبتُه عن الأولى، وأجَّلت الثانية؛ وقلت:

أولا: الوعاء الحضاري، أي الامتداد المكانيُّ والثقافيُّ والسياسيُّ والفكريُّ... هو مختلِف تمام الاختلاف بين الرجلين؛ أي إنَّ التربة ليست واحدة، وكذا المؤثرات الثقافية والفنية والجغرافية.

ثانيا: النسيج الحضاري، أي الامتداد التاريخيُّ للرجلين، هو مختلِف كذلك؛ ويمكن رسم خطَّين أقرب ما يكونان إلى الخطوط المتوازية، بين خطِّ الزمن لمالك بن نبي وخطِّ الزمن لفتح الله كولن.

ومن يومها، وأنا أطوِّر نظريتَيْ "الوعاء الحضاري"، و"النسيج الحضاري"[١٦]؛ ولقد كتبت فيهما العديد من المقالات، وحاضرت فيهما

---

(١٥) كانت الزيارة في شهر جويلية ٢٠١٠م؛ وقد كتبت مقالا بالمناسبة، نشرته ملحقا بكتاب "البراديم كولن"، بعنوان: "زمان وجيهان، حين يصير الإعلام نظيفا"، ص:١٩٤.

(١٦) انظر: *مقدمات في نظرية الوعاء الحضاري؛ موقع فييكوس، بتاريخ ٥ يناير ٢٠١١. *الوعاء الحضاري والنسيج الحضاري؛ مخطوط، المؤلف. *دورنا التربوي، في ظل

في العديد من الملتقيات، ولا أزال.

واليوم، بعد عزم الإخوة في "حراء" على بعث "جماعة علمية"[١٧]، ولو تجوُّزا، تكون جسرا بين "البراديم كولن ومشروع الخدمة" من جهة، والنخبة المثقفة في العالم العربي من جهة ثانية... بعد هذا العزم الأكيد، رأيتُ من المناسِب أن أعود إلى "فكرة المقارنة بين ابن نبي وكُولَن"؛ لكن مع ملاحظتين جوهريتين:

الملاحَظة الأولى: إنني ابتداءً، ومن الناحية المنهجية، أرفض البحوث المقارنة بين كذا وكذا، ذلك أنها غالبا ما تكون "انتقائية" ومحسومَة النتائج مسبقا، فالباحث ينتقي نقاطَ المقارنة، ويحوم حولها، ثم يختزل أحكامًا معيَّنة؛ ولباحثٍ آخر أن ينتقي نقاطا أخرى، ويصلَ من خلالها إلى أحكام أخرى، قد تكون مختلفة كليًّا. فالمقارنة، إذن، بهذا المعنى، وبهذا المنهج التقليديِّ، قاصرة عاجزة عن إبلاغ المراد.

أمَّا الملاحظة الثانية، فهي أنني، ومن الناحية المنهجية كذلك، لا أميل إلى دراسات الأثر، وأقف إلى صفِّ المسيري في هذا الاختيار،[١٨] ذلك

وعائنا الحضاري؛ محاضرة صوتية؛ معهد المناهج، الجامعة الصيفية، الطبعة الثالثة، موقع فييكوس، بتاريخ ٢٦ جويلية ٢٠١١م.

[١٧] انظر: الجماعة العلمية ابتداء؛ مقال، موقع فييكوس؛ ١٨ يونيو ٢٠١١م. الجماعة العلم-عملية؛ محاضرة صوتية؛ معهد المناهج، الجامعة الصيفية، الطبعة الثالثة، موقع فييكوس، بتاريخ ٢٧ جويلية ٢٠١١م

[١٨] يقول المسيري: "وإنكار مقدرة العقل التوليدية يتبدى بشكل واضح في ظاهرة مرضية أكاديمية أخرى، هي دراسة قضية التأثير والتأثر، وهي دراسة مريحة لا تتطلب اجتهادا وإبداعا" (رحلتي الفكرية؛ مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠٠٠م؛ ص:٢٦٦).

أنَّ أثر كذا في كذا، وأثر فلان على علاَّن، هي أحكام كبيرة جدًّا، ومختزِلة لظاهرة إنسانية مركَّبة من أسبابٍ معقَّدة، إلى ظاهرة متفرَّدة في سببٍ واحد مباشر؛ ومثل هذه البحوث لا تلد، وهي من نوع المصادرة على المطلوب في كثير من الأحيان؛ وليس دائما طبعًا.

ولذا، فإنني، في هذا البحث، سأعتمد "الأحجية"[١٩] منطلَقا لفهم الظاهرة المقارنة بين فكر الرجلين، وسأعتمد الاستثارة والاستشكال أساسًا، محاوِلا بذلك تفادي المنهج الكلاسيكي في المقارنة والتأثير؛ ولا يعدو عملي أن يكون مجرَّد مدخل ومقدِّمة لما قد يتحوَّل إلى جهد أكثر تنظيمًا وعمقًا.

ولا شكَّ أنَّ العلم باعتباره أحجية (Enigme scientifique، Scientific puzzle)، أو مركَّبا من عدد من الأحاجي[٢٠][٢١]، هو من أبرز مظاهر "بنية الثورات

---

[١٩] الأحجيـة في اللغـة هي اللغز، والأحجية العلمية هي عملية ذهنيـة مركَّبة، قد تكون محضَ خيـال، أو تكـون مـن الواقـع؛ تنتظر من القـارئ ومن الطرف المتلقِّي إعمـال عقله؛ بحيث تعتمد الاستشـكال، وطرح الأسـئلة، والتلغيز؛ وفائدتها أنها تتعامل مـع العقل التوليديِّ، لا مـع العقول الفوتوغرافية المتلقيَّة المصمَتة.

[٢٠] تجمـع الأحجية على "الأحاجـي"، وعلى "الأحجيات"؛ وترد الصيغتـان في مصادر اللغة، وفي البحوث العلمية؛ ويوجد كتاب في النحو بعنوان "منير الدياجي، في تفسير الأحاجي"، للإمـام أبـي الحسـن علم الدين علي بن محمد السـخاوي (ت ٦٤٣هـ)؛ شـرح فيه أحاجي أبي القاسم الزمخشري في النحو؛ تحقيق سلامة عبد القادر المراقي، لنيل درجة الدكتوراه، إشراف أحمد علم الدين رمضان الجندي؛ جامعة أم القرى، ١٩٨٥م.

[٢١] ألَّف قطب الأيمة امحمد بن يوسـف اطفيش (ت: ١٣٣٢ه) رسـالة بعنوان "لغز الماء"، وقد حصـل بعد حله على وسـام الشـرف من قبل السـلطان العثماني عبد الحميـد الثاني؛ فرأى علمـاء الأكاديميـة الفرنسـية للعلـوم أنهم الأولى بمنح الوسـام، فكرموه بوسـام ثان؛ فقبل الوسام، وعلَّقه أسفل برنوسه؛ تعبيرا عن رفض الاستعمار واحترام العلم.

العلمية"، عند "توماس كوهن"، في كتابه الذي خصَّص فيه فصلا بعنوان "العلم العادي، علم حلِّ الأحجيات"[٢٢].

ثم إنَّ علوم الفيزياء، والفلك، والكوسمولوجيا بالخصوص، تطوَّرت، ليس بالصرامة التي يعتقدها البعض، وإنما بالعمليات العقلية، وبالألغاز، والأحجيات؛ وهذا بالذات ما يميِّز فكر أنشتاين[٢٣] مِن غيره، وهذا الذي طوَّر الفيزياء الكمومية، وبخاصَّة "مبدأ الريبة"، الذي شارك في حلِّ أحاجيه: بور، وهايزنبرغ، وغيرهما.[٢٤] ولم تكن أحجية "قطة شرودينجر"[٢٥] خارج هذا الإطار.

أمَّا في العلوم الإنسانية، والدراسات الحضارية، فقلَّ ما يُستعمل هذا النسق من التحليل؛ إلاَّ أنَّ كلاًّ من "هوستن سميث، ومراد هوفمان"، قد فتحا لي الباب واسعا باعتمادهما على ما يشبه الأحجيات، في تحليل أعقد قضايا الحضارة؛ أمَّا الأوَّل ففي كتابه "لماذا الدين ضرورة حتمية؟"[٢٦]،

---

[٢٢] بنية الثورات العلمية؛ توماس س. كون؛ ترجمة حيدر حاج إسماعيل؛ المنظمة العربية للترجمة، بيروت؛ ١٩٩٦م؛ ص:٩٩ وما بعدها.

[٢٣] ألبرت أنشتاين، قال ذات مرة : "الخيال أقوى من المعرفة"، كان يقدِّر جيِّدا مفهوم "التفكير مثل الطفل"؛ وقد سمح له هذا الموقف أن يفهم الكون بطرق عميقة. وقد استخدم خياله لإجراء "تجارب الفكر"، و"طرح الأحجيات"، التي ساعدته في رؤية العالم من منظور جديد.

[٢٤] مبدأ الريبة: أنشتاين، هازينبرغ، بور والصراع من أجل العلم؛ ديفيد ليندلي؛ دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٩م. وانظر:جيمس جينز: الفلسفة والفيزياء؛ فصل خاص بالفيزياء الكمومية.

[٢٥] البحث عن قطة شرودينجر؛ جون جريبين؛ ترجمة: فتح الله الشيخ، وأحمد السماحي؛ نشر مؤسستي كلمات، وكلمة؛ ٢٠٠٩م.

[٢٦] لماذا الدين ضرورة حتمية؟ مصير الروح الإنسانية في عصر الإلحاد؛ دار الجسور الثقافية، الأردن، ٢٠٠٥م. وقد استعار المؤلف فكرة النفق، للتعبير عن أزمة العصر الراهن، وعبر عن العلموية بأرضية النفق، وعن التعليم العالي بالجدار الأيسر، وعن وسائل الإعلام بسقف

وأمَّا الثاني ففي كتابه "الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود"[٢٧].

وفي عملي هذا لن أتوانَى عن اعتماد هذا الأسلوب، وهذا المنهج، فإن أصِب فبتوفيق من الله، وإن أخطئ، فذلك لسوء تقديرٍ مني. وحسبي أنَّ الله تعالى علَّمنا في محكم تنزيله كيف نتبنى الأحجية، والصورة الذهنية المفترَضة، وسيلةً وسببا للإقناع؛ قال جلَّ من قائل: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾(الحج:١٥)، وحسبي بعد ذلك أنَّ الرسول عليه السلام اعتمد الأحجية في الكثير من الأحاديث، منها أحجية السفينة[٢٨]،

النفق، وعن القانون بالجدار الأيمن؛ وعن نور الإيمان بالضوء والهواء في نهاية النفق

[٢٧] الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود؛ مراد هوفمان؛ تعريب: عادل المعلم، يس إبراهيم. مكتبة الشروق، القاهرة ٢٠٠١م. يشرح مراد هوفمان هذا الاختيار للخيال والأحجية منهجا للتحليل، فيقول: "ولتحقيق ذلك سأقوم بخلق شخصيتين من بنات أفكاري، لطالبين مسلمين، نمطيين، يعيشان في الغرب حاليا؛ وسأقوم بتوجيه الأسئلة إليهما عن هذا الغرب، حتى أصفه من خلال عيونهما، هذا في الفصل الأول. أما في الفصل الثاني، فسأقوم بهذه التجربة مع طالبين أوروبيين، هما بطبيعة الحال شخصيتان ابتكرتهما أنا في خيالي، فأسألهما عن انطباعاتهما عن العالم الإسلامي. وسأضيف إلى الشخصيتين المتخيلتين بعدا إضافيا من خيالي، فإحدى الشخصيتين اختارت هذا العالم وطنا لها، أما الأخرى فلا ترى داعيا لهجرة وطنها الأصلي. ومن خلال هذه التجربة، سنشاهد هذا العالم، العالم الإسلامي، من خلال عيون غريبة عنه. أمَّا النتجية فأعتقد أنها ستكون محيِّرة". (الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود؛ مراد هوفمان؛ ترجمة: عادل المعلم، وويس إبراهيم؛ دار الشروق، ٢٠٠٠م؛ ص:١٧-١٨).

[٢٨] عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما يقول: قال النبي ﷺ: «مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها، مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأسا، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم» (رواه البخاري، كتاب الشهادات؛ باب القرعة في المشكلات).

ومنها أحجية الثلاثة الذين سدَّت عليهم حجرة باب الغار[٢٩]... وغيرها من الأحاجي في سنَّة المصطفى عليه السلام كثير.[٣٠]

الأحاجي

الأحجية الأولى: ابن نبي التركي، وكولن الجزائري!

لو أننا غيَّرنا "الوعاء الحضاري" و"النسيج الحضاري" للعالمين ابن نبي، وفتح الله كولن؛ أي، لو أننا نقلنا كولن إلى الجزائر، في الظروف التي عاشها مالك بن نبي؛ ونقلنا مالك بن نبي إلى تركيا، وعاش الظروف التي عاشها كولن... فكيف يتصرَّف الاثنان؟

وبأخصر عبارة: هل يمكننا أن نتصوَّر ابن نبي تركيًّا أوروبيًّا، سليلاً للعثمانيين؟ وهل يمكن تخيُّل فتح الله جزائريًّا مغربيا عربيًّا، سليلاً للموحِّدين؟ وما هي الفروق التي نخرج بها، بين ما هو كائن، وما هو مفترَض على سبيل الأحجية، بتبديل الأدوار بين العالمين؟ وهل سيتصرَّف ابن نبي تماما مثلما تصرَّف كولن، أم سيكون له سلوك وفكرٌ آخر؟

وكذا الأمر، بالنسبة لكولن الجزائريِّ؛ هل سيؤسِّس مشروع "الخدمة"

---

[٢٩] قال رسول الله ﷺ: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أووا المبيت إلى غارٍ فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلاَّ أن تدعو الله بصالح أعمالكم...» (الحديث، رواه البخاري؛ باب الإجارة).

[٣٠] أود التنبيه كذلك إلى أنَّ الأحجية والصورة الذهنية المفترضة، تعتبران من أبرز المناهج التي اعتمدها بديع الزمان النورسي، في معالجة حقائق الإيمان والقرآن، في كامل "كليات رسائل النور"؛ وهو ما يسميه بـ"الحكاية التمثيلية". انظر مثلا: الكلمات؛ الكلمة الثالثة، والتي يقول في مستهلها: "إن كنت تريد أن تفهم كيف أنَّ العبادة تجارة عظمى وسعادة كبرى، وأنَّ الفسق والسفه خسارة جسيمة وهلاك محقَّق؛ فانظر إلى هذه الحكاية التمثيلية، وأنصت إليها:..." (ص:١٢).

في الجزائر؟ وهل ستكون الاستجابة مماثلة لما لقيه في تركيا؟

لا أستعجل الجواب، ولكنني أسأل، وأعيد: هل سيكتب كولن مقالا بعنوان "تفاهات جزائرية"[٣١]، لو أنه عاش ظروف الجزائر غداة الاستقلال؟

وهل سيخطُّ ابن نبي كتابا بعنوان "القدر في ضوء الكتاب والسنة"، ردًّا على المتلاعبين بمفهوم القدر، والمشكِّكين في العدل الإلهي، وأصحاب "اللوثات والضلالات المشوَّشة"[٣٢]؛ من ذوي الثقافة الحداثية في تركيا آنذاك؟

لا أعرف، ولكنني أحيانا، وأنا أطالع للرجلين أجدهما أقربَ ما يكونان فكرًا وفهمًا؛ وأحيانا أخرى، لا أجد وجهًا للشبه، بين ما يكتبه كولن وما يكتبه ابن نبي؟

فهل يكفي أن نقول: الفرق فقط يكمن في الوعاء الحضاري، وفي النسيج الحضاري؟ أم أنه يظهر كذلك في طبيعة الرجلين، وفي نوعية التكوين... وفي ظروف وأسباب أخرى؛ لا نقدر لها إحصاءا، ولا تقديرا؟

الأحجية الثانية: القابلية للاستعمار، وحوار الحضارات

إنَّ مالك بن نبي ذاق الأمرَّين جرَّاء الاستعمار الفرنسيِّ، ثم على يد أذياله قبل الاستقلال وبعده؛ فكتب عن "الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة"[٣٣]، وطوَّر نظرية "القابلية للاستعمار"، حتى صارت علَما عليه، وماركة مميِّزة لفكره.. أمَّا كُولَن من جهةٍ أخرى، فلم يكن تحت

[٣١] في مهب المعركة، إرهاصات الثورة؛ مالك بن نبي؛ ١٩٨٦م، ص:١١٢.

[٣٢] القدر في ضوء الكتاب والسنة، محمد فتح الله كولن، دار النيل، تركيا، ٢٠٠٦م، ص:٦.

[٣٣] الصراع الفكري في البلاد المستعمر، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م.

وطأة استعمار خارجيّ، بل عانى من انحرافٍ وانجرافٍ داخليّ، كاد يؤدِّي بالبلاد إلى المهاوي والمهالك؛ فتصرَّف بأسلوب مغاير؛ إذ كتب عن الحوار، وأسَّس مشاريع في الحوار،(٣٤) يقول الأستاذ محمد أنس أركنه: إننا "نرى أنَّ فتح الله كولن لم يكتف بفتح المؤسَّسات التعليمية والمدارس، بل نراه يتحدَّث عن أهمِّ مشروع اجتماعي وثقافي للمجتمعات الإنسانية المعاصرة، وهو إنشاء حوار بين الحضارات"(٣٥)؛ ولقد ألَّف العديدُ من الكتَّاب أعمالا حول هذه النقطة بالذات، منهم "جون اسبيزوتو، وإحسان إيلماز" في كتابهما "الإسلام وبناء السلم، مبادرات حركة كولن"(٣٦)... وغيرها كثير.

ترى لو أنَّ ابن نبي لم يكن ضمن البلاد المستعمَرة، هل سيهتدي إلى نظرية "القابلية للاستعمار"؟ وهل سيدعو إلى "حوار الحضارات"، كما فعل كُولَن؛ رغم وطأة الاستعمار الظالم على بلده وعلى سائر البلاد العربية؟!

ثم، هل كان الاثنان متناغمين مع الظروف التي مرَّت بهما؟ أم إنَّ أحدهما أو كليهما لديه انحراف ولو يسيرٌ عن الزاوية المطلوبة؟ وكيف نقيس هذا الانحراف لو وُجد؟ ثم كيف ننفيه إن لم يوجد؟

وهل في الإمكان تصوُّر عالِم يجمع بين الشخصيتين في آن واحد؟ فيكتبُ عن ظاهرة الاستعمار، ويصوغ أسس الحوار، في نفس الآن؟ أم

(٣٤) انظر: البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، على ضوء نموذج الرشد؛ محمد باباعمي، دار النيل، تركيا ٢٠١١م؛ ص:١٨٩.

(٣٥) فتح الله كولن، جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية؛ محمد أنس أركنه؛ دار النيل، تركيا، ٢٠١٠م؛ ص:٢٣٢.

(36) Islam and Peacebuilding: Gulen Movement's Initiatives, Edited by: John Esposito, Ihsan Yilmaz. Blue Dome Presse, New York, 2010.

إنَّ قدرة المثقَّف والعالم[٣٧]، لا يمكنها مهما بلغت من الكمال أن تتجاوز المؤثرات الزمانية والمكانية، والحالة النفسية والاجتماعية، وبالتالي فالعالِم ابن انتمائه، وهو بلغة المسيري "متحيّز" شاء أم أبى؟

الأحجية الثالثة: أسفل البحر المتوسِّط، وأعلاه!

يحمل مالك بن نبي همَّ البلاد الإسلامية الواقعة أسفلَ البحر الأبيض المتوسِّط، ولذا نجده يكتب عن "فكرة الأفرو أسيوية، في ضوء مؤتمر باندونـغ"[٣٨]، ويكتب "تأمُّلات"[٣٩]، وكذا "بين الرشاد والتيه"[٤٠]، و"في مهبِّ المعركة"[٤١]... وغيرها من الدراسات التي تتناول في الأساس

---

[٣٧] يعتبـر البحـث في "حدود العلم وعجز العالم" من أبـرز المواضيع إثارة في نظرية المعرفة؛ فإضافـة إلـى ما كتبه كارل بوبر في "منطق الكشـف العلمي"، الذي نسـف فيـه ادعاء العلم الوضعي القدرة على تفسـير كل شـيء؛ نقرأ كتابا لعبد الوهاب الأفندي بعنوان "عن ستيفن هوكنـغ وسجالات خلق الكون: حدود العلم ومحيط الجهل"؛ بل إنَّ موسوعة صدرت في بريطانيـا بعنوان "موسـوعة الجهـل" تؤكد هذه الحقيقة؛ وانظر مقـال: مقياس العلم؛ محمد باباعمي، مجلة كراسات تربوية، مصر، عدد:٢.

[٣٨] يعـرض فيـه المؤلف مشـروعا لبلاد عدم الانحيـاز، على ضوء مؤتمـر باندونـغ؛ وقد لقي المؤلـف جراء مشـروعه عنتا كبيـرا، وحصارا شـديدا، على يد أذيال الاسـتعمار في البلاد المستعمَرة. (انظر: فكرة الأفريقية الآسيوية على ضوء مؤتمر باندونـغ؛ ترجمة: عبد الصبور شاهين؛ دار الفكر، دمشق؛ ١٩٨٦م).

[٣٩] كتـب المؤلـف عـن الصعوبـات كعلامة نمو فـي العالم العربـي، وعن خواطر فـي نهضتنا العربية، وغيرها؛ دار الفكر، دمشق؛ ١٩٨٦م.

[٤٠] صاغ فيه أسـس علم "فهم الثورات"، وكذا "وعي الاسـتقلال" وحيثياته في الجزائر وغيرها من البلاد العربية، وأبدع فيه المؤلف أيما إبداع؛ دار الفكر، دمشق؛ ١٩٨٦م.

[٤١] وضـع فيه المؤلف "الاسـتعمارَ تحت المجهر"، وبين "وحل الاسـتعمار"، وكشـف "أبواق وأقلام الاستعمار"، وصاغ مشروعا "لإصلاح التراب الجزائري"، ودعا إلى "مؤتمر جزائري لإصـلاح العمـل"، إلـى أن انتهـى بـ"الأفكار الميتـة والأفـكار القاتلة". دار الفكر، دمشـق؛

إشكالات حضارية، تمسُّ بالخصوص البلادَ المستعمَرة في مواجهتها مع البلاد المستعمِرة؛ مع التنبُّه إلى أنَّ الأسباب الذاتيةَ هي الفيصلُ، وأنَّ الأسباب الخارجية ثانويةٌ وتابعة لا غير.

أمَّا كولن، فيحمل هموم تركيا ما بعدَ العثمانيين أساسًا،[٤٢] ثم مِن خلالها كلَّ البلاد التي تلتصق بتركيا، بخاصَّة "البلقان"، وبلدان "أوراسيا"؛ ولا أدلَّ على ذلك من منتدى "أوراسيا" في "وقف الصحفيين والكتاب".

ثم إنَّ كولن، وبخاصَّة بعد زيارته المشهورة إلى بلاد الغرب، سنة ١٩٩٧م، وخطابِه الشهير الذي بكى فيه لتخاذلِنا عن تبليغ دين الله للعالمين، ثم بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٩٩م راح بعد كلِّ ذلك يوجِّه البوصلَة نحو الغرب، وهذا ما يفسِّر انتشار مشاريع "الخدمة" في أمريكا، وكندا، وأستراليا، وأوروبا... بخلاف الدول العربية، التي لا تزال تتعامل باحتشام مع هذه المشاريع.

ولا أقول هنا، إنَّ ابن نبي لا يحمل همَّ العالم الغربيِّ والشماليِّ، ولا عن كولن إنه لا يحمل همَّ البلاد الواقعة في خطِّ "طنجة جكرتا"،

١٩٨٦م.

(٤٢) اقرأ مثلا مقال: "إنسان الفكر والحركية"؛ في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"؛ فستجد أنَّ الأسماء التي أسند إليها فكره كلها عثمانية وتركية، ويقول: "إنسان الفكر والحركية هو رجل الانطلاقة والحملة، الحركي المخطط، الذي يقوم ويقعد على خفقان شد العالم بالنظام مجددا" إلى أن يقول: "رجال في استقامة مديدة يشعون ضياء، منهم: أحمد حلمي فليبيه لي، ومصطفى صبري، وفريد قام، ومحمد حمدي يازر، وبديع الزمان سعيد النورسي، وسليمان أفندي، ومحمد عاكف، ونجيب فاضل" (ص:٦٣-٦٤). ولا شكَّ أنَّ الأستاذ هنا يراعي ظروف المستمعين، ومداركهم، والأهداف والرؤى والغايات، فهو يخاطب الناس بلسانهم، وبما يفهمون، وبما ينفعهم.

وبالخصوص البلاد العربية؛ ولكنَّ الحديثَ طبعا عن الأولوية، وعن الأسبقية، وعن نقطة الارتكاز في الفكر، والتركيز في الحركية.

ومن الغريب أنَّ سهم الانتقال بين ابن نبي وكولن كان في اتجاه معاكس، إذ بينما انتقل الأوَّل -فكريا- مِن الشمال إلى الجنوب، أي من فرنسا وألمانيا إلى الجزائر، ومنها إلى مصر وسورية؛ نجدُ أنَّ الثاني انتقل من الجنوب إلى الشمال، أي من تركيا إلى أمريكا؛ فهل لهذا الانتقال الأثرُ الكبير على مسار فكرهما؟

أيُّ الفكرين أصلحُ للعالم العربيِّ اليومَ؛ وبخاصَّة في عهد الثورات على الداخل، بعدما عرف العالم العربيُّ الثورات على المستعمر الخارجي؟

هل هو فكر مالك بن نبي، الذي ساند "الاطِّراد الثوري"، وكتب في فقه الثورة، وعن "الأخلاق والثورة"، وعن "التقلبات في عصر جديد"؛ وهو الذي قال: "إنَّ الثورة قد تتغير إلى "لا ثورة"، بل قد تصبح "ضدَّ الثورة"، بطريقة واضحة خفية"، وقال: "إذا لم نحفظ في عقولنا وقلوبنا مقدِّمات ومسلَّمات الثورة، فسوف لا نفقد "عِقالا" فقط،[٤٣] بل نفقد الروح الثورية ذاتها"[٤٤]؟

أم إنَّ فكر كولن هو الأجدر بالتبني، وهو الذي رفض جملة وتفصيلا كلَّ هدم لا ينتهي بالبناء،[٤٥] وتحدَّث عن الأمواج الغائرة العميقة، في

---

[٤٣] إشارة إلى ما حدث للخليفة الراشد أبي بكر ﷺ، يوم تمرَّد عليه أهل الردَّة من مذحج وبني حنيفة، وامتنعوا عن أداء الزكاة، فقال مقولته الشهيرة: «والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدُّونه رسولَ الله ﷺ لقاتلتُهم عليه» (رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ).

[٤٤] بين الرشاد والتيه، مالك بن نبي، ص:١٤.

[٤٥] يقول كُولَن: "الاعتراض على كلِّ شيء، ونقدُ كلِّ شيء حركةٌ تخريبية. والإنسانُ عندما لا يعجب بشيء، عليه أن يأتي وينجز الأحسنَ منه. فمِن النقد والهدم نحصل على خرائب،

مقابل الأمواج الطافحة العقيمة،[٤٦] ووجَّه مصطلح الثورة توجيها مختلفا، فقال: "ارْفَعْ شعار الثورة ضدَّ كلِّ مألوف، واهتِف كما هتف الرومي "هلمَّ إليَّ يا إنسان!"، ثم ادفِن نفسك في غياهب النسيان... نادِ كما نادى بديع الزمان "وا إنسانيتاه!"، ثم امضِ ولا تفكِّر بسعادتك الشخصية... أجل، اِنْسَ رغد الحياة، انْس البيت والولد، واسلك درب أهل السموِّ الواصِلين لتكونَ من الناجين"... إلى أن يقول: "مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين... يثورون على كل المعايير المألوفة، يتجاوزون كلَّ المقاييس المعروفة"[٤٧]؟.

تُرى، هل يمكن أن نجمع بين الفكرتين والمشروعين؟ وهل هما من قبيل الأفكار المتكاملة المتعاضِدة، والمشاريع المتناغمة المتناسقة؟ أم إنهما متناقضان متعارضان؟ أم إنَّ فيهما شيئًا من هذا، وشيئًا من ذاك؟ فما هو هذا الشيء، وكيف يمكن فهمه وتمثله؟

أنا، هنا، لا أكتبُ للمفكر والمثقَّف والباحث والمحلِّل فقط؛ ولكن أضع في ذهني صورةَ شابٍّ عربيٍّ، في مراحله الأولى من الجامعة، وهو يكاد لا يتلمَّس الحقيقة، ولا يُبين في التعبير عنها؛ فهو لهذا يبحث عن "سداد المسلك" بلغة نموذج الرشد[٤٨]، فهل الحلُّ والجواب في موضوع

ومن البناء نحصل على عمار" (الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٠).

[٤٦] نقل إلينا أحد تلاميذ الأستاذ هذا المعنى حرفيا عن الأستاذ فتح الله، بعد الثورات التي اجتاحت العالم العربي هذه السنة (٢٠١١م).

[٤٧] مجلة حراء، المنشور، فتح الله كولن، ترجمة: نوزاد صواش، العدد:١٤، (يناير–مارس ٢٠٠٩م)؛ ص:٦٤.

[٤٨] يقوم نموذج الرشد على أعمدة ثلاثة، هي: ذاتية اتباع الأسباب، وحركية الفكر والفعل، وسداد المسلك. (انظر: البراديم كولن، ص:١٣-١٤ وما بعدهما)

الثورات يكمن فيما ورد عند مالك بن نبي، أم فيما جاء عند فتح الله كولن، أم هو مزيج بين هذا وذاك؟

وأنا، هنا، كذلك، لا أفترضُ، ولكنَّها واقعةُ حال، فثمَّة طلبة علم من الجزائر تشرَّبوا فكرَ الأستاذين، وعايشوا بعقولهم وقلوبهم الفتن التي تعصف على بلاد الإسلام. فهم بالتالي قلقون معرفيا، مستشكلون منهجيا، مستعدُّون نفسيا، متوقِّدون فكريا، ينتظرون التوجيه والإرشاد، ورسم خطِّ السير بحكمة وحنكة وذكاء.

الأحجية الرابعة: تبادُل الزيارة بين ابن نبي وكولن!

في صباح ربيعيٍّ هادئ، زار مالك بن نبي فتح الله كولن، وهو في الطابق الخامس، بالولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن طالع جلَّ كتبه المنشورة باللغتين العربية والفرنسية؛ ثم إنَّ "الأستاذَ"، تيسَّرت له السبلُ، وقد طالع مالك بن نبي منذ أمدٍ، أي في السبعينيات من القرن الماضي، فعاود الكرَّة هذه المرَّة، وطالع ما وقع بين يديه من مؤلَّفات مالك بن نبي، وبعدها زاره إلى الجزائر، وطرَق عليه بابه.

ما هي أوَّل كلمةٍ تلفَّظ بها الواحد تجاه الآخر؟ وما هي الصفة التي وصف بها ابن نبي كولن، والصفةُ التي وصف بها كولن ابن نبي؟ ثم ما هي أبرز نقاط القوَّة التي اكتشفها كلُّ واحد منهما في فكر الآخر، وفي تمثُّلات فكره في الواقع؟ وما هي نقاط الضعف؟ ثم ما هو رأي ابن نبي في "الخدمة"، كما هي عليه الآن؟ وما هو أبرز نقدٍ ممكن أن يصدر من كليهما تجاه الآخر، فكرًا وحركيةً؟

ألن تكون القضية الفلسطينية محور اهتمامهما، فيعرضان وجهات

النظر فيها؟ أليس في الإمكان أن يجتهدا في إنشاء اتحاد عالمي للعلماء؟ وكيف تكون مواصفات هذا الاتحاد؟ وأين يكون مقرُّه؟ وما هي مهمَّته؟ وما هو دور كلِّ واحد منهما فيه؟ ومَن -يا ترى- سيلتحق بهما؟

ألن يصف مالك بن نبي فتحَ الله بما يشبه هذا الوصف البليغ: "لم يكن الرجل [أي فتح الله] يتحدَّث عن ذات الله، كما صوَّرها علمُ الكلام، أي عن اللهِ العقليِّ، بل كان يتحدَّث عن الله الفعَّالِ لما يريد، المتجلِّي على عباده بالرحمة والقهر، تماما كما كان المسلمون الأوَّلون يستشعرون حضوره فيما بينهم، ونفحتَه الماديةَ في بدر وحنين. فالفكرة القرآنية تتجلَّى هنا [عند فتح الله] بأثرها المباشر على الضمير، وبتأثيرها في الأناسي والأشياء"[٤٩].

ثم ألن يصف فتحُ الله بالمقابل صديقه وصنوَه مالكا، بهذه العبارات الرقيقة: "إنَّه [أي مالك بن نبي] في خطِّ الحياة الممتدِّ على مدى فصولها من الحسِّ إلى الفكر، ثم إلى الحياة العملية، يتنفَّس النظام دوما، بحسِّ البناء والإنشاء أبدا. إنه وليُّ الحقِّ اللدنيِّ، الذي يُعِدُّ "قادة أركان" الروح، ومهندسي العقل، وعمَّالَ الفكر... ينفُخ بلا كلل نفَسَ البناء والإعمار فيمن حوله، ويرشِد أعوانه إلى سبل عمران الخرائب"؟[٥٠].

ألا يكون وصف ابن نبي لكُولَن باختصار، أنه: المجدِّد بالإيمان والقرآن. ثم، ألا يكون وصف كولن لمالك بن نبي، باختصار، أنه: مهندس الفكر والحركية.

---

[٤٩] وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص:١٤٨.

[٥٠] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٦٣.

الأحجية الخامسة: نحو جماعة علمية افتراضية

ألا يمكننا -بعد جملة من المطالعات- أن نقرِّر حكما، يحتاج إلى إثبات أكثر، وليكن مجرَّد افتراض، قد يتحوَّل إلى نظرية متكاملة، ونقولَ في هذا الحكم: إنَّ كولن قد فصَّل فيما أجمل فيه ابن نبي، وإنَّ ابن نبي قد فصَّل فيما أجمل فيه كولن.[٥١]

وبالتالي، فإنَّ جمع فكرِ الواحد منهما إلى فكر الآخَر، لا شكَّ سيولِّد بناءً حضاريًّا مثاليًّا؛ وبخاصَّة إذا أضفنا إليهما بعضَ الأسماء المتميِّزة، مثل: إقبال، وبيجوفيتش، ومهاتير، والمسيري، وشريعاتي، وجيفري لانغ؛ وقلنا حينها: إنَّ هؤلاء يكوِّنون "جماعةً علميَّة"، بمعناها الاصطلاحي، حتى وإن لم يكتب لهم أن يعملوا على صعيدٍ واحد.

---

[٥١] لهذا الحكم العشرات من الأمثلة، رصدتُ بعضها، والمقام لا يسمح بعرضها كاملة؛ لكن يكفي أن أذكر أنَّ مالك بن نبي يقرر أنَّ "نفس الفرد هي العنصر الجوهري في كل مشكلة اجتماعية" ثم يسأل: "كيف نغير هذه النفس؟".. ودعا إلى علم جديد لم يوجد له اسم بعد، هو "علم تجديد الصلة بالله" (وجهة العالم الإسلامي،ص:٤٨). فمالك بن نبي أجمل في هذه النقطة الهامة جدا؛ ولقد فصَّل كولن أيما تفصيل فيها، في جميع مؤلفاته، وبخاصة "ونحن نقيم صرح الروح".

كما أنَّ كولن كثيرا ما أشار مجمِلا إلى الشرور التي تنقل من الغرب إلى الشرق، عبر الفلسفات والعلوم وعن فشل الأيديولوجيات؛ ومما قال في ذلك: "لم نعرف حتى اليوم أيديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنا طويلاً، بل لم نعرف أيديولوجية اكتشفت كلَّ الضرورات اللازمة التي يتطلّبها جمع البشر تحت سقف واحد. ومع الادعاءات الباهرة، لم تستطع الدول الغربية التي هيمنت على قسم واسع من الأرض في التاريخ القريب أن تحقق الأمان والحبور الدائم للعالم، ولا الشعوب الاشتراكية والشيوعية في الشرق..." (ونحن نبني حضارتنا (مقال: رسالة الإحياء)، فتح الله كولن، ص:٣٦). ولقد فصل مالك بن نبي بوضوح في هذه القضية الهامة، في أغلب كتبه، بل هي محور إشكالية الحضارة عنده.

والمعلوم أنَّ "الجماعة العلمية" تؤسَّس على ضوء "أزمة معرفية"، وعلى خُطى "همّ حضاريّ مشترَك"، يعجز "النموذج والبراديم المهيمِن" عن الإجابة عنها، ثم تشتد هذه الأزمة، ويكبر هذا الهمُّ؛ فيشارك في الإجابة عليه أعضاء "الجماعة العلميَّة"، إلى أن يبزغ "البراديم البديل"، وينالَ المكانة والهيبة والقبول؛ ثم ما يلبث أن يتحوَّل إلى "نموذج مهيمِن" بعد حين... وهكذا؟

ولقد قصدت هذا المزج، بين هذه المعالم الفكرية في العالم الإسلامي، يوم كتبت مقالي: "الحفر بحثا عن المنظومة"، وانتهيت بعد عملية الحفر إلى تأسيس مرجعية متناغمة، تبدأ بابن نبي، وتنتهي بكولن.

هل في المقدور، ضمن علاقتنا نحن الباحثين المنتمين إلى مختلف "الأوعية الحضارية، والأنسجة الحضارية"، أن نطرح "صورة" لجماعة علمية تتكوَّن من الأعلام المذكورة أسماؤهم ابتداء، وتنتقل منهم إلى من سار على خطِّهم، ثم نحسِنُ بعد ذلك عرضَ هذه الصورة، والدفاعَ عنها، لا باعتبارها الأفضل والأمثل، ولكن باعتبارها محاولة من أنجح المحاولات؛ ونكون بذلك قد أسدينا معروفا لأمَّتنا، دون أن نغرق في "الشخصنَة"، ودون أن نسوِّق "للكاريزماتية"، و"الزعامة الفردية"؛ وهو أمرٌ يمجُّه الرجلان، محلَّ البحث والمقارنة، ولهما في ذلك نصوص كثيرة.

أمَّا مالك بن نبي، وهو الذي شقي دفاعًا عن فكره،[٥٢] وتنعَّم العالم الإسلامي بنورياته ولا يزال، فيقول: "وهكذا ننتقل من وهمٍّ لنتخبَّط في وهم، ولا ندري كم من السنين سوف نقضِّيها لندرك عجز الأشياء الوحيدة

---

[٥٢] لفهم طبيعة هذه المعاناة، ينظر مذكرات ابن نبي، باللغة الفرنسية، وبخاصة قسم "العفن"، Pourriture (١٩٥٦م).

عن حلِّ المشكلات... إنما لا يجوز لنا أن يظلَّ سيرنا نحو الحضارة فوضويًّا يستغلُّه الرجل الواحد، أو يضلِّله الشيء الواحد، بل ليكن سيرنا علميًّا عقليًّا حتى نرى أنَّ الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفَّقة، ولا مظاهِر خلاَّبة، وليست الشيءَ الوحيد، بل هي جوهرٌ ينتظم جميع أشيائها وأفكارها وأرواحها ومظاهرها، وقطبٌ يتجه نحوه تاريخ الإنسانية".

وأمَّا كولن، الذي تفانى وتفنَّن في نكران ذاته، فقد أبدع في هذا المضمار وكتب من جملة ما كتب مقالا بعنوان "نكران الذات والمدد الرباني"، مما جاء فيه: "ينبغي أن نقنع "أنفسنا" أنه ليس لنا يدٌ في حصول هذا الخير العميم. فالنجاح كل النجاح لطف من الله وفضل من لدنه وإحسان. فإذا آمنّا بذلك فقد جنّبنا أنفسَنا شوائبَ الشرك، وأنجيناها من الأوهام التي تظَل النفسُ تَضُخّها في دواخلنا لكي تضخّم أنانيتنا. بل يحسن أن نقول: "في الحقيقة، لو لم أُقحِمْ نفسي في هذا الأمر، لوجد له رجالا خيرا مني في إخلاصهم وصدق تمثيلهم، ولقطعتْ القافلةُ مسافات واسعةً أضعافَ ما قطعتْه حتى اليوم. وا أسفاه، فلولا كدورة نفسي لتجلّى المددُ الإلهي وفق صفائه المقدس على الخدمة الإيمانية. واحسرتاه، فقد ارتطمت تجلياته بفيروسات أنانيتي وتحطمت على ضعفي وسيئاتي. أجل بسببي أنا تعثرنا وتأخرنا عن المواقع التي قصدناها، وابتعدنا عن المراقي التي حلمنا بها". بل ينبغي تكرار هذا السؤال: يا نفس، كم إنسانا قتلتِ حتى اليوم!؟.. كم إنسانا كان يبحث عن الحقيقة فتعثّر بك وفقدها إلى الأبد!؟"[٥٣].

---

[٥٣] نكـران الذات والمدد الربّاني، فتح الله كولـن، مجلة حراء، العدد: ٢٤ (ماي-يونيو ٢٠١١) ص:٣٢-٣٣.

إذن، الفكرة والمقترح مؤسَّسان ابتداء في فكرِ الرجلين؛ ويبقى لنا، نحن الخلف، أن نحسن التصرُّف، ونُحدث الآليات الفعَّالة لذلك، فنكونَ بذلك قد أجبنا على إحدى أعقد الأحجيات في إشكالية الحضارة اليوم.

خاتمة: لكَ أو لأخيك أو للذئب!

عقد هذا البحث مقارنةً أولية بين فكر العالمين المجدِّدين: مالك بن نبي وفتح الله كولن؛ وهي في الأساس تعمل على ترسيخ منطلقات لاستفادة العالم العربي من تجربة الخدمة، ومن فكر الأستاذ، بأسلوب سلس متقبَّل، دون أن يُحدث ضجة، أو أن يعرَض على سبيل الوصاية؛ إذ كلُّ هذه الأساليب منافية لروح البراديم كولن؛ تلك الروح المبنية ابتداء على "الشفقة"، وعلى "الرحمة"، وعلى "الحكمة"، وعلى "المرحلية"، من غير إغفال "التخطيط"، و"الحركية"، و"الفعل"، و"الفعالية"؛ ولكلِّ عنوان من هذه العناوين أصوله من القرآن الكريم، والسنة الشريفة، والسيرة النبوية العطرة؛ ثم إنَّ لها أمثلة في التراث الإسلامي العريق، وفي تجربة البشرية بكلّ مشاربها إلى يوم الناس هذا؛ ولقد كتب الأستاذ في كلِّ عنوان من تلكم العناوين مقالات، وألقى محاضرات، ونحت مفاهيم، وأبدع آليات؛ حتى صارت علامةً مسجَّلة أو "ماركة" على الخدمة، إذا ذكرت تُذكِّرت، وإذا غابت انتفت أن تكون هي هي.

ولذا أرى من المناسب أن أستنبط جملة من الأفكار، والقواعد، والقوانين، والخطوات العملية، والتطبيقات، والبرامج... لعلَّها تسهم، ولو بنزر يسير في إذابة بعض الجليد الوهميّ بين شمال البحر الأبيض المتوسط المسلم، وجنوبه المسلم؛ بعيدًا عن العقد التاريخية المفتعَلة،

والصور النمطية المفبرَكة، والأحكام القبلية الملغَّمة؛ وسنكتشف أخيرا أنَّ هذه التجربة هي تجربتنا، وأنها لنا، وأننا لها، وأنها من ذاتنا، ومن خصوصياتنا، لا يفرقنا عنها فارق.

ولقد قال أبو عبيد الله الزواوي لخير الدين بربروس، يوم عزَم على مغادرة الجزائر، بعدما ساهم في حمايتها من الإسبان، قال له: "الجزائر لك، أو لأخيك، أو للذئب"؛ مشيرا بذلك إلى الغارات الصليبية على شمال إفريقيا؛ واليوم كلُّ بلد من بلاد المسلمين هو مثل شاة هزيلة معرَّضة لأنياب الذئاب ومخالبها، إذا هي لم تلزم الجماعة، وإذا لم تعتصم بحبل الله جنبا إلى جنب مع البلاد الأخرى؛ ولقد صدق الله العظيم القائل: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(الأنفال:٤٦)، وصدق الرسول الكريم القائل: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» (رواه أبو داود).

وجملة النقاط المستنبطة هي:

١-إذا أجريت مقارنات بين فتح الله كولن وغيره من علماء ومفكري ومجددي العالم الإسلامي، لتكن في إطار الوعاء الحضاري، والنسيج الحضاري، أي باعتبار السياق؛ وإلاَّ كانت مبتورة ظالمة.

٢-يرفض في المقارنة اعتماد المنهج المختزل الانتقائيِّ، وكذا منهج دراسات الأثر؛ بل الواجب هو البحث عن مناهج أكثر فعالية وحركية وعلمية.

٣-يجب الاجتهاد، إلى إنشاء "جماعة علمية"، تكون جسرا بين "البراديم كولن ومشروع الخدمة" من جهة، والنخبة المثقفة في العالم العربي من جهة ثانية.

٤-نقترح اعتماد منهج "الأحجية العلمية"، أو ما يشبهه، مما يدفع إلى

استثارة السؤال، وتحريك الإشكال.

٥-في المقارنة بين عالمين أو أكثر، نحاول أن نستبدل الأدوار بينهم، وننظر في الأسباب الداخلية والخارجية التي أسهمت في صقل مواهبهم، وفي بلورة مواقفهم؛ بهذا الأسلوب يمكننا فهمُ الغامض والمخفيِّ من أسباب الفكر والحركية.

٦-نقترح إعداد بحثٍ أكاديمي بعنوان: "مالك بن نبي التركي، وفتح الله كولن الجزائري"، ولا شكَّ أنه سيكون مثيرًا ومفيدًا وفعَّالا.

٧-بين نظرية القابلية للاستعمار، لمالك بن نبي؛ وحوار الحضارات، الذي أسسه فتح الله كولن؛ ما يشبه التعارض، أو على الأقل، الصعوبة في الجمع بينهما؛ فهل في الإمكان إجراء بحوث تقارن بين الفكرتين، وترجِّح أيهما أليق للمسلمين في هذا العصر، بالذات؟

٨-بين فكر ابن بني، المؤسِّس لفقه الثورة؛، وفكر كولن، الداعي إلى ثورات من نوع جديد، نسأل: أيُّ الفكرين أصلح للعالم العربي اليومَ؛ وبخاصة في عهد الثورات على الداخل؟

٩-من الحكمة أن نجتهد في عرض فكر فتح الله بصورة يفهمها الشاب المسلم ويستوعبها، وأن لا نبقى محلِّقين في سماء التنظير، مخاطبين المثقفين والعلماء فقط؛ من هنا تأتي الدعوة إلى أعمال وكتابات ومشاريع تيسيريةٍ توضيحية عميقة، بشتى اللغات والأساليب، تخاطب هؤلاء الشباب: القلقين معرفيا، المستشكلين منهجيا، المستعدّين نفسيا، المتوقِّدين فكريا، الذين ينتظرون التوجيه والإرشاد، ورسم خطِّ السير بحكمة وحنكة وذكاء.

١٠-إنَّ كولن قد فصَّل فيما أجمل فيه ابن نبي، وإنَّ ابن نبي قد فصَّل

فيما أجمل فيه كولن: هذا حكم أولي، بل هو شبه أطروحة تولَّدت من التفاعل المستمرِّ مع الفكرين؛ ولذا أجده بحثا عميقا، يعِد بنتائج مفيدة وبديعة، لو كتب الله إنجازه.

١١-عود على بدأ: المنتظر على ضوء هذه المقارنة المختلِفة، أن ننتهي برسم صورة لجماعةٍ علمية، ووضعِ أسس لعملها، وللخطوط العريضة التي تجمعها. وإلاَّ، فالعلم ما لم يكن اجتهادا لن يعدو أن يكون محض ادِّعاء، والأمَّةُ ما لم يَصُغ فكرَها، ويخططْ مسيرها ومصيرها، رجالٌ علماء مخلصون، هي عرضة لكلِّ الهزات والنكبات والويلات.




القسم الرابع

الأكاديميا والجماعة العلمية

- الأكاديميا، باعتبارها جماعة علمية
- منهج الدرس والتدريس في حلق الأستاذ فتح الله كولن بين مصادر المعرفة وموارد العرفان
- قائمة الكتب التي درَّسها الأستاذ
- الصورة القلمية للأكاديميا المنشودة
- قائمة مؤلفات الأستاذ فتح الله كولن

الأكاديميا، باعتبارها جماعة علمية

يعالج "علم اجتماع العلوم" "الجماعات العلمية"[1] باعتبارها مجتمعات بشرية، ويمارس في تحليلها نظريات علم الاجتماع؛ ولعلَّ كتاب "ميشال دوبوَا"، المعنون بـ"مدخل إلى علم اجتماع العلوم" يُعدُّ مثالا حيا لهذا الحقل المعرفيِّ الخصب.

ولو أنَّ باحثا متخصِّصا أراد دراسة "الأكاديميا" باعتبارها "جماعة علمية"، معتمدًا مناهج هذا العلم في صورتها الكلاسيكية، لوقع في مفارقات لا حدَّ لها، ولاختلطت عليه المفاهيم قبل المناهج؛ وما

---

(1) يعرف ميشال دوبوا "الجماعة العلمية" بقوله: «لا يكتفي أن ندَّعي أننا علماء حتى يتمَّ الاعتراف بنا بصفتنا علماء. أن تكون عالما يعني أن تنتمي إلى كلٍّ اجتماعيّ مشكَّل من مجموع الفاعلين، الفرديين أو الجماعيين، في الاستقصاء العلمي: أيٍ "الجماعةً العلمية"» ثم يتساءل: "لكن ماذا يعني أن تكون منتسبا إلى الجماعة العلمية؟". ويجيب:

"أولا: أن تنتمي إلى "نسق اجتماعي"، مؤسسة محدَّدة، يمكن تمييزها عن بقية المؤسسات الاجتماعية.

ثانيا: أن يتم اختيارك وإدماجك في نسق يقيم فاعلوه علاقات ترابط وفق طرائق تتوافق مع مبادئ معيارية مخصوصة.

ثالثا: وهو يعني أخيرا، أنك موضوع لمراقبة اجتماعية»

والمصطلحات المفتاحية للجماعة العلمية وفق تراث مرتون هي: مؤسسة (Institution)، ودور (Rôle)، ومران (Apprentissage)، ومعايير (Normes)، ومراقبة اجتماعية (Contrôle social). (انظر: دوبوا، مدخل إلى علم اجتماع العلوم، ص:١١٣).

ذلك إلاَّ للهوَّة التي تفرُق بين الجماعات العلمية "بمنظورها الغربي"، و"الأكاديميا" التي لا تخضع بالضرورة إلى هذا المنظور؛ والفرق لا يكمن في البعد النفسيِّ والاجتماعيِّ فقط، لكنَّه يتجاوز إلى الأبعاد المعرفية الإبستمولوجية، والقيمية المعيارية، بالخصوص... أي إنَّ نقطة الاختلاف ترتكز على جوهر الظاهرة وأساسها، لا على مجرَّد مظهرها وشكلها...

أروع عنوان لهذه الجماعة العلمية المختلفة، هو نفسه عنوانٌ لمقالٍ نشر في مجلة "حراء"، بقلم الأستاذ فتح الله، بعنوان: "حركة نماذجها من ذاتها"[٢].

ثم إنَّ الميزة البارزة لهذا المثال البديع تتجلَّى من وصف الأستاذ في قوله: "مَن يدري! فقد يتحقَّق في المستقبل القريب، بفضل هؤلاء المخلصين الناذرين أنفسهم لفكر البعث والإحياء، تأسيسُ الصلح بين العقل والقلب مرَّة أخرى.. فيكون كلٌّ من الوجدان والمنطق أحدهما بُعدًا مختلفًا للآخَر، وتوضع نهاية للنزاع بين ما هو مادّيٌّ وما هو ميتافيزيقيٌّ، حيث ينسحب كلٌّ منهما لساحته، ويجري كلٌّ شيء في طبيعته وماهيته، ويجد إمكانية التعبير عن نفسه وعن صور جماله بلسانه"[٣].

قد يعترض معترض بقوله: "إنما يصف الأستاذ هنا تلك الفئة القليلة التي "ملك الحبُّ قلبها"، فقرَّرت "أن تنطلق لنيل رضاه تعالى إلى المشرق وإلى المغرب، وإلى أرجاء الأرض جميعًا" مهاجِرةً مجاهدةً، لا تلوي على أحد.

---

[٢] مجلة "حراء، العدد:١٣ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

[٣] مقال "حركة نماذجها من ذاتها"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٣ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

لكني أستدرك، وأقول: "هذا الوصف بعينه يليق بجنود "الأكاديميا" وقادتِها، كما يليق بأولئك المهاجرين المجاهِدين؛ فهؤلاء مهاجرون معنويًّا، وهم يبتغون نيل رضوان الله تعالى، ثم هم مسافرون في الآفاق عبر العالم، بفكرهم وجهدهم وأثرهم، حتى وإن بدت أجسامهم مستقرَّة في مكانها".

إذن، لا سبيل للاعتراض هاهنا...

* * *

مِن شرفة مكتبي بالأكاديميا، الطابقُ الثالث، أطلُّ على مسجد عثمانيِّ اللمسات، بمئذنته الشامخة؛ ومن بعيد... عبر غابات "شَامْلِيجا" الصنوبرية، أسرح بالعين في سفوح "البوسفور" البلَّورية، وأتأمَّل بهدوء حركة الناس على جسر معلَّق جميل... جسرٍ يحمل الأجسام ويحمل الأحلام، يعبره العابرون: بعضُهم يتجرَّع الآلام، وآخرون يكادون يطوون الأرض بالآمال...

هذه الإطلالة، وهذا التأمُّل، طوَّر فيَّ فكرة "الرصد"، التي كانت -فيما يبدو- بذرة لـ"نموذج المنطاد"[٤]، إذ للعلوِّ المكانيّ أثر وأيُّ أثر... ودليلُ ذلك أني التزمتُ، من هذا "المرصد المعرفيِّ"، كتابةَ خاطرة مكثَّفة كلَّ أسبوع، بعنوان "نسمات البوسفور"، لتُنشر كلَّ ليلة جمعة في موقع "فيكوس"... ولا أدري هل بلَّغت المقصود، أم أنها تستمدُّ العجزَ من عجزي، وتصطبغ بصبغة ضعفي؟!

ثم آية ذلكم الاكتشاف، أنَّ القلب استجاب لتجليات الجمال، وأنَّ

---

[٤] نموذج المنطاد: نموذج معرفيٌّ، يعالج نظرية المعرفة، والرؤية الكونية، عند الأستاذ فتح الله كولن مثالاً؛ شرعتُ فيه، ولا أزال في بداياته؛ ومما يعالج: الإدراك، ومصادر المعرفة، والرؤية الشمولية...الخ..

العقل لمس عرف الجلال؛ فخطَّت الأنامل محاولات فكريةً معرفية، تلامس من طرفٍ خفي الأدب، ولا تدَّعي أنها أدبية... من ذلك يُذكر: "معلِّمتي... ورقة الخريف"، و"زخَّات الثلج الأولى"، و"رسالة إلى الريح الصقيع"، "وحبيبتي اللالة"... وغيرها كثير.

من هذا المكتب المعلَّق، بنظرة معرفية عقلية ووجدانية، أرصد "الأكاديميا"، نموذجا ومثالا لما قد يسمّيه البعض "مركزَ تفكير"، ويسمِّيه آخرون "الجامعة البحثية"، ويقول البعض عنه إنّه "جماعة علمية"... تتعدَّد الأسماء وتتلوَّن، والمسمَّى هو عينُه، إنَّه "الأكاديميا"، كما هي عليه، على حقيقتها... لمن يعشَق الحقيقة على علاتها، يتشرَّبها بقلبه ووجدانه، ويعانقها بعقله وفكره.

١-الوادي المقدَّس

أحسب أنَّ نزع الحذاء في مدخل "الأكاديميا" يحمل دلالة ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٢-١٤).

لا أعرف مصدرا واحدا عالج مراكز البحث العلميّ، بل وحتى الجامعات، اليومَ، بصيغتها المعاصرة، باعتبارها "واديا مقدَّسا"... إذ إنَّ خلع الحذاء، مثل التجرُّد من اللباس المخيط والمحيط في الحجِّ، يشير إلى ضرورة إظهار الخشوع والتواضع، ويدعو إلى إلغاء مظاهر الفروق والرتب، شكلا ومعنى... فـ"خلْع النعل" هنا، في الأكاديميا، عنوان التجرُّد من الارتباطات والعلاقات الأرضية، وشعارُ التنصل من الأوساخ والمتعلقات الدونية، ماديا ومعنويا؛ ليكون المرء مؤهَّلا لاستقبال نور

السماء، نورِ الوحي... أمَّا مَن بقي عالقا بقاذوراته الدنيَّة، ملطَّخا بآثامه وذنوبه، فإنه لن يكون أبدا أهلا للمعرفة والعلم النافع، ولا سهلا للعرفان والعمل الصالح... فأبلغ وصف له، قوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾(الأَعْرَاف:١٧٦).

* * *

العلم، بعد "عصر التنوير"، بالمصطلح المألوف "المتحيّز" جدًّا، مرادفٌ لإنكار الدين، وثورةٌ على كلِّ دين؛ كما كان الدينُ، يوم انحرفت به القساوسة، عدوًّا للعقل والفكر، مناهضا للعلم والمعرفة... أمَّا هنا، في الأكاديميا، فإنَّ المياه تعود إلى مجاريها من جديد، بتوجيه من المرشد الخرِّيت، الأستاذ فتح الله كولن، في قوله: "إننا نراجع مختلف العلوم ونشرح ديننا بواسطتها؛ لأنَّ عقل الإنسانية الآن مرتبط بها. وأعداء الدين من أصحاب الفكر الماديِّ يحاولون استعمال العلم وسيلةً للإلحاد والإنكار.. لذا فنحن مضطُّرون لاستعمال السلاح نفسه لإزالة الأوهام والشبهات التي تجول في أذهان البعض من المخدوعين، وإثبات أنَّ العلم لا يناقض ولا يعادي الدين. وبعبارة أخرى فعلى عكس قيام المادّيين من أمثال "ماركس" و"أنجلز" و"لِينِين" بتقييم العلم وجعله واسطة للإنكار والإلحاد، فقد وجب علينا أن نستعمل العلم أداةَ إثبات وبرهنة على صحة الدين"[٥].

ومنهج "الوادي المقدس" يوجب -شرعا وفقها- أن يكون العلمُ لأجل الوصول إلى اليقين في الله تعالى، وأن يكون اليقين محفِّزا شاحذا للهمَّة السامقة، مِن أجل اكتساب العلم النافع؛ في تداول حلزوني لثلاثية (العلم-

[٥] أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:١٨٥.

اليقين-العمل)، وهذا مؤدَّى قوله سبحانه، في الآية آنفة الذكر: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾(طه:١٤)... أي هو منهج الشهادة والإشهاد...

ثم تأتي العبادات، في سياق الآية، بمعنى الشعائر: مِن إقامة الصلاة إلى غيرها، مما عرف بالعبادات في المصادر، لتكون ثمرة للتوحيد وللعلم، عكسَ ما يذهب كثير من الناس في تصرفاتهم، حين يعبدون ويقيمون شعائرهم، من صلاةٍ وزكاة، وصيام وحج... عادة وتقليدًا، لا إيمانا وإدراكا وفهما ويقينا، فتضيع العباداتُ من بين أيديهم، ويضيع المعنى من ثنايا فهرستهم...

إننا، هنا، لا ندافع عن العلم الرسميِ الأكاديميِ، ولا نكلِّف الناس ما لا يستطيعون... وإنما نعني بالعلم دلالتَه الشمولية، أي العلم القلبي الفطريَّ الفكريَّ، الموصل إلى معرفة الحقِ حقَّ المعرفة.

ناهيك عمَّن يحتقر العلم، ويُدني من مقامه، تحت مسمَّى "الدين والورع"، فيخفض ما رفع الله، ويُشقي الناس وهو يظنُّ أنه يسعدهم... وما ذاك بالمسلك السديد، وأيم الله.

أكاد أجزم أنَّ في ربوع "الأكاديميا" عقولاً كغيرها في مختلف المراكز عبر العالم، بل لعلَّ الكثير من المراكز العالمية، لأسباب معنوية أو مادية أو سياسية، تأوي عقولاً جبَّارة، وتصطاد علماء أفذاذًا، مِن مختلف بقاع العالم، وهو ما لم يتسنَّ -بعدُ- للأكاديميا، إلى حدِّ اليوم، أو لعلَّ المنظِّرين لها فضَّلوا منهج "الفسيلة" رغم ما يحمله من أعباء، على منهج استيراد "الشجر" أو "الثمر"، مع ما فيه من نتائج آنية، واضحة للعيان، لمن أراد الاستعجال، وآثر الطبخة الفورية.

فالفرق إذن بين الأكاديميا وغيرها من مراكز البحث لا يكمن في نوعية

العقول؛ وإنما تصنعه أسبابٌ أخرى، خارج الأسباب المادية الكمية، وهي:

- غاية العلم، أي الإيمان بالله، وابتغاء رضوانه.
- الخلُق النادر المثال... بما قد نسميه: "الخلق الأحمدي".
- الانسياب والسلاسة، في حركية الجماعة.
- مفهوم الهجرة، الصابغ لكلِّ فكر وفعل.
- رهافة الحس، والذوق الفني.

أنا اليوم محلِّلٍ للظاهرة من داخلها، ولا يعنيني في شيء أن يوصف هذا الإجراء بالذاتية أو الموضوعية؛ لكن الذي يهمُّني هو أن أكون "صادقا" أو "غير صادق"، ومن هنا أجد الدليل، والحكم، والعلم... وكلَّ ما يمتُّ إلى ذلك من سياق، مثل النظريات، والعلوم، والتخصصات... لا يستقيم بما عُرف عند الوضعيين معيارا للتمييز، من أنه "التصديق"، ولا حتى بما أبدع فيه "كارل بوبر" من كونه "القابلية للتفنيد"؛ وإنما معيار التمييز من خلال هذا البحث أو غيره، هو "الصدق"، وهو "القابلية للصدق"... وليس "التصديق"؛ فشتان بين الصدق الذي هو معيارٌ قيميٌّ، من مصدر "فوق بشري" مطلقٍ، غير نسبي، خالد خلود الحقيقة؛ وبين التصديق الذي يخضع لمسارات منهجية بشرية منطقية، أو حتى خلُقية نفسية اعتبارية.

الصدق معيارٌ من صياغة الوحي، الذي ينكره العلم الوضعيُّ ابتداء، أمَّا المنظومة الإسلامية فتتخذه مرجعا لكلِّ فكر وفعل، قال تعالى واصفا نبيه الكريم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾(الزُّمَر:٣٣).

٢-الخلُق النادر المثال (الخلق الأحمدي)

يأتي في المقام الثاني، بعد التوحيد والإيمان، في أسباب إدارة

الجماعات العلمية، ما يُعرف بالخلق أو الأخلاق، بما في ذلك "الأخلاق المدنية"؛ لكن شريطة أن تكون ظلاً "للأخلاق الكلية"، وأن يكونا كلاهما تمثلا "للغاية" وإنزالا لها على أرض الواقع، بمبدأ "تمثُّل أسماء الله الحسنى وصفاته العليا"، وبمؤدى: «تخلَّقوا بأخلاق الله».

كلُّ من يدخل "الأكاديميا"، ضيفًا كان أم باحثا، أم موظَّفا، يجد نفسه مع حواريين نفَوا ذواتهم، ودفنوا أنانياتهم، فهم بمدلول "الخدمة"، يخدمون وهم مبتسمون، لا تغادرُ الكلمة الطيبة لحظةً شفاههم، فيستحيل أن تصادف أحدَهم غاضبا أو ناقما أو عبوسا؛ وهم إنما يأتون ما يأتون لا لمصلحةٍ، ولا بمقتضى الوظيف ومستلزمات فنِّ الإدارة، أو سلْفًا لأحدٍ حتى يعيده بعد حين، أو تكلُّفا، والله لا يحب المتكلِّفين؛ وإنما هذه الخلال سجيَّةٌ فيهم؛ هي طبعٌ قد جاوز حدَّ التطبُّع. ومِن ثمَّ، ولست في هذا السياق أصف وأشرح أخلاقَ هؤلاء، وإنما أحاول ربط بُعدها بفنِّ ممارسة "الجماعة العلمية"... مِن ثمَّ، يجد هذا المرتاد "للأكاديميا" صفاءً على "صفحة قلبِه"، فتتوفَّز سريرته للتفكير السليم، ويزول كلُّ انقباض نفسيٍّ منه، ليحلَّ محلَّه الانشراح والانبساط، فتأتي أفكاره، وقراءاته، وكتاباته... انعكاسا لمرآة قلبه، وظلا لحقيقة روحه.

وأحسب أنَّ هذا الجانب الأخلاقيَّ الخطير، وهذه العلاقة القيميَّة العميقة، بين شفافية القلب ونتاج العقل، مِن معرفةٍ وعلمٍ، أحسب أنَّ القرآن الكريم قد عالجه، ودفع إلى التبحُّر فيه، في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾(البَقَرَة:٢٨٢)، وقوله: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فَاطِر:٢٨)... فهي إذن علاقة متكافئة، ثنائية الاتجاه بين العلم والتقوى، شريطة أن لا يُقصر العلم في جانبه التجريبي الماديِّ فقط، وأن لا

تُحصر التقوى في الشعائر وكفى؛ بهذا يكون العلم سببًا للتقوى والخشيةِ من الله، ويكون الإيمان والتقوى بابًا للعلم؛ في حركة مباركة ولود.

ولقد نبه علماء التصوُّف[٦] إلى مثل هذه العلاقة، وأبدعوا في ذلك أيما إبداع، لكنَّ البعض منهم راح بعد ذلك يقصر العلم في ذات التقوى والإيمان، ويلغي كلَّ علم آخر، ماديٍّ كان أم حضاريٍّ، فضيَّع الفرصة على الأمَّة لاكتشاف سرٍّ لا تزال البشرية تفتقده إلى اليوم؛ غير أنَّ ما كان عليه علماء فطاحل أمثال "ابن سينا، والفارابي، والرازي، والجزري..."، أظنه مِن هذا المقام السامق، لو أنَّ تاريخ العلوم، ونظرية المعرفة، والرؤية الكونية... لقيت منا البحث والتحليل الذاتي اللائق.

٣-الانسياب والسلاسة

أمَّا السبب الثالث الذي يميز "الأكاديميا" عن غيرها من "التجمعات العلمية" التقليدية، فهو وثيق الصلة بالعمل الجماعي، وبفنِّ إدارة الجماعات، والذي تم تطويره -في هذا العصر- بمقاربتين اثنتين، هما:

- المقاربة الغربية-الأمريكية.
- المقاربة الشرقية-اليابانية.

ولكلِّ مقاربة خاصيتُها ومنطلقاتها، وأساليبها وآلياتها، ومناهجها

[٦] مثال ذلك قول الإمام القشيري في لطائف الإشارات: "أكرم الله الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره؛ لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفيِّ رموزه، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحقُّ ﷻ يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون".

وطرقها... ولقد أسهبت البحوث والدراسات في تحليل المقاربتين تحليلا عميقا، وقامت بحوثٌ أخرى بالمقارنة بينهما، لعلَّ عالم الاجتماع الأمريكي "إدوارد هول" في كتابيه "رقصة الحياة، زمن معاش زمن ثقافي"، و"اللغة الصامتة"، وكذا في كتبه الأخرى، قد لامسَ بعمقٍ الفروق بين السياقين والثقافتين بالخصوص.

أمَّا في الفكر الإسلامي المعاصر، فثمة انفصام وانفصال، بين النظر والفعل:

فمن جهةٍ نطالع ما يؤلَّف في تفسير معاني "الوحدة"، و"التنازع"، و"الاختلاف"، و"البنيان المرصوص"، و"السفينة"... ونقرأ الآيات والأحاديث، والنصوص الواردة في معنى "الجماعة"، و"الأمة"، حتى ما كان منها بمقاربة فقهية أو أصولية، مما عرف "بالاجتهاد الجماعي"...

ومِن جهة أخرى، نشهد ممارسات ثقافية وسياسية تكتيكية، لا تمتُّ بصلة إلى الجذور المعرفية، ولا إلى "فقه الجماعة" باعتباره منطلقا معرفيا، إسلاميا، قرآنيا، بشريا... أي أنه توجيهٌ، ورسمُ خريطةٍ، لكلِّ تجمُّع بشري، سواء أكان ذلكم التجمع علميًّا أم وظيفيًّا أم اجتماعيًّا، مهما كان نوعه، ومهما كانت صفته... الثابت الوحيد، إذن، هو أنَّ القطيعة في واقعنا المترنِّح مستحكمة قاهرة.

"الأكاديميا"، من خلال فكر الأستاذ فتح الله ورؤاه التجديدية، هي رسم وصورة وتمثُّل "للطابق الخامس"، الذي رعاه على عينه وبعنايته، ولا يزال، حتى إنه غيَّر المكان، وتغيَّرت الحال، وتبدلت الظروف، إلاَّ أنَّه لم يترك الدرس يومًا، ولم يغب عن التفقيه ساعة.

ولقد صاغ الأستاذ مفاهيم "الجماعة العلمية" ضمن مسيرة "الطابق

الخامس"، وأوضح منطلقاتها، وحدَّد أبعادها، وخطَّط أهدافها وغاياتها... فجاءت تلكم "الجماعة العلمية"، من منظور "حركية الجماعة"، ذات خاصية سلسةٍ منسابةٍ، لا اهتزاز فيها، فلا هي من نوع "التنظيم الإدراي، العلميِّ، الجافِّ"، أي المؤسَّس على "نمطٍ تعاقديٍّ" صارم؛ ولا هي من طينة "الجمعية، والاجتماع، الشرقيِّ، المفتوحِ، والمتسامح، والمتحرك على وقع الاعتبارات، أي المؤسَّس على "نمط تراحميٍّ" فضفاض؛ وإنما هو نمط آخر، صغتُ له عنوانا، في مقال كتبتُه، وهو: "نمط الثالث الموضوع"[٧].

فمِن حيث سلَّم الوظائف والمسؤوليات، وتقسيم المهام والمهمَّات، ومن حيث فعالية نظام المعلومات، ومن حيث اعتماد التكوين الميدانيِّ التطبيقيِّ المستمرِّ آليةً للتطوير وشحذِ المهارات... ثم، من منظور الضبط والانضباط، والوضوح، والدقة، والمحاسبة، وتحمُّل المسؤولية دون أيِّ اعتبار... وكذا، بالنظر إلى نظام المكان والزمان، واحترام الخبرة والتخصُّص، واعتبار الملكات والدرَجات، وإصدار الأمر وقبوله (أدب الائتمار)... من جميع هذه الاعتبارات التعاقدية ظاهرًا، تبرز "الأكاديميا" معلَمًا، يليق بها أن تكون نموذجا ومثالا.

أمَّا من حيث تقوى الله وخشيته، والمرونة والاحترام، والتفاني والتضحية، والقول الطيب، والفعل الحسن... أي من جهة أعمال القلوب: من حبٍّ، ونصح، ورقة، وشفقة، وعطف، وتعاون، وسماحة... وكلِّ ما يجمل وصفه من خلق حسن، وفعل صالح... من هذه الجهة، "الأكاديميا"

---

(٧) انظر ص: ١١١ من هذا الكتاب.

هي ربيعه ووروده، وهي سنامه وذروته... فكلمات مثل "أستاذي"، و"آبي"... ثم التحية الحيية، والابتسامة الصادقة، والنافعية، والخدمة اللامتناهية... كلُّ ذلك يأسر القلب، فيغمره بالحبِّ والأريحية... ليكون للعلم مطارا وميناء... فيأتي على إثره الحرفُ والكلمة، والعبارة والفكرة... شفَّافةً، هفهافة، نورانية، ملائكية...

لا شكَّ أنَّ هذه الخاصية مستقاة من القرآن الكريم، ومن المنهج النبويِّ الشريف، رائدها ومبدعها وجامع أسبابها جمعا مطلقا، هو سيد الوجود، ونور الكائنات، محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة، وأزكى السلام... الذي يقول عنه رب الجلال والإكرام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القَلَم:٤)، ثم يقول: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آلِ عِمْرَان:١٥٩).

ولا بدَّ لعلم الأخلاق في الفكر الإسلامي المعاصِر أن يتقدَّم خطوة، من حيث التفسير والتأويل والتنزيل، وذلك بالتبحُّر في عوالم العلم والمعرفة... تنظيريًّا، وعمليًّا، وفنيًّا، وتقنيًّا، وتطبيقيًّا... لا بمجرَّد تأليف كتبٍ سردية، وصْفية، عارضة للمحاسن... فالبشرية اليومَ ظامئة، ومَن يملك الماء أحيانا، يضِنُّ به، أو يحمله بين جنبه وهو لا يدري قدره وقيمته... فيموت عطشًا، ويموت الخلق جراءه جهلا وضلالة.

٤-مفهوم الهجرة، صبغة الأكاديميا

شحذتُ همَّتي، واستفرغت وسعي، متسائلا، باحثا عن الصبغة التي لا تخطئ أحدا في الأكاديميا؛ ولقد كانت "الخدمة" هي الصبغة الظاهرة الماثلة للعيان والمعلَنة في المحافل والزيارات؛ غير أني لم

أستسلم للاختزال، ولم أشأ أن أردِّد نفس ما يتكرَّر، لا لكونه خطأ، لكن لاعتقادي أنَّ لكلِّ نتيجة سببًا، وأنَّ لكلِّ سبب أسبابًا... إلى أن تنتهي عند مسبِّب الأسباب جَلَّ جَلَالُهُ بلا شريك، عند الحقِّ عزَّ شأنه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾(هود:١٢٣).

واصلتُ التنقيب عن صبغة قد تكون بذات العمق، فتبدَّت لي ثلاثة مصطلحات: "الإيمان، والجهاد، والهجرة"، ومن حسن المخرج أني قرأت نصًّا للأستاذ فتح الله بعنوان "الرحلة المباركة"، يقول فيه: "وعادةً ما يتمُّ ذكر ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد باعتبارها أركانا مختلفة لحقيقة واحدة"، وبالخصوص في القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(الأنفال:٧٢).

فرأيت الاقتصار على وجه واحد من وجوه هذه الحقيقة الناصعة الناصحة، يكون عنوانا للأوجه الأخرى، ولقد تيقنت من مدخل "نظرية المعرفة" أنَّ الهجرة هي الباب والمدخل اللائق، الشامل، الدقيق، لمثل مقامنا هذا...

فعند فرسان "الأكاديميا"، كما لدى شباب "الخدمة" عبرَ العالم، خطُّ "الهجرة"، وإيقاع الهجرة، يَسِم الجميع، ويرسم حضوره في جميع الحركات والسكنات، فالكلُّ مهاجر، والجميع معتقد ذلك، ليس هذا من قبيل المبالغة؛ إذ المبالغة نوعٌ من الكذب والتزييف، ولا هو من قبيل المدح؛ لأنَّ المادح ممقوت؛ وإنما هي حقيقة أشاهدها وأشهدها صباح مساء، عيانا.

قد يسأل سائل، وحقَّ له أن يسأل: "ما هو دليلك؟"

أقول، والله أعلم: دليلي، أنَّ الأستاذ فتح الله في بيان معنى الهجرة، ضمن مقال بعنوان "الطرق"، يقول: "الذين يخوضون هذا الطريق بعشق وشوق، والذين يسيرون وراء دليلهم، تصبح الجبال لهم قيعانا، ويصير الحزَن لهم سهلا"، إلى أن يقول عنهم: "ولا يمكن الحديثُ عن تعثُّرهم في الطريق، وكفِّهم عن السير، والنكوص على الأعقاب، والتقهقر إلى الوراء".

أمَّا الخلاصة في بيان صفة هؤلاء المهاجرين الأفذاذ، أنهم: "يسيرون من الخَلْق إلى الحقِّ، ولا يَحِيدون"[٨].

لو كتب الله تعالى لأحدٍ أن يسعد -كما سعدتُ- بأيام في حرم "الأكاديميا"، فإنَّ النوتة والإيقاع الذي سيغمره دومًا، هو السير الحثيث، والهرولة الدائبة "من الخَلْق إلى الحقِّ"، ثم العودةُ الصادقة، والأوبة الأبيَّة "من الحقِّ إلى الخلق"... سيرٌ وهرولة، ثم عودةٌ وأوبة، كحال الحاجِّ ساعيًّا بين الصفا والمروة، متعلِّقا بالحقِّ ذهابا وإيابا، قاصدا نفع الخلق غدوًّا ورواحًا... القلبُ منه متعلِّق بالحقِّ لا يحيد، وهو يحمل همَّ الخلق بنبض لا يبيد.

أمَّا عن العمل الجاد، بشوق وعشق، فلا يمكن حصرُ أمثلته ومظاهره، ولا أدلَّ على ذلك، من أنَّ الواحد من مهاجري هذا الصرح العلميِّ، تجده لا يفرِّق بين ليل ونهار، ولا بين حرٍّ وقرٍّ، فهم يصلون أوقاتهم وأحوالهم بنبض العمل والاجتهاد، صابرين محتسبين، فلا تسمع من أحدهم "أفًّا"

---

[٨] مصداقا لمقولة بديع الزمان النورسي، في الكلمة الرابعة والعشرون، الثمرة الخامسة؛ من الكلمات: "العبادة التي هي حبلُ الوصال، أو نقطة اتصال بين المبدأ والمنتهى، تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، ومن الخلق إلى الحقِّ، ومن الكثرة إلى الوحدانية، ومن المنتهى إلى المبدأ".

ولا "آهًا"، ولا "ليت" ولا "لو"... فلا ضجر، ولا اعتراض، وإنما هي الطمأنينة والهدوء، تغمرهم السعادة وهم يعرَقون، وتجمّلهم المودَّة وهم ينصَبون.

أمَّا عن "السير وراء الدليل"، فهؤلاء يضربون للبشرية، لا للمسلمين الآخرين فقط، أروعَ مثال، وأنصع مقال... إذ هم لا يفتقدون هذا الدليل الخرِّيت، الذي يتبدَّى في الشخصية المعنوية للخدمة، يضبط سمفونيته قائد ومرشد كبير، هو الأستاذ فتح الله كولن... بتخطيط منه، وتوجيه، ومراجعة، وملاحظة... يتلقَّفون كلَّ ذلك بصدور رحبة، وسواعد غير مفلولة... منصاعون هيّنون، منقادون ليّنون... لكن ليس في نمطية قاتلة، ولا إذابةٍ للذات وللخصوصية، بلا وعيٍ... ذلك أنَّ منهج الأستاذ، أساسًا، يثور على "التقليد"، ويحارب "القوالب الجاهزة"، ويمقت "التنظيمات الهرمية الكلاسيكية"... دافعا إلى المبادرة، والخصوصية، والذاتية... ويكاد لا يخلو مقال أو كتاب للأستاذ من التأكيد على هذا المنحى السليم.

ولقد ضرب فتح الله أروع مثال للهجرة، بهجرته، هو، إلى أمريكا؛ ومع ذلك نمت مشاريع "الخدمة"، ولم تنقطع، رغم غيابه المكانيِّ المباشر؛ إذ إنه حاضرٌ بعقله وقلبه ووجدانه. فهذه الصورة، وهذه التجربة نادرة المثال في فنِّ القيادة والإدارة المعاصرة، مشرقًا ومغربًا؛ وهي جديرة بتسليط الضوء، والبحث الحثيث، لاستجلاء أسرارها، وكشف أبعادها. والحقُّ أنَّها تجربة قيادية مثالية، مستوحاة من سيرة نور الخلق محمَّد ﷺ، ومن آثار صحابته الأفذاذ الكرام، عليهم أفضل الصلاة، وأزكى السلام.

وإنا لنعجب من تناغم جميع أفراد "الأكاديميا"، بلا أيِّ خلل، ولا أيِّ حقد أو حنق أو مَوجدةٍ، مما قد تشهده الجماعات العلمية النمطية؛ ذلك

أنَّ القلوب لانت، قبل أن تنشُط العقول... ولقد ورد وصف هذا الفنِّ من فنون الهجرة، في كتاب "العصر والجيل"، في مقال بعنوان "الهجرة النبوية"، ومما جاء في مستهلِّه: "الهجرة رحلةٌ لغاية مقدَّسة ولهدف جليلٍ وكبير... ومثل هذه الهجرة ترمي إلى تحقيق مثل هذا الهدف بمدٍّ وتقوية من العقيدة والعاطفة والفكر، وتغذية وعون منه. وبمقدار درجة الإخلاص في هذه الهجرة وعمقها، تكون مساوية ومعادلة لسياحة الإنسان في السماء"[٩].

الغايةُ المقدَّسة والهدف الجليل الكبير، والعقيدة والعاطفة والفكر، ثم درجة الإخلاص وعمقُه... هي عناوين أنشودة الهجرة في "الأكاديميا" خصوصا، والخدمة عموما.

ولو صدق العزم، وصفَا الفهم، لاجتهد روَّاد الأمَّة في غرس هذه المعاني الجليلة، وبذر تلكم القيم النبيلة، في جميع المؤسَّسات والتجمُّعات، وبالأخص في مؤسَّسات التربية والتعليم، بكلِّ مستوياتها، لكونها مشتلة الأمَّة، ومنبع حضارتها... وإلاَّ، فلو بقيت البرامج والمخطَّطات، آلاف السنين، تعالج الشكلَ، وتزيد في الرقم، وتحتفي بالعدد... تغيِّر المدير بالمدير، وتبدِّل الوزير بالوزير... ثم هي مع ذلك، تقدِّم الاعتبارات الجهوية، والمصلحية، والطائفية، على المقاييس العلمية والمعايير البحثية... لو بقيت برامجنا آلاف السنين على هذه الشاكلة، ولم تواجه الحقيقة كما هي.. أو حتى لو عمدت إلى استيراد نماذج غربية بحذافيرها؛ فإنَّ الفشل سيكون رأس مالها، والخيبة ستكون قدرها.

ومما يسجَّل بامتياز في "الأكاديميا"، أنَّ هذه الأبعاد السامية، وتلكم

---

[٩] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٩٥.

الدلالات الشامخة، لا تمارَس بأساليب خطابية، مدرسية، تلقينية... ولا تظهر في شكل لوائحَ، وبيانات، ومعلَّقات... لكنَّها تسري سريان الماء في الجذور، بشعار "ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتمُّ نتاجه"[١٠]...

٥-رهافة الحسِّ، والذوقُ الفني

تحت عنوان "الفنُّ، المفتاح السحريُّ للحضارة"، وضمن فصل "أسباب الرشد وموانعه"، من كتاب "البراديم كولن"، وردت هذه العبارة: "ولقد شهد شباب الخدمة، وتلاميذ الأستاذ، الملازمون له في خلواته وجلواته، أنه لم يدعُ إلى الجمال والفنِّ بقلمه وحبره فقط، بل عاشه في كلِّ نبرةٍ، ومع كلِّ زفرة، وعند كلِّ نظرة؛ حتى إنَّه غالبا ما أرهقهم برهافة حسِّه، وأورثهم شعورا متوتِّرا تجاه كلِّ كلمة ينطق بها، أو سكتة يسكتها، أو إيماءة يومئها...ولعلَّ هذا القدر الرفيع من الإحساس الفنيِّ والجماليِّ، ومن رهافة الحسِّ والذوق، هو من أبرز الأسباب التي ساهمت في تحويل أفكار الأستاذ إلى واقع، وصاغت مخطَّطاته ومشاريعَه بشكل يعجز القلم عن وصفه، مشاريعُ هي في روحها ربانية إيمانية، وفي ظاهرها فنية، ذات أجود المقاييس العالمية، فلا تعارض بين المخبر والمظهر، إنما هو التكامل والتعاضد والتوازن"[١١].

كتِب هذا النصَّ قبل عامين تقريبا، ولم أكن أعرف أني سأكون يومًا ما

---

(١٠) الحكم العطائية، ابن عطاء الله السكندري، الحكمة:١١.

(١١) البراديم كولن: فتح الله كولن ومشـروع الخدمة على ضوء نموذج الرشـد، محمد باباعمي، ص:١٥٨-١٥٩.

منسوبًا إلى إحدى هذه المشاريع، بل إلى "الأكاديميا"؛ ثم لما التحقتُ بها، وعاينتها راصدًا من الداخل، ثم خبرتها متأمِّلا في العمق... بلا أيِّ حاجز أو حائل، ازدادتْ هذه الأوصاف التي سجلتها يومَها ثباتا وصدقا، ولم يتغير منها شيء... ومن عادة الأحكام أنها تكون "متفائلة إيجابية" في البداية، عند أوَّل لقاءٍ، ثم مع الاحتكاك والاختلاط بالمحكوم عليه، تظهر الكوامن، وتطفح النقائص، فتخفُّ سحنة "عين الرضى"[١٢]، وتقل حدَّة الإيجابية... ليحلَّ محلَّها بعضٌ من الأحكام السلبية المتشائمة، نسبيا على الأقل...

إلاَّ أنني، في حال الأكاديميا -وكذا في حال اللقاء بكلِّ "صادق صدوق"- لم أزدد يومًا بعد يوم، إلاَّ يقينا، وما ازدادت ملاحظاتي حول "الأكاديميا" إلاَّ تأكُّدا؛ لأنني مع نموذج شفَّاف، نابض بالحياة، يُظهر ما يخفي، ويخفي ما يظهر... لا ينمِّق ولا يزوِّق، ولا يصبغ الوجوه بالمساحيق، لأجل زيارة فلان أو علاَّن... نموذجٍ يعيش القضيَّة دوما، في كلِّ الظروف، برهافة حسٍّ، وذوق فنيٍّ رفيع... مخافةُ الله غايته ومنتهاه، لا "المكافآت"، و"حساب الرتبة"، أو الطمع في "أجرة زائدة"...

نعم، حسنُ "الأكاديميا" يُسبيك من موقعه الجغرافيِّ ابتداء، وهي قابع كالعريس على تلَّة من تلال "شَامْلجَا" الفيحاء، المطلَّة على مناظر كأنها لوحات فنّية، أو لقطات ذرِّية من جمال جنَّة الفردوس: يبدو البوسفور من بعيد، دونه تلال وسهول، خضراء ربيعا، بيضاء شتاء، وهي بين ذلك خريفا وصيفا.

---

[١٢] إشارة إلى قول الإمام الشافعي:

وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلة ... كما أنَّ عين السخط تبدي المساويا

وبناية "الأكاديميا" متلاحمة مع "مسجد عثمانيّ الملامح"، وإلى جواره "إقامة للطلبة"... فالصروح الثلاثة منسَّقة في مخطَّط هندسي بديع، من تمام حسنه أنه مصبوغ بصبغة الجمال الذاتي العبِق بريح التاريخ، والمضمَّخ بالذات الحضارية للأمَّة؛ رغم أنه جمال "حضاريٌّ مدني" إلا أنه أصيلٌ غير مجلوب، خلافا لما أنشد المتنبي:

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حسن غيرُ مجلوب

التجاور والمجاورة بين هذه المؤسَّسات الثلاثة(١٣) ليس اعتباطا، ولا هو محضُ صدفة؛ وإنما تذكِّرك أنَّ الواحدة منها امتدادٌ للأخرى، فلا فصل ولا انفصال، بل تعانقٌ ووصال... لكأنَّ "التربية، والصلاة، والبحث العلميَّ" أركان لزهرة واحدة، هي زهرة "لالي، أو "التوليب"، رمز الأحدية والعشق الإلهي.

كم من مركزٍ للبحث، وكم من جامعة، أسِّست من منظورِ أيديولوجيات زائفة، وفهومٍ سقيمة حائفة، معتبرة مجاوَرة المسجد، أو إيواء مسجدٍ محترم، هو من قبيل التنقيص والمنقصة للبحث العلميِّ، وهو من نوع التنكُّر لحيادية العلم! وقُل مثل ذلك عن مساجد كبرى، أقصت البحث العلميَّ مِن حرمها، إلاَّ أن تكون معاهد "دينية" بالمعنى الضيِّق للدين... وآفةُ الكلِّ من الانفصام المقيت، والتفسُّخ المميت.

أمَّا داخل الأكاديميا، فتتوزَّع قاعاتٌ للباحثين، ومكتبة، وقاعات للبحث

---

(١٣) بجوار هذه المؤسسات تنتصب مدرسة "جوشْكُون"، التي تزيد الالتحامَ دلالة ومعنى؛ ومما يدلُّ على التخطيط، أنَّه بجوار الأكاديميا الجديدة، كذلك، قد بنيت مدارس "جُوشْكُون". فلا سبيل للاعتباط والصدفة في منطق الفكر السليم والفعل الحليم.

الجماعيّ والمطالعة الموجَّهة، وأخرى للمحاضرات والمناسبات واستقبال الضيوف... وقاعة كبرى للصلاة، تعلو العمارة تاجًا على رأسها... كذا، مطعمٌ، ومؤسَّسة محترفة لخدمات الشاي والقهوة، وتوابعهما... للضيوف الزائرين، وللباحثين المقيمين.

كلُّ شيء داخل "الأكاديميا" في مكانه، منسَّق ومرتَّب بأدب ورهافة، لوحةً فنية عجيبة، وصورة ذوقية خلاَّبة؛ لا تلحظ اضطرابا، ولا وسخا، ولا تجاوزا للحد، ولا تصرفات انتهازية...

الصور الجميلة لإصدارات "مجموعة قَيْنَق"، بعشرات اللغات العالمية، واللوحات الزيتية الأصيلة الأصلية، من صلب التراث الإسلامي الثر... وغيرها من مظاهر الجمال والجلال... تُغريك، وتحضنك، وتذكِّرك أنَّ ديننا الحنيف يفوق كلَّ وصف، ويتحدى كلَّ تهمة، من الأوصاف والتهم التي تكال له ظلما وجورا... فالخلل إنما يسري إلى الأمَّة من جهتنا نحن، أي من جهة الأتباع، وذلك حين ينحرف فيهم جانب على حساب آخر... وحين يخطئون التقدير، ويسيئون التدبير...

لو أنَّ إدارة "الأكاديميا" تعاملت مع فكر الأستاذ بالأسلوب المعتاد، لنقلت نصوصا عن الفنِّ ورهافة الحسِّ، من أدبياته؛ ولجمَّلتها ونسَّقتْها وزيَّنتْ بها الجدران... غير أنَّ رجالها لم يفعلوا شيئا من ذلك، وإنما نقشوا معاني فكر الأستاذ على سفوح قلوبهم الخصبة، فتحوَّلوا هُم، بكلِّ خصائصهم وتصرُّفاتهم، وحركاتهم وسكناتهم، وكلماتهم وعباراتهم... تحوَّلوا إلى عناوين لذلك الفكر النيّر، فالتقى الفكر بالفعل، وأثمر ربيعُ العلم النافع ثمراتٍ من العمل الصالح الطيب... ذلك أنَّ جمالية الخلق، وفنَّ القلب، يسموان على كلِّ جمال وفنٍّ، مهما كان مظهرُه وشكله ومؤدَّاه...

ومن تلكم العبارات التي لا يخطئها الفؤاد في تراث الأستاذ، وهو يزَع الناس وزعا إلى الذوق الجماليِّ ورهافة الحس، نقرأ قوله تمثيلا لا حصرًا:

"• الفنُّ من أهمِّ الطرق المؤدِّية إلى سمو الروح والمشاعر.

• الفنُّ مثل مفتاح سحريٍّ، يفتح الكنوز السرية المكتشفة؛ فوراء الأبواب التي يفتحها تكتسي الأفكار صورها، وتكتسب الخيالات أجسامها.

• يُظهر العلم الحقيق نفسه بالفنِّ..."[١٤].

ألا نلاحظ أنَّ العلاقة وثيقة متنية بين "الفنِّ"، و"سمو الروح والمشاعر"، و"الأفكار"، و"الخيالات"، و"العلم"... هذه العلاقة ليست لمجرَّد التبجُّح النظريِّ، أو التزويق الأدبيّ، وإنما هي واضحة وضوح الشمس في ذهن فتح الله، وهي علاقة قد لا تكون مكتملة في الواقع، من خلال "الأكاديميا" الحالية، وإنما الأمر "في بدايات الطريق"، وفي "مرحلة الجذور"، أي بتعبير القائمين على "الأكاديميا": "نحن لم نستطع أن نحقق جزء من مليون جزء من أحلام الأستاذ"... يقول أحدهم.

وما من ريب، أنّه بعد الجذور تأتي السيقان، ثم الأغصان والأوراق، ثم الثمر اليانعة الطيبة... ويومها يحلُّ الربيع، وتشرق على العالم شمس من شموس الإسلام الخالص؛ ذلك أنَّ محاسن هذا الفكر، ومباهج هذه "الجماعة العلمية"، ومفاتن هذه "الأكاديميا"... إنما هي، بتعبير الأستاذ، من محاسن الإسلام، ومباهجه، ومفاتنه... لا من ذات الأفكار والمؤسَّسات والمشاريع... وحاشا أن تنسب الأسباب الذاتية، والنتائج المرضية، إلى البشر، مهما بلغوا، ومهما سَمَوا...

---

[١٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٥٢-١٥٤.

من أبرز إشارات "نكران الذات، والمدد الرباني" تيقُّننا أنَّنا "كنا تائهين ضائعين مشرَّدين هنا وهناك، فأدركَنا الله برحمته وأبلغنا بفضله وكرمه مواطنَ من الخير والعطاء يتعذر أن نصل إليها بحولنا وقوتنا" بل "ينبغي أن نقنـع أنفسنا أنه ليس لنا يدٌ في حصول هذا الخير العميم. فالنجاح كلُّ النجاح لطفٌ من الله وفضل من لدنه وإحسان. فإذا آمنّا بذلك فقد جنّبنا أنفسَنا شوائبَ الشرك، وأنجيناها من الأوهام التي تظل النفسُ تَضُخّها في دواخلنا لكي تضخِّم أنانيتنا. بل يحسن أن نقول: "في الحقيقة، لو لم أُقحِمْ نفسي في هذا الأمر، لوجد له رجالا خيرا مني في إخلاصهم وصدق تمثيلهم، ولقطعت القافلةُ مسافات واسعة أضعافَ ما قطعتْه حتى اليوم"[١٥].



[١٥] المنشور، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ٢٤ (مايو-يونيو ٢٠١١).

الأكاديميا في فكر الأستاذ فتح الله

صباح كلِّ خميس، يلتئم الجمع، في حصَّة خاصة، بُرمجت بعد أسابيع من التحاقي بالأكاديميا، وكان الغرض منها هو "المساعدة وتوفير الجو المناسب للتأليف"، كذا "المطالعة الجماعية لما كتبتُ بحر ذلك الأسبوع"، بغية نقده، والملاحظة عليه، واقتراح نصوص جديدة، أو ترجمة نصوص، في الموضوع الذي أشتغل فيه.

ولقد كان الاستماع الجيد من الإخوة، لما أكتبُ، مع قلَّة بضاعتي، وكثرة زلاتي... كان هذا الاستماعُ بمثابة "مرآة" يقيس عليها الكاتب حقيقةَ ما كتب، وهنا انتقلتُ بالذاكرة إلى عشرين عاما خلت، يوم كنتُ طالبا في الجامعة، وباحثا في جمعية التراث، ملازما لأستاذي الأديب الدكتور محمد ناصر، حفظه الله؛ ولقد حظيت حينها بالسَّكن إلى جوار بيته، بل في غرفة تابعةٍ لمسكنه؛ فكان الدكتور كلَّما كتب قصيدة أو مقالا طلبني إلى مكتبه، أو نزل إلى غرفتي، فقال: "سأقرأ عليك ما خربشتُ، راجيا ملاحظاتك"؛ وما يكون مني إلا أن أستمع إليه، ولا شيء عندي أضيفه، وإنما أنتشي وأجد فيَّ ثقة، مقتنعا أني لا أزال طالب علم مبتدئ، ولن أزال...

اليوم، وأنا أطالع ما "أخربش" على الأساتذة في الأكاديميا، بتُّ أعرف لماذا يحتاج الدكتور إلى سامع، حتى ولو كان ذلك السامعُ دون المستوى المطلوب، مثلي.! فما بالك لو كان المستمع من "أرباب المستوى"، كحال فريق "الموسوعة الكونية"، في الأكاديميا؟!

ولقد تكرَّرت عبارة من الأستاذ نوزاد صواش، وهي قوله: "أنا مستمع جيد"، وهذا لا يعني أنه لا يلاحظ، ولا يقترح، ولا ينقد... وإنما هي

الخلال الحسنة، والسجية الطيبة، والانسيابية المتّزنة، تضبط إيقاع الأعزة.

فحين قرأت العناوين الأولى من "فصول ذاتية موضوعية"، على الإخوة، وجدتهم يسألون: "عن أي أكاديميا تتحدث؟!"، ويقول البعض منهم: "لو أنَّ ما كتبت جاء مع "الأكاديميا" الجديدة".. حتى إنَّ منهم من سأل: "وهل لدينا أكاديميا؟! هذا مجرد مركز صغير، لا يمثِّل شرو نقير مما يخطط له الأستاذ، وما يأمله الكبار من أعضاء الخدمة؟!".

غير أني، مع ذلك، أجد أن لا فرق بين "الأكاديميا" في حالها اليوم، و"الأكاديميا" التي شُرع في تشييدها، وهي في مساحتها تعد بعشرات الآلاف من المترات المربَّعة، وتحوي مباني ومرافق يفوق وصفها الخيال؛ ولقد شاء الله تعالى أن أشاهد شريطا يعرض المجسَّم في أبعاده الثلاثة، ثم قدَّر الله أن أزورها مع وفد من الضيوف، وهي ورشة في معمعة نشاطها؛ ولا يملك العقل إلاَّ أن يبهت بالمشروع، واللسانُ إلا أن يلهج بالدعاء، والقلبُ إلا أن يخفق على وقعه راجيا مؤمِّلا، مستبشرا مهللا.

لا فرق، لأنني لا أصف الحجم، ولا البناية، ولا الضخامة، ولا الكثرة... ولكني أحرص على تشريح "الغاية"، و"الروح"، و"الخلق"، و"المعنى"، و"الرسالة"،... أي أنَّ هذه القيم هي قلب "الأكاديميا"، سواء في مرحلتها هذه، أم في مرحلتها الثانية، أو الثالثة... متيقّنا أنَّ الأستاذ فتح الله يوم يكتب الله تمام "الأكاديميا" الجديدة، سينظر إليها على أنها أقلُّ بكثير من المرجوِّ، وأصغر من أن تحمل الهمَّ لوحدها، وسيدعو إلى غيرها... وغيرها... في نهم لا يعرف الشبع، وهمة لا تعرف النهاية.

ولذا، وجدتُ من المناسب محاولة عرض الأكاديميا، كما يراها الأستاذ

فتح الله،[١٦] في وظيفتها، والمسؤوليات الملقاة على عاتقها، والمنتظر منها معرفيا وحضاريا؛ وذلك من خلال بعض النصوص، المنشورة في جملة من مؤلَّفاته، بالخصوص "نظرية التطور"، و"نحن نبني حضارتنا".. إذ الأوَّل كتبه في الثلاثينيات من عمره، والثاني من آخر ما نشر له بالعربية؛ الصورة هي ذات الصورة، لم تتغير ولم تتبدل، بل لم تجد طريقها إلى الواقع بعد.

ففي هذه الأسطر، إذن، سأعرض نصوصا غير مباشرة، كأنَّ الأستاذ من خلالها يرسم خلفية "قلمية" للَّوحَة المتوخَّاة والمتخيلة، ويأتي بعدها تمام الألوان والتفاصيل والجزئيات، ولا يكون ذلك إلاَّ في أوانه؛ فكم من مشروع كتمه الأستاذ، متيقِّنا أنه لم يحنْ أوانه بعدُ، ثم أفصح عنه بعد أمد.

مراكز البحث، وجدلية "الدين، والعلم، والأيديولوجيا"

ضمن كتاب "فتح الله كولن، جذوره الفكرية، واستشرافاته الحضارية"، للأستاذ أنس أَرْكَنَه، المتخصِّص في مشروع "الخدمة"، وتحت عنوان "الدين والعلم والأيديولوجيا"، نقرأ جملة من النصوص الهامَّة والمرجعية، حول "صورة العلم" عند فتح الله، وعلاقته بالأيديولوجيا من جهة، وبالدين من جهة أخرى، ومن خلال هذه النصوص يمكننا استجلاء بعض معالم "الأكاديميا" أو "مراكز البحوث" كما يتصوَّرها الأستاذ ويتخيلها.

يقول فتح الله: "والآن تخيَّلوا مركزًا للعلم -الذي هو في الحقيقة مكانٌ مباركٌ مثل المعبد- إذا ارتبط بشكل أو بآخر بتيار فلسفيٍّ معيَّن، أصبح أسيرًا له. وبالتالي فإنَّ هذا العلم لم يعُد حرًّا بل أسيرًا في قبضة فكرٍ متعصِّب. عند ذلك يكون هذا العلم ملعونًا أكثر من أيِّ جهل أو

[١٦] انظر: الملحق بعنوان "الصورة القلمية للأكاديميا المنشودة".

جاهلية. وإذا أريد من أيِّ دين أن يكون وسيلةً سياسية أو غير سياسية لمنفعة حزب ما، انقلب معبد ذلك الدين إلى مِلْكية ومكان صغير لذلك الحزب، وتكون العبادة فيه نوعًا من مراسيم التشريفات. عند ذلك تكون السمة الربانية لذلك الدين والديانة قد جُني عليها تمامًا.. أجل، إن كان البعض يدَّعي تبنِّي العلم في مجتمع ما، ويستعمل دُور العلم أداة لرغباته وأهوائه، وواجهة لأيديولوجياته، فإنَّ تلك الدور تخرج عن كونها أماكن مباركة كالمعابد، وتتحوَّل إلى ميادين للرغبات والأهواء الجامحة ولمشاعر العداء والخصام..."(١٧).

فالملاحظ أنَّ الأستاذ دفع العقول إلى "تخيُّل" مركز للعلم، وضع له أسسه ومبادئه، وشرَّح خصائصه وأبعاده، ثم بيَّن أوجه الانحراف التي يمكن أن تطاله، فهو بالتالي:

- مكان مباركٌ مثل المعبد.
- العلم فيه حرٌّ غير أسير لفكر متعصِّب، أو لأغراض حزبية.
- سمته وروحه هي "الربّانية".
- متحرُّر عن سجن الرغبات والأهواء.
- لا يخضع لأيِّ أيديولوجية، مهما كانت.
- لا يحمل مشاعر العداء والخصام.

وإذا سألنا عن السبب الذي يجعل الناس يحوِّلون العلم أو الدين إلى أيديولوجية، وبالتالي يوظِّفون مثل هذه المراكز لخدمة أغراضهم الأيديولوجية الشنيعة، يكون الجواب -كما يقول الأستاذ أنَس أَرْكَنَه- أنَّ

---

(17) Işığın Göründüğü Ufuk, M. Fethullah Gülen, s.10.

فتح الله كولن يرى "أنَّ تحويل العلم والدين إلى أيديولوجية، هو نتيجة لضعفٍ بشريّ. ويقول بأنَّ بعضهم يقومون بهذا، لكي يستروا ضعفهم البشريَّ أو يسدُّوا الثغرات الضعيفة فيهم. واستعمالُ الدين والعلم في عملية السدِّ أو الحشو، يتعارض مع سموِّ العلم والدين. ويرى فتح الله كولن أنَّ السبيل الوحيد في الخلاص من هذا الضعف هو الالتزام بعشق الإله وعشق الحقيقة، وباحترام العلم. ولم تذق البشرية مثل هذا العشق إلاَّ عن طريق الأنبياء والمرسلين"[١٨].

فالسبب إذن هو: الضعف البشريُّ، ومحاولة تغطية هذا الضعف زورًا. أمَّا الخلاص والمخرج الوحيد فيكمن في "عشق الإله، وعشق الحقيقة"؛ ومن ثمَّ فإنَّ مركزنا، وأكاديميتنا، تتخذ هذا المعنى شعارا لها، وأساسا لحركيتها، وباعثا لوجودها، وحدًّا فاصلا بين صوابها وخطئها، وغايةَ مُناها، ومنتهى آمالها... إنه "عشق الإله، وعشق الحقيقة".

وإنا لنسأل اليوم عن مراكز البحث عبر العالم، وعن الجامعات، وعن المدارس... وعن كلِّ تجمع أو جماعة بشرية حول "العلم"، هل حقيقتها وشرعيتها مستمدة من "عشق الإله، وعشق الحقيقة"، أم هي مستلة من أغراض وغايات أخرى؟

وإنا لنبحث عن مثل هذا النوع من المؤسَّسات والتجمُّعات، المتعلِّقة بالله وبالحقيقة، عشقا وشوقا، جهادا واجتهادا، فلا نجده إلاَّ في "الأذهان"، و"التخيُّلات"، و"التصورات"، و"التنظيرات"... إلاَّ ما شذَّ، وهو نادر ندرة اليورانيوم، أو الذهب الإبريز، ومع افتراض وجوده لا يزال غير مؤثر،

(18) Işığın Göründüğü Ufuk, M. Fethullah Gülen, s.10.

وبالتالي لا يمثِّل التوجه العام، ولا النزعة الغالبة؛ وإنما هو "شاذ"، يحفظ، طبعا، ولكن لا يقاس عليه، ولا يعطى أيُّ حكم على العموم من خلاله.

وفتح الله يعرف هذا، ويدفع الناس إلى التفكير فيه بلا توان، ولا تهاون.

وينتقد فتح الله الفلسفة الوضعية، التي "أبعدت الدينَ -ومنذ قرون عدة- عن قيمه العليا" ومن ثم فإنَّ "فتح الله كولن يحاول توسيع إطار العلم من جديد، وإدخال العشق فيه وفتح مساحة ميتافيزيقية له"[١٩].

فالمراكز المنشودة، لا تخضع للرؤية الكونية المادية الوضعية، التي فصلت العلم عن القيم، وتنكَّرت للعشق وللماوراء؛ وإنما تتخذ هدفا لها "فتحَ مساحة للميتافيزيقا"، ولقد أبدع كارل بوبر، حين بيَّن أنَّ "العلم الوضعيَّ" لا يستطيع أن يقول شيئا عن "الميتافيزيقا"، وقد فصل ذلك في كتابه "منطق الكشف العلمي"؛ لكنه، لم يصل بالضرورة إلى ذات النتيجة التي وصل إليها فتح الله.

وما أروع استنتاج أنَس أَرْكَنه في هذا الشأن، حين قال: "لقد وُضعَت -منذ الماضي- مفاهيم عديدة -مثل الحبِّ والمحبَّة- خارج ساحة البحوث العلمية. وعندما وَضع فتح الله كولن هذه المفاهيم الميتافيزيقية والتصوّفية في هذه الساحة من جديد، إنما أعاد الإشارة إلى النظرة "الكوسمولوجية" (Cosmologist)، (علم الكونيات) القديمة التي تقول بأنَّ الحبَّ هو علَّة خلق

---

[١٩] انظر:
M. F. Gülen, Yeşeren Düşünceler, s. 172-188; Işığın Göründüğü Ufuk, s. 16-20, 57, 65-70; Ruhumuzun Heykelini Dikerken, s. 36, 97; Kendi Dünyamıza Doğru, s. 19-25, 66; Beyan, 127; Sohbet-i Canan, s. 66; Hakikat Aşkı, Sızıntı, Mayıs-2004; İlim ve Araştırma Aşkı, Sızıntı, Haziran-2004.

الكون. والنظرةُ الكوسمولوجية القديمة كانت تقيم علاقة عليا دائمة بين الإنسان والكون والله. ولكن عند ولادة العلوم الحديثة أُهملت هذه النظرة، حيث غرقت العلوم في خضمِّ المادة، وأصبحت صمَّاء عمياء تجاه جميع العلاقات الدينية والخلقية والميتافيزيقية، وانقلبت إلى حالة ذات بعد أُحادي. ويصف فتح الله كولن هذا العمى بأنه انحراف واستيحاش"[٢٠].

أمَّا عن مصادر المعرفة، كما تسمَّى في "نظرية المعرفة"؛ فهي، حسب نظرة المفكرين المسلمين، على مرِّ العصور، ثلاثة:

١. الحواس السليمة (أي الأمور التي تدخل في نطاق الحواس)

٢. العقل.

٣. الوحي، بشقَّيه: القرآن الكريم، والسنة الشريفة.

ولقد انحرف الفكر الوضعي عندما "عَدّ المصدرين: الأول والثاني أساسًا للعلم، وأهمل الوحي وعدَّه خارج نطاق العلم. ثم أنتج هذا الموقفُ تيارين قويّين في الفكر العلماني الغربي هما: "الوضعية" (Positivism)، و"العقلانية" (Rationalism)"..

ويؤكِّد فتح الله، على غرار العلماء المسلمين الآخرين، على العلاقة الوطيدة بين المصادر الثلاثة؛ ولكنه عندما يشرح هذه المصادر الثلاثة يقف أيضًا عند عناصر فرعية لها.

ومن ثم، فإنَّ هذا المركز أو "الأكاديميا"، يجب عليها أن تعتمد مصادر المعرفة كلِّها، بلا إقصاء، ولا تعصُّب، ولا اجتثات، ولا بتر... وكذا عليها أن تنظر إلى تفريعات هذه العناصر بعين التدقيق والتحقيق، ولا تهمل أيَّ

[٢٠] فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنَس أركنه، ص:٢١٣.

تفصيل مهما بدا صغيرا؛ لأنَّ الاختلاف في المصدر مشوِّه للمورد، لا محالة.

وهل مراكز البحث مقتصرة على "النخبة"؟ وبتعبير آخر: هل للجمهور والمجتمع حظٌّ في هذه العملية، أم لا؟ وهل ذلك مقتصر على الجانب النظريِّ، أم يتجاوزه إلى العمل والفعل والحركية؟

يجيب فتح الله: "لا بدَّ أيضا من نشر هذا العلم المأخوذ عن طريق هذه المصادر بين المجتمع وتطبيقِهِ في الحياة العملية، وتنظيمه في الحياة اليومية، من انتشار حبِّ العلم والشوق لتحصيله عند الجماهير"[٢١].

وعن العلاقة بين مراكز البحث والجامعات، يؤكِّد فتح الله "على أهمية مراكز البحوث العلمية وعلى ضرورة وجود أعداد كافية منها إلى جانب الجامعات. وفي حالة غياب هذه المراكز البحثية ستقوم الجامعات بإنتاج أفكار نمطية. ومع الأسف فإنَّ جامعاتنا أنتجت -لمدة طويلة- أفكارًا نمطية بدلا من العلم. وهذه الأفكار النمطية تقتل العلم والبحوث العلمية"[٢٢].

ففتح الله دوما يمقت "النمطية"، ويدعو إلى "الحرية"، في إطار من القيم والضوابط القيمية، والنمطيةُ جريمةٌ في جميع مجالات الحياة: هي جريمة على الدين، وعلى العلم، وعلى الأخلاق... إنها الحالقة؛ ويكاد النص أعلاه يرتجُّ من "الأسف" الذي أطلقه فتح الله من أنَّ جامعاتنا، لغياب مثل هذه المراكز المنشودة، صارت "نمطية"، ومن ثم "قتلت العلم والبحوث العلمية".

---

(21) Fasıldan Fasıla, M. Fethullah Gülen, 3/194

(22) Fasıldan Fasıla, M. Fethullah Gülen, 3/194

فالمراكز ليست فقط مطلوبة لذاتها إذن، وإنما هي ضرورية: للمجتمع، وللجامعة، وللدين... بل، وحتى للفرد، الذي حمَّله فتح الله "عينيا" وجوبَ التفكير في المراكز، أو ما سماه "المعابد"، "لذا كان من الضروريِّ أن يكون هدف الحصول على العلم والقيام بالبحث العلمي غاية كلِّ شخص في المجتمع، فإن لم يتحقق هذا انتشرت الأنانية في المجتمع"[٢٣].

على ضوء "الموازين"

"الموازين" حِكم مركَّزة، دوَّنها فتح الله قبل الثلاثين من عمره، وحين صدور مجلة "الرشحة" (Sızıntı-1979) راح ينقلها من دفاتره، وينشرها واحدة واحدة، ثم جمعت في كتاب يدلُّ اسمه على حقيقته أيما دلالة؛ ولقد وصف البعض الموازين بأنَّه "بذور فكر الأستاذ" وباقي أعماله هي الأشجار، والأثمار، والجِنان... أمَّا آخرون فوصفوه بأنَّه "فهرست" أعماله، فكلُّ عنوان في الموازين تجد له -بعد ذلك- تفصيلا وتوسيعا، وشرحا وبسطا، في غيره.

ولا يتخلف هذا الحكم في موضوع "الأكاديميا" ومراكز البحث، كما تصوَّرها الأستاذ، وإن كنَّا نأمل في أعمال أخرى أن تحلَّل "صورةُ العلم" في فكر فتح الله تحليلا إبستمولوجيا؛ لأنَّ لها علاقة وطيدة بصورة مراكز العلم عنده، ولذا نكتفي في هذه الفقرات بما به الحاجة، سائلين الله تيسير السبل لما هو أوسع وأعمق، ولعلَّ مشروع "نموذج المنطاد" يكون هو الحاضن لهذا التحليل المأمول.

فعن العلوم الوضعية، لا يتخذ الأستاذ موقفا راديكاليا منها، أي القبول

(23) Fasıldan Fasıla, M. Fethullah Gülen, 3/194

التام أو الرفض المطلق؛ وإنما يقبلها ويدعو إلى الاهتمام بما فيها من حقٍّ وخير، وهو كثير؛ كما ينبِّه إلى ما تحمل من باطل وشرٍّ، وهو كذلك كثير؛ فيقول: "الابتعاد عن العلوم الوضعية بحجَّة أنها تؤدِّي إلى الإلحاد تصرُّفٌ صبيانيٌّ. أمَّا النظر إليها وكأنها تعادي الدين وأنها وسيلة للإلحاد وطريق إليه فهو حكم مسبق وجهل مطبق"[٢٤].

فالأكاديميا، إذن، يجب أن تحوي جانبا بارزا من العلوم الوضعية، وأن لا تهملها مهما كانت المبرِّرات، ولعلَّ هذا الإهمال قد أصاب المسلمين أوان عدائهم للعلوم الوضعية، بلا تريث ولا تثبت، ولا أثرة من علم وحكمة.

ويقول من جهة أخرى: "رَدُّ جميع العلوم الوضعية والادِّعاء بأنها بأجمعها لا تساوي شيئًا أنموذجٌ للجهل وللتعصُّب. أمَّا ردُّ كلِّ شيء خارج هذه العلوم فسذاجة وتعصُّب أحمق. أمَّا الإدراك بأنَّ كلَّ معرفة جديدة تأتي بأكوام من المجاهيل والأسئلة فهو الإدراك اللائق بالتفكير العلميِّ الصحيح"[٢٥].

نعم، لا تردُّ العلوم الوضعية على علاَّتها، لكن كذلك، لا يجوز الانسياق مع الاتجاه الوضعيِّ الرافض لكلِّ ما هو خارج إطارها، ويقصد بهذا: الوحيَ، والميتافيزيقا، وكلِّ ما لا يثبت بالحسِّ والعقل.

فمراكز البحث المرومة، تتبنّى إدراكا لائقا بالتفكير العلميِّ الصحيح، حين تتخذ المعرفة الجديدة سُلَّما لأسئلة جديدة، وحقول جديدة، ومجاهيل جديدة... في حركة دائمة دائبة، وعقول سائلة مستشكلة،

---

[٢٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٩.

[٢٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٩.

وقلوب متقبِّلة متواضعة... بهذا فقط ترتسم معالم "الأكاديميا" الجديدة. فهي لا تؤسَّس لتقول "القول الأخير"، أو لتصوغ "القول الفصل"؛ وإنما تمامها هو بدايةٌ لغيرها، وبدايتها بداية لبدايات لا حصر لها...

ولو أنَّا سألنا عن الهدف من العلم، من خلال "الأكاديميا" المنشودة، فإنَّ فتح الله يجيب: "العلوم مفيدةٌ لنا بدرجة قيامها بتأمين سعادتنا والارتفاع بنا إلى المستوى الإنساني اللائق. أمَّا إن أصبحت العلوم والتكنولوجيا الكابوسَ المرعب لبني الإنسان، فليست إلاّ شيطانًا رجيمًا تقطع علينا أمامنا الطريق"[٢٦].

فالهدف، بهذا، يكون سعادة الإنسان، وكرامة الإنسان؛ لا أن تكون هذه المراكز معاول لهدم كلِّ ما هو إنسانيٌّ، أو أشباحا ترعبُ بني الإنسان؛ فإنها إن تحولت إلى هذه الحال حقَّ لنا أن نلقب أصحابها بلقب "الشياطين" لا "العلماء".

ولا يترك فتح الله الفرصة تفُوته، لينبِّه مرَّة أخرى إلى العلاقة بين العلم والدين، ولكنه هذه المرَّة يستشهد من مقولة لعالم العصر "أنشتين"، فيقول: "لقد قال عالم العصر للماديين القصيري النظر الذين حاولوا تأليه العلم في بداية عصرنا الحالي: "العلم دون دين أعمى، والدين دون علم أعرج". وهكذا انتقد هذا العالم الهذيان المرعب الذي ساد عصرًا كاملاً انتقادًا لطيفًا. ولا أدري ماذا كان سيقول لو شاهد من هو أعمى وأعرج في الوقت نفسه من بعض معاصرينا الحاليين"[٢٧].

وفتح الله يحذِّرنا من "نظريات الفوضى"، ومن "ما بعد الحداثة"، ويدقُّ

---

[٢٦] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٩.

[٢٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٩.

ناقوس الخطر ليوقظنا من سباتنا، ويهزَّنا لمواجهة خطر جارف، متمثِّل في "اللاّمعْيار"، و"اللاّقيمة"، والعداء لكلِّ "ثابت"، ولجميع "القيم"، ومن ثمة العداء للدين وللعلم على السواء.

ويتعرض فتح الله حتى للتفاصيل، في العلاقة مع التخصص، وضرورة الاهتمام بما "يفيد الفرد والمجتمع"، وعدم الإغراق فيما لا طائل منه، أو فيما هو من قبيل الترف الفكري، وفي هذا يقول: "للعلم وللعلوم الوضعية والتجريبية فروع مختلفة، ولكلِّ فرع فوائده. ومع أنَّ جميع هذه الفروع مفيدةٌ، إلاَّ أن عمرَ الإنسان قصير وقابلياته محدودة، لذا يستحيل عليه الإحاطة بجميع فروع هذه العلوم. لذا كان على كلِّ فرد تعلُّم ما يفيده ويفيد أمَّته، ولا يضيع عمره في ساحات أخرى غير ساحته"[٢٨].

لكن، التخصُّص مفيد وضروريٌّ ما لم يتحوَّل إلى سجن للفهم والمنهج، يقول فتح الله: "مع أنَّ تصنيف العلوم ودرجها في الكتب شيءٌ مفيد من زاوية حفظها واستعادتها عند الحاجة؛ إلاَّ أنَّ هذا قد يصيب بالشلل ملكة الاستنباط والاستلهام لدى الإنسان"[٢٩]. ولا مناص من إبقاء ملكة الاستنباط والاستلهام متَّقدة، هذا الاتقاد الذي يسمِّيه المسيري: "العقل التوليدي"، أمَّا موت هذا العقل، المعبَّر عنه بـ"العقل الموضوعي الفوتوغرافي المتلقي"، فهو كارثة وسرطان للعلوم وللمعارف، ولا شكَّ.

ثم إنَّ من أساليب التغلُّب على قِصر العمر ومحدودية الإنسان، مقابلَ سعة العلم وتشعُّبه، اعتماد أسلوب "الجماعات العلمية"، و"العمل الجماعي"، وتقسيم "الهمِّ المعرفي"، وطرح أسئلة "الأزمة المعرفية"،

---

(٢٨) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٠٠.

(٢٩) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٩٢.

والعمل بإيقاع منتظم، لا كلٌّ على حده، وإلاَّ فأن "تكون عالما، يعني أن تكون ضمن مجموعٍ علميّ" كما يقول ميشال دوبوا.

ومن عادة فتح الله أن يثور على الرداءة، وعلى الدونية، وعلى التقليد، ويذكِّر بذلك مرارا، في مقالات كثيرة، وهو هنا، يتأسَّف أنه "لا يظهرُ اليوم عندنا مكتشفون ولا مخترعون... بل يظهر المقلِّدون"[٣٠]. ثم يعلنها صريحة: "نحتاج إلى نفسيَّة متمرِّدة تقوم بتغيير كلِّ شيء تقريبًا. يجب أن يتغير كلُّ شيء: الكتاب... المدرسة... ومن أجل هذا التغيير فإنَّ البداية بالنقد هي الأساس"[٣١].

فمراكز البحث العلميّ، هي حلقة في سلسلةٍ، وليست جزيرة في بحرٍ؛ ذلك أنه ما لم تتغير النفسيَّة، وما لم يهجر الناس التقليدَ، في كلِّ دوائر الحياة؛ فإنَّ هذه المراكز، ستكون على صبغة تلك النفوس، وتكون ظلاًّ لتلك المؤسَّسات، وبخاصَّة المدرسة، التي تُعتبر فسيل الجامعات، ومشتلة المراكز؛ ولعلَّ هذا مما يفسِّر اهتمام "الخدمة" بالمدارس ابتداءً، مع التركيز على جودتها، وعلى التفوُّق فيها... ثم الانتقال منها إلى الجامعات؛ و"الخدمة" هي في بدايات الطريق فيها؛ وستكون مراكز البحث، بحول الله، هي المرحلة الثالثة المقبلة؛ أمَّا العمل اليومَ فينصبُّ على البذر، لا على الحرث، والقطف...

ولقد تعرضنا في عنوان سابق إلى العلاقة بين "الخلُق الحسن" وسير الأكاديميا، وها فتح الله يؤكِّد ذلك بقوله: "عندما يتَّحد العلم مع الخلق

---

[٣٠] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٩١.

[٣١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٩١.

اللين يصل إلى أعماق كبيرة"[٣٢]. وفحوى قوله إنَّه إذا انفصلا، بقي العلم يسبح في السطوح، ويلامس الشكل، ولا يلج إلى الحقائق والأغوار والمعاني؛ والحال أنَّ هذه الملاحظة تحتاج إلى اهتمام خاصٍّ من قِبل القائمين على مؤسَّسات الأمَّة كلِّها، وما أجمل قول الشاعر، وما أصدقه، حين ربط بين بقاء الأمَّة وخلقِها، فوجودها بوجوده، وفناؤها حين فنائه:

وإنما الأمـم الأخلاق ما بقيت   فـإن هـم ذهبـت أخلاقهـم ذهبوا

ومرَّة تلو مرَّة، يربط فتح الله بين العلم والعمل، بين الفكر والحركية، في أكثر من مقال، وفي أكثر من مؤلَّف، وهنا أيضا في مقام العلم، وفي مقام التنظير للأكاديميا، يقول: "إن لم يستند العلم إلى العمل فمصيره الذبول"[٣٣]. فلا بدَّ إذن من إسناد كلِّ علم، وكلِّ بحث، وكلِّ مشروع... في مراكز البحث، بمقصد "النافعية"، والثمرةِ الطيبة، والعمل الصالح؛ وإلاَّ ذبل ذلك العلم نفسه، وشحُبت على إثره مرافق المجتمع الحيوية كلِّها.

العناصر الأربعة

في سياق مختلف، حين كان الأستاذ فتح الله يخطُّ المعالم الكبرى لبناء الحضارة، ويعلن بصراحة أنه يضع العلامات في الطريق، لكن ليس لوحده، وإنما مع ثلة من خيرة أبناء الأمّة، علما وعملا... يوظِّف دلالة عميقة جدا، للتعبير عن هذه الحقيقة البارزة: "ونحن نبني حضارتنا". في هذا السياق لا يغيب معنى "العلم"، ولا "البحث العلمي" طرفة عين عن دائرة الاهتمام، ولا عن سلسلة الأسباب المباشرة.

---

[٣٢] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٩٢.

[٣٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٩٢.

يقول فتح الله: "إذن علينا أن نبحث عمَّا نأمله لغدنا، في نقطةٍ تتلاقى فيها: البيئة الصالحة، وعشقُ العلم، وعزمُ العمل، والبحث المنهجيُّ"(٣٤)، ومعنى هذه العبارة المركَّزة، هو أنه "إذا ما أثارت البيئةُ الصالحة العشقَ العلميَّ وألهبت العزائمَ على السعي والإنجاز، فستشعر القلوب الحسَّاسة بذلك في أعماق كيانها بعملية امتصاص خارقة، ثم تقوِّمه، ثم تضعه موضع التنفيذ في إطار منهجية معيَّنة. وبعد ذلك، تعمل "الدائرة الصالحة"؛ للارتقاء بإلهاماتٍ وتداعيات وتركيبات وتحليلات جديدة.. تعقبها -باستمرار واطّرادٍ- الجهودُ الفكرية والنُّظُم المنسجمة مع مقوماتنا الذاتية والمتوافقةُ مع رؤيتنا ومبادئنا الحضارية"(٣٥).

هل مراكز البحث هي وليدة "بيئة صالحة"، فتكون هي النتيجة؟

أم هي سبب وبيئة صالحة لميلاد العلماء، وازدهار العلم، فتكون سببا لنتيجة أخرى؟

الحقُّ أنَّ الأمرين كليهما صادقٌ؛ فمراكز البحث، في المستوى الكلِّي، ثمرةٌ للبيئة الصالحة والمحيط الخصب؛ وأمَّا في مستوى النهضة العلمية، فهي منطلق وأساس وبذرة للعلم وللبحث العلميِّ؛ ومن ثمَّ وجب السعي الحثيث لإنشائها على أصول ثابتة متينة؛ ولزم الاجتهاد في اتخاذها محاضن للفكر النيِّر، والتخطيطِ الحكيم، والتغيير المتَّزن.

فالعناصر الأربعة التي يقوم عليها تأسيس أيِّ مشروع علميٍّ، أو مركز بحثيٍّ، هي أربعة؛ إذا توفَّرت أثمرت، وإذا افتُقدت أضمرت، وهي:

- البيئة الصالحة

---

(٣٤) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٥.

(٣٥) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٥.

- عشق العلم
- عزم العمل
- البحث المنهجي

أمَّا عن البيئة الصالحة، فيعلن فتح الله أنَّها أساس كلِّ تطور، وروحُ كلِّ بحث، ويقيس ما كان عليه علماء الإسلام قبل قرون، بما صار عليه علماء الغرب أوان نهضتهم، ثم يقول: "وكما تعاقب ظهور العلماء في عالمنا الإسلاميِّ من أمثال ابن سينا والفارابي والخوارزمي والرازي والزهراوي إبان تحقُّق الوسط والبيئة الشبيهة، كذلك استَخدم الغربُ ما تَوارَثَه من المكتسباتِ خيرَ استخدام وبأوسع وجه ممكن في ذلك الوسط، واستطاع أن يسِمَ القرون الأخيرة بسِمَتِه"[٣٦].

ولقد حذَّر فتح الله من اختزال النهضة في أسماء قليلة، مثل أن يقال "عصر ابن خلدون"، أو "عهد كانط"، مثلا؛ وهذه إشارة لطيفة إلى أنَّ أيَّ مركز للبحث ليس محضنا للعبقريات الفردية، ولا ينبغي له أن يكون فقط كذلك؛ وإنما هو تجمُّع لطاقات كثيرة، منها المواهب طبعًا؛ وبهذا يثمر العلم، ويؤتي البحث العلميُّ أكله: "فمن الغلط أن نحصر حاضر "الغرب" في آثار جهود علماء ذوي قابليَّات راقية، مثل كوبرْنيك، وغاليلو، وليونارد دافينْشي، وميكيل إنجيلو، ودانتي، أو أديسون، وماكس بلانك، وآينشتين؛ فلا يمكن أن نُرجع "النهضة العلمية" أمس ولا الفوران العلميُّ والتكنولوجيُّ اليومَ، إلى مساعي عددٍ قليل من أمثالهم فحسب. وإلاَّ، فإننا سنواجِه مشاكل نعجز عن إيضاح أسبابها بالقاعدة المعروفة

---

[٣٦] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٤.

بـ"تناسب العلِّية". فإنَّ النجاحات الخارقة للعادة، المتحقِّقة أمس واليوم، والتكوينات العالمية الكبرى، مرتبطةٌ -إضافةً إلى عبقرية الأفراد ونبوغهم- بالبناء الاجتماعي المولِّدِ للعبقرية، والوسطِ المناسب لتنشئة المكتشِفين، والبيئةِ العامَّة الحاضنة للقابليات"[٣٧].

ولقد أكَّد فتح الله على ما أسماه بالشريعة الفطرية، أي ما يطلق عليه البعض اسم "السنن الكونية"؛ فليس يملك أحدٌ مناقضتها، أو السعي في الاتجاه المعاكس من سعيها؛ حتى إنَّه ليقرِّر مبدأ حضاريا معرفيا بديعا، وهو: "أنَّ العبقرية في أرضٍ غير أرضها محكومٌ عليها أن تكون كعصفٍ مأكول، كما يُحْكَمُ على البذرة بالفناء في أرض لا تُرعى فيها بالهواء والماء والقوَّة الإنباتية"[٣٨].

وهذا لعمري مبدأٌ سنني كونيٌّ لا يغادر أيَّ فكر، ولا يتخلَّف عن أيِّ حركة، مهما كان نوعها؛ إذ الفكر والحركة وليدا "وعاء، وبيئة، وتربة، ومحيط"، إذا تعفَّن وفسد، فلا تنتظر الكثير، ولا تأمل في المعجزات والخوارق؛ ومن ثمَّ كان لزاما على أرباب التغيير والإصلاح، أن يجتهدوا في توفير هذه البيئة الصالحة للأجيال اللاحقة، ومن أبرز تلك الحواضن ما يمكن أن يسمَّى "الأكاديميات"، أو "مراكز البحث العلمي"، بأعلى المستويات والمعايير الممكنة؛ وإلاَّ بقي الحديث عن "قيمة العلم"، وعن "وجوب طلبه"، وعن "علاقته بالحضارة"... سيبقى هذا الحديث مجرَّد خطابة، أو شعارات سياسية، أو كلام فارغ، ولا فراغ فؤاد أمِّ موسى.

وأمَّا عن عشق العلم، ففي مقال بعنوان "أجيال الأمل"، من كتاب

---

[٣٧] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٤.

[٣٨] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٥.

"ونحن نبني صرح الروح"، يشرِّح فتح الله الانحراف الذي سيقت إليه الأمَّة من قِبل دعاة مبشِّرين، هم منَّا، ولكنهم زاغوا بصرا وبصيرة، فهؤلاء "لم نسمع منهم إلاَّ جمًا كثيرًا من الأمنيات الخادعة عن حاجاتنا الحقيقية، مثل تفسير العصر، وتقييم العلم، وتفهُّم حكمة الوفاق والاتفاق، والتغلُّب على الفقر الذي يقصم ظهرنا منذ زمان طويل"[٣٩].

أمَّا من يُنتظر منهم خيرٌ، ويؤمَّل من بابهم مخرجٌ، وتشرئبُّ الأعناق وجهتهم مطلع كلِّ شمس، أو من يمكن أن نسمِّيهم في سياقنا هذا "بالفِدائيّين"، هؤلاء يتحلَّون بتعشُّق العلم، ثم يتَّصفون بعشق العلم، وإذا ما أقاموا صروحا عملية أقاموها على أكتاف عاشقةٍ للعلم، وأبلغُ وصف لهم أنهم "أبطال الإدراك والبصيرة واللدنيَّات، الفاهمين للعصر، والعاشقين للحقيقة، بشُبوب اشتياقهم للعلم، والمحدَودَبة ظهورهم تحت ثقل المعضلات الحقيقية الحاضرة والقلق المتصوَّر في المستقبل، والمنعكسة دواخلهم على سلوكهم وتصرُّفاتهم، والمتنفِّسين هواء قلوبهم، والمتطلِّعين دائمًا إلى ما خلف الآفاق... أبطال اللدنيات الذين يئنُّون بآلام الأجيال، إذ يسعون للنهوض بها إلى درجة معيَّنة، ويحوِّلون مستقبلها الكدِر إلى دموع في أرواحهم، فينوحون نواح أيّوب عليه السلام، ويتقاسمون معها أوجاع يومهم وغدهم، ويَشُبّون إلى العلى بالشكر باحتساب لذائذها أنعما من الحق تعالى"[٤٠].

فمثل هذه المراكز المبتغاة، ومثل تلكم الأكاديميات المأمولة، إذا لم تكن بهذا العيار، وفي هذا المستوى، وإذا لم يكن أربابها بهذه

---

[٣٩] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٣٠.

[٤٠] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٣١.

المواصفات، فلا حاجة للأمَّة إليها، وإنها لا شكَّ ستكون وبالاً عليها لا فتحًا لها؛ فالعلم في "الرؤية الكونية" الإسلامية له وظيفته، وله مهمَّته، وله شروطه، فهو ليس ترفا ولا شرفا، بل هو همَّة ورسالة، وواجب وجهاد.

في مقال بعنوان "الحركية والفكر"، يعالج فتح الله هذه العلاقة الوطيدة بين العلم والعمل، والتي هي خاصية "البراديم كولن" بلا أدنى ريب؛ وبهذا ينبِّه إلى أنه لو أنشئت مؤسَّسات للفكر، فلا بدَّ أن تكون وثيقةَ الصلة بالعمل، وهو ما سماه "العزم على العمل"، وفي هذا يقول: "إنَّ أهمَّ شيء وأشدَّه ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروريِّ أن نتحرَّك على الدوام في ظروف قاهرة نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات، ونفتح صدورنا أمام معضلات، الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومهما ضحَّينا في هذا السبيل، فإنْ لم نتحرَّك نحن، فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم"[٤١].

ولا ينهي فتح الله أسبابه الأربعة إلاَّ بالتنبيه إلى "البحث المنهجيِّ"؛ لأنه ليس كلُّ بحث في العلم "بحثا علميًّا بالضرورة"؛ إذ المنهجية لازمة من لوازم العلم الحقِّ، والفوضى لا تولِّد إلاّ فوضى مثلها، أمَّا غياب المنهجية فهادر للوقت بلا طائل، وموهِمٌ بالفكر فيما ليس بفكر، وناشرٌ لسراب البحث والحقُّ أنه ليس شيئا.

ولقد أعطى فتح الله مثالا واضحا عن مؤسَّسة افتقدت المنهجية، فكان مصيرها الزوال والانسحاق، ولذلك "لا يمكننا الحديثُ عن مبادرة

---

[٤١] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٥٧.

تتَّصف بالديمومة والمنهجية في هذا المجال" أي المجال التربويِّ العلميِّ الفكريِّ. ودليله في ذلك أنَّ "المدارس (التقليدية) -مثلا- والزوايا والتكايا التي كانت تربّي مهندسِي فكرِنا وعمال روحنا في الماضي، لم تنتج مشاريعَ تأخذ بأيدينا إلى المستقبل. وإذ لم تنجح هذه المؤسَّسات في ذلك، فإنها قد انسحقت تحت ركام أنقاضها"[٤٢].

وما من شكٍّ أنَّ هذه المؤسَّسات هي "مراكز البحث" أوان ازدهارها، وهي "الجماعات العلمية" زمن إشراقها؛ ولا عبرة بالأسماء والألفاظ، وإنما العبرة بالمحتويات والمقاصد.

مراكز، تكتب قصَّة الوجود من جديد

يمكن اعتبار كتاب "حقيقة الخلق ونظرية التطور" دستورَ المعرفة في فكر فتح الله، ففيه تبرز "أحلام الأستاذ" بما ستكون عليه مراكز البحث مستقبلا، وفيه تتضح الانحرافات التي طالت الفكر الغربيَّ من جهة، وسحقت العالم الإسلاميَّ من جهة أخرى؛ والحقُّ أنَّ مجرَّد تحليله فقرةً فقرةً يمكِّننا من رسم خريطة "للعلم والعلماء في البراديم كولن"، رغم أنَّ الكتاب ليس سوى "حلقاتٍ حوارية شفوية، أفرغت بعد ذلك"، ورغم أنه "من بواكير مؤلفات الأستاذ"، إذ صدر في السبعينيات، وقد نوقش قبل ذلك في الستينيات، إلاَّ أنه مكثَّف أيما تكثيف، ودالٌّ على المقصود أيما دلالة، وهو عنوان لما يأتي بعده في مجال المعرفة، ونظرية المعرفة، والرؤية الكونية... وغيرها.

ولعلِّي سأقتصر بقراءة بعض النماذج، بما يفي الغرض من هذا الفصل،

---

[٤٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٢٤.

تاركا التفصيل لمجاله وأوانه.

فعن كوْنِ "الظاهرة الإنسانية" ظاهرةً معقّدة، تستعصي على الفهم والبحث بالمناهج والوسائل المعاصرة، يقول فتح الله: "للوجود وللحياة ولعالم الأحياء ولاسيما الإنسان -الذي يحتل موقعًا متميزًا فيه- نواحٍ متعدِّدة تشكِّل أساسًا لعلوم مختلفة. وحتى لو تناولنا الإنسان وحده في هذا الموضوع رأينا ظهور علوم عديدة كالمورفولوجيا، والفيزيولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والطب وعلم التربية، وعلوم أخرى عديدة... وكلُّ علم من هذه العلوم اختصاص قائم بذاته، وله مختصون متفرغون له. ولكن لا يوجد للكون بأجمعه، ولا للإنسان، ولا للأحياء متخصِّصون. لذا لم يكن في الإمكان حلُّ المشكلات المتعلِّقة بالوجود وبالإنسان بهذه العلوم، أو قول الشيء النهائي والأمر الفصل فيها"[٤٣].

فالحقيقة التي ينبغي التصريح بها إذن، هي أنَّ ثلاثية "الكون، والإنسان، والأحياء" لا تزال خارج دائرة "العلوم" في تمثلها المنهجيِّ اليومَ، وهي لم تلقَ بعد مَن ينبري لها في كلياتها، وفي تركيبيَّتها، ولذا "كانت هناك حاجةٌ ماسَّة لمراكز متكاملة تستطيع تصنيف معلومات وأفكار لفهم الإنسان، وإنتاج التكنولوجيا ووضع النظريات والأفكار العامَّة التي تخاطب الشعور الجمعي وتكون في مستوى العصر وقادرة على احتضان جميع أموره وفتح الآفاق أمامه"[٤٤].

ولكن، هل يقتصر فتح الله على وصف المعضلة، أم أنه ينتقل إلى الفعل كعادته؟

---

[٤٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٩.

[٤٤] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٩.

الجواب حمله بقية النص، إذ يقول: "وأنا أتوقَّع أنَّ العديد من الكتب ستؤلَّف في هذا الخصوص في السنوات القادمة، وستطرح العديد من الأفكار البديلة في هذا الخصوص، كما ستشارك العديد من المراكز العلمية في هذا الأمر؛ لتغذِّي وجهة النظر هذه وتثريها. وسيقوم آنذاك عددٌ من المفكِّرين ومن العلماء المحظوظين بكتابة قصَّة الوجود من جديد، وسيكتشفون كلَّ شيء، وكلَّ الأحياء -ولا سيما الإنسان- من جديد، ليضعوا الحقائق حول مدى سعة عالم الإنسان أمام الأنظار، وليشرحوا بشكل واضح المواضيع التي تشكل قواعد العلم وأسسه"(٤٥).

ففي هذه الفقرة "توقُّع"، و"استشراف"، و"أمر"، و"تخطيط"... وفيها بيان لمهامِّ "مراكز البحث مستقبلا"، حتى لا تكونَ ظلا للواقع المختزَل، ولا شبحا للفكر المتخزِل؛ ولتعرِف أنَّ أمامها مهامّ كبرى، ومسؤوليات جسامًا، أمثلُها على الإطلاق "كتابة قصَّة الوجود من جديد"، و"اكتشاف كلِّ شيء، وكلِّ الأحياء، ولاسيما الإنسان من جديد"(٤٦).

وفتح الله، في منهجه الفكريِّ والدعويِّ، لا يُلغي أيَّ إيجابية مهما بدت صغيرة، ولا يسمح لنفسه ببخس "أشياء الناس"، ذلك أنه لم يقُل، شأنَ بعض القائلين: "إنَّ الغرب ومراكز البحث في الغرب اليومَ لم تحقِّق شيئا، ولم تفعل شيئا"؛ وإنما اعترفَ لها بالفضل فيما لها فضل فيه، فقال عنها: "نستطيع اليومَ أن نقول بأنَّ المختبرات الحديثة تقوم بفحص الأحياء بدقة غير مسبوقة. حتى إنَّ المادة والجزيئة والخلية أصبحت معلومة بمقياس كبير، وبدت السوائل وجميع أجزاء الخلية حتى أصغرها وأدقّها

(٤٥) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٩-٢٠.

(٤٦) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٠.

معروضة أمام الأنظار بفضل الأشعة السينية (أشعة أكس). كما قامت بعض المختبرات الحديثة وبعض مراكز البحوث بإلقاء الضوء، ليس على التركيب الماديِّ فقط لجزيئات البروتين، بل على طبيعة الأواصر التي تربط هذه الجزيئات الكبيرة بعضها ببعض وطبيعة عمل الأنزيمات التي تفرق وتركب هذه الجزيئات وتأثيرها، وكذلك القوانين السارية في الخلايا والروابط التي تربط الأنسجة التي تشكِّلها هذه الخلايا مع الأعضاء الداخلية، وطبيعة السوائل في الجسم كالدم والصفراء وعلاقاتها مع بيئتها، وكذلك تأثير المواد الكيمياوية على الجسم وعلى الشعور... كلُّ هذه الأمور أصبحت معلومة ولو نسبيًّا"[٤٧].

بل إنَّ هذا المستوى الأوَّل من العلم، للأسف لم نحقِّقه نحن في عالمنا الإسلامي برمته، ولذا "على الرغم من هذا التقدم الذي يستحقُّ كلَّ تقدير في ساحة العلم (عالميًّا)، فإنَّ من غير الممكن القول بوجود مثل هذا التقدُّم في ساحة العلم أو في المراكز العلمية في تركيا أو في أي ساحة أخرى منذ عهد التنظيمات حتى الآن. فبدلاً من البحث العلمي نرى تقليدًا أعمى، وبدلاً من التدقيق العلميِّ نرى أننا في عهد من شعارات رخيصة مرفوعة تأخذ مكان العلم"[٤٨].

ويسافر فتح الله في "حلمه الموجَّه"[٤٩] عبر الزمن، ليشخِّص عيون

---

[٤٧] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٠.

[٤٨] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٠.

[٤٩] . الحلم الموجه: مصطلح يستخدم في التخطيط الاستراتيجي؛ حيث يبدأ العقل (أو العقول المشتركة) بالحلم المفتوح، ثم يوجَّه رويدا رويدا؛ حسب المبادئ والظروف والإمكانات... إلى أن يصاغ على شكل "مخطَّط استراتيجيٍّ" محكم.

الأجيال القادمة، وهي تنظر بعين الشفقة والأسى إلى عصرنا هذا، بجميع أطيافه، وبكلِّ مكوناته، وفي جميع مستوياته، ثم يعود مهموما مغموما، ليخبرنا أنه... "لا شكَّ أنَّ الأجيال القادمة ستذكر عهدنا هذا بكثير من الأسف. ذلك لأنَّ الوجود قُدِّم في هذا العهد وكأنه عبارة عن وسط من الفوضى، وكأنَّ الأشياء لعبةٌ بيد الصدف العمياء تطوح بها ذات اليمين وذات الشمال، وكأنَّ الأحياء لقمةٌ بسيطةٌ وسائغةٌ بين الأسنان الوحشية لـ"الانتخاب الطبيعي". أمَّا الإنسان فقد هُوي بمكانته وجُعل في مقعد متفرِّجٍ نكِد الحظِّ، يتفرَّج على حلبة الموت، وحكم عليه أن يرى ويسمع ويعيش ما يجري أمامه"(٥٠).

وهذه الملاحظة تندرج ضمن "الرؤية الكونية" في أعلى صورها؛ إذ العلم ليس منفصلا عن "حقيقة الوجود"، وعن "القيمة"، وعن "المعنى"، وبخاصَّة ما كان من شأن "الإنسان" ومكانته وقدره؛ بينما الصواب أن ينظر إلى الإنسان في كلِّ علم، وفي كلِّ جهد علميٍّ، على أنه خليفة الله في أرضه، وأنه كريم، وأنه مخلوق لله، ليس إلها، ولا شيطانا، ولا مجرد شيء ومادة. وفي ذلك يقول المسيري في كتابه "دفاعًا عن الإنسان": "ثمة أسبقية الإنسانيِّ على الطبيعيِّ؛ لأنَّ الإنسان قادرٌ على تجاوز النظام الطبيعيِّ الماديِّ وعلى تجاوز ذاته الطبيعية المادية؛ ولأنَّ فيه بُعدًا غيبيًّا يستعصي على الاختزال والتشيُّؤ"(٥١).

أمَّا عن الفوضى التي يدَّعيها العلم، فإنه يمارس في غرسه لهذه الصورة أيديولوجية إقصائية خطيرة، بينما "لو تم النظر من زاوية أخرى لكان في

---

(٥٠) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٠.

(٥١) دفاعا عن الإنسان، عبد الوهاب المسيري.

الإمكان مشاهدة حقيقة وجود تساند وتعاون في كلِّ جزء من أجزاء هذا الكون، ووجود نظام وتناغم دقيق فيه، ولظهر أنَّ كلَّ شيءٍ قد خُطِّط لهدف معيَّن، ولغاية محدَّدة، وأنَّ كلَّ شيء مرتَّب ككتاب وكمعرض رائع وكامل يذهل العقول"[٥٢].

وأيديولوجية "الفوضى" للأسف، لم تبقَ حبيسة العالم الغربيِّ المتطوِّر نسبيًّا، في علوم المادَّة، وإنما انتقلت عدواها إلى واقعنا، مع تخلُّفه، بل إنَّ الذي انتقل إلينا هو مظاهر التخلُّف فقط، دون مقوِّمات النمو والنماء والتمدّن؛ من هنا وجب التأكيد على "أنَّ الوسط العلميَّ عندنا في عهد معيَّن قد جُرَّ إلى وسط من الفوضى، ورُبط بمحور معيَّن بحيث إنَّ العديد من مراكز البحوث العلمية والمختبرات انجرّت دائمًا وراء سؤال: "كيف؟" ولم يلتفت الباحثون إلى أسئلة من نوع: "لماذا؟" وأنشأ نظامُ التعليم أجيالاً لا تفكِّر إلاَّ في الإجابة على "كيف؟" ولا تفكِّر في الإجابة على "لماذا؟" أو "من؟". لذا فلم يظهر مِن هذه الأجيال أيُّ مفكِّر أو عالم على المستوى العالميِّ طوال هذه العهود"[٥٣].

لو قدِّر "للأكاديميا" أن تنشأ على أسس متينة، كالتي سطَّرها فتح الله، فإنها لن تلهو على شاطئ "الكيفيَّات" المنفصمة عن "ماذا" و"من"؟ وإلاَّ فإنَّ العجز عن "إنشاء مفكر وعالم عالمي" سيستمرُّ للأسف إلى أجَل غير مسمًّى.

ويسأل فتح الله عن المشتغلين بالعمل عندنا اليوم، وعن جدوى ما هم عليه، وهم في جامعاتهم، ومراكزهم، لكنهم أنهكوا في البحث عن

---

[٥٢] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢١.

[٥٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢١.

"كيف؟" وكفى؛ وغفلوا عن "لماذا؟ ومن؟"؛ فكان التحدِّي، على صيغة سؤال، بل أسئلة:

- "كم عالمًا استطعنا تنشئتهم لكي يستطيعوا اكتشاف أخطاء العلماء الغربيين؟
- فمثلاً كم منهم وجد في نفسه الشجاعة لكي يوضِّح خطأ نظرية داروين ونقصها وجوانبها المشوَّهة، وأنها -مثلها مثل النظريات الأخرى- يمكن مناقشتها؟
- وكم منهم استطاع تجديد فكرة أنَّ الإنسان هو أشرف المخلوقات؟"(٥٤).

ووظيفة المراكز المرتقبة، والأكاديمية المبشَّر بها، هي الجواب على مثل هذه الأسئلة، بلا تردُّد، ولا ادِّعاء، ولا غفلة، ولا وجل؛ ذلك أنه إذا لم يُجَب عنها، وعن مثيلاتها، فسيبقى التخلُّف والهوان والتبعية قدَرنا، ومصيرنا، بل ومصير البشرية قاطبة.

والمراكز التي يتصوَّرها فتح الله ليست أحادية التخصُّص، مع احترامه للتخصُّص، لكنها متعدِّدة التخصصات، متداخلة المجالات، كلية الرؤية، شمولية الفكر. ولهذا المنظور أدلة عديدة، من كتاب "نظرية التطور" منها قوله:

- "إننا إن وضعنا جانبا التساؤل حول وجود أو عدم وجود علماء دين عندنا يستطيعون تناول هذا الموضوع ومناقشته، فإنَّ التربية والتعليم الديني عندنا لم يحقق بعد الحلم الذي ساور العديدين منذ قرن تقريبا، ولم يصل

---

(٥٤) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢١.

إلى المستوى اللائق، ولم يشمل دراسة العلوم الوضعية أو في الأقل دراسة مبادئها الأساسية. وهذه حقيقة مؤسفة ومحزنة تقف عقبة أمامنا"(٥٥).

- "يقول العالم سير جيمس جينز المختص في علم الفيزياء الكوني -الذي يعد من أكبر علماء القرن العشرين، والذي يُنعت من قبل الكثيرين بأنه "آنشتاين ثان"- في كتابه "الكون المليء بالأسرار" و"الكون من حولنا" المترجمَين للغة التركية: "إنَّ الإنسان المشغول بفرع من فروع العلم يصل إلى درجة الفناء في ذلك العلم. أي إنَّ الإنسان يتشرَّب بفرع العلم الذي ينشغل به إلى درجة الفناء فيه. فلا يسمع إلاَّ بأُذُن ذلك العلم، ولا يرى إلاَّ بعينه، ولا يتكلَّم إلاَّ بلسانه، ويعيش انفعالات ذلك العلم..."(٥٦).

ثم يقول: "قام بعض العاملين في الحقل الهندسيِّ بعمل أشكال مثلثة ومربعة في صحراء شبه الجزيرة العربية وفي الصحراء الكبرى في أفريقيا وأوقدوا فيها النيران الكبيرة، فأحدثوا أنوارًا وأضوية قوية ساطعة لكي يجلبوا أنظار الكائنات الذكية الأخرى التي يرون احتمال وجودها في الكون من الذين يفكرون هندسيًا مثل الإنسان. هؤلاء العاملون في الحقل الهندسي قد ذابوا وفنوا في عالم الهندسة. ويعتقد المختصُّون في حقل الرياضيات أنَّ الصانع (جلّ وعلا) قد خلق الكون بمقاييس رياضية. وهؤلاء أيضًا فنوا في الرياضيات"(٥٧).

"أمَّا دارْون فلكونه قد قضى حياته في ملاحظة وتدقيق ودراسة الحيوانات ومتحجِّرات الحيوانات، ولم يخرج خارج إطار هذه الساحة

(٥٥) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٢.

(٥٦) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٤٤.

(٥٧) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٤٥.

فإنه نظر إلى الوجود وإلى الخلق وباختصار إلى كلِّ شيء من زاوية، ومن نافذة هذه الساحة، ومِن منظارها، واستعان بتفاسير لا يقبلها لا العلم ولا المنطق ولا العقل لكي يبرهن على فرضيته. والأمر نفسه نلاحظه عند الذين تبنّوا نظريته بتعصُّب وإصرار. وقد نبّه العالم الفلكي "جيمس جينز" إلى مخاطر التخصص مع الاعتراف بفائدته"[٥٨].

• يذكر فتح الله ضمن مقال "نظرة إجمالية إلى الإسلام"، من كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، مبدأ الإسلام، ووجهة نظره، حول التخصُّص، فيقول: "إنَّ الإسلام لا يمنع المسلمين من تعلُّم علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفضاء والطب والهندسة والإدارة العامة وإدارة الأعمال والزراعة وأمثالها، بل يحثُّهم على التخصُّص فيها وأخْذِها والاستفادة منها من أيِّ مصدر كان، لكنه لا يريد أن يبقى المسلمون تبعًا لغيرهم على الدوام، بل يحبِّذُ لهم الاستفادةَ مما عند الأجانب من هذه الأمور، ثم التخلُّصَ السريع من استجدائها، وإقامةَ عالمهم الذاتي في الأوامر الإلهية التكوينية كما في الأوامر التشريعية"[٥٩].

إذن، هذه هي العناصر الأربعة، التي يقوم عليها صرح العلم عموما، وصرح "مراكز البحث العلمي" بالخصوص؛ وأيُّ خلل في أيٍّ منها، سيكون سببا للبتر والقلَّة والعجز، وسوف لن يحقِّق الهدف المرجوَّ، ولا الغاية المتوخَّاة؛ وتكون نتيجة ذلك كارثيَّة على شتى مناحي حياة الأمَّة الإسلامية اليومَ. أمَّا لو اكتملت، وذلك هو المرجوُّ، ولا نظن بالله تعالى إلاَّ خيرا، فإنَّ الأمَّة ستعرف بحول الله ربيعا آخر في تاريخها، وستلد من

---

[٥٨] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٤٥.

[٥٩] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٨٩.

رحمها علماء أفذاذا، وحكاما مرشدين، ومحكومين راشدين، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(الرُّوم: ٤-٥).



منهج التدريس في حلق الأستاذ كولن

جبلت الأعين على النظر إلى الجانب الظاهر من جبل الثلج، واعتادت الألسن وصف مظاهر الأشياء والتغنِّي بها؛ إذ قلَّ من العقول ما ينقِّب في الأسباب، وندر من القلوب ما يتعلَّق بمسبِّب الأسباب؛ ولقد أنَّب الله تعالى علماء بني إسرائيل، بأنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الرُّوم:٧). بل إنَّ الله سبحانه، تعليما لنا وتربية، هدانا إلى اتباع الأسباب، فقال عن سيدنا ذي القرنين عليه السلام: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(الْكَهْف:٨٤-٨٥)، وقال عن الشجرة الطيبة، وعن الفرع الزكي: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(إبْرَاهِيم:٢٤).

ولقد قال الشاعر الحكيم:

ما طابَ فرعٌ أصلُه خَبيثُ ولا زَكا مَنْ مَجْدهُ حديثُ

ونسب لابن دريد قوله:

ما طابَ فرعٌ لا يطيبُ أصلهُ حمى مؤاخاةَ اللئيمِ فِعْلُهُ

لطالما زارت الوفود مشاريع الخدمة، وخطَّت كلمات صادقة، ومقالات بديعة، في بيان تميُّز هذه النقلة الحضارية عن غيرها، مبنًى ومعنًى؛ ولطالما أبهرت الجموع بالسعة والعدد والجودة والدقة... فلهجت الأفئدةُ بالدعاء للمولى الجليل أن يحفظ القائمين عليها، ويجزل لهم المثوبة والأجر، وأن يكتب انتشار تلكم الآثار في ربوع الإسلام مشرقا ومغربا.

ولعلَّ أكثر الأسئلة تردُّدا من قبل الزوار، هو: "كيف يمكن أن نستفيد من الخدمة، فكرا وفعلا؛ وهل يمكن أن نستنسخها، أم الواجب هو تكييفها؟ وكيف يتمُّ ذلك؟"

ولعلَّ الجواب يكمن في أنَّ الشجر، والتراب، والماء، والهواء... لا يمكن نقلها من بلد إلى بلد، وأنَّ الذي يمكن نقله هو "الإيمان"، و"المعرفة"، و"الحكمة"، و"الخرِّيتية"، و"العلم"، و"المنهج"، و"الخلق"... أي إنَّ الذي يمكن نقله هو من طابع "عرفاني، معرفي، معنويٍّ" محض، وليس من طبيعة مادية صلبة صلدة مصمتة؛ وإلاَّ لَما أمكن نقل الإسلام بين عصر وعصر، ولا بين مصر ومصر؛ وما انتشر الإسلام إلا بما يحمل من المعنى، وبما يرشح به من أبعاد إنسانية، روحية، إيمانية، عميقة.

ولقد قال قائل عن الأستاذ فتح الله: "من لم يعرف ليل الأستاذ لم يعرف الأستاذ"؛ ويصدق أن نضيف: "ومن لم يعرف علاقة الأستاذ بالعلم والتعليم، لم يدرك حقيقة الأستاذ، ولا دلالة الخدمة". ونختصر الخدمة في تعريف موجز، فنقول: "هي الحياة، حين تتبدَّى في صورة: مدرسةٍ للوحي المبين، والخلق المتين، والعلم الرصين". ومن ثم صدق أن نقول: إنَّ الحياة في عرف الأستاذ مدرسةٌ، وإنَّ المدرسة حياةٌ؛ لكن ليس ذلك خطابة ورصًّا للكلمات؛ ولكنها الحقيقة حين تلامس خط الزمن.

والحق أنَّ الصفة التي لا تنفك عن الأستاذ هي صفة "المجدِّد"؛ وإذا ما رمنا تفصيلا قلنا إنه مجدِّد في الدرس والتدريس، مجدِّد في الفكر والمعرفة، مجدد في المنهج والطريقة، مجدِّد لأمر الدين والتديُّن... ولكنَّ أكثر المجالات التصاقا بحياته هي مكابدة العلم، والصبر فيه وله؛ لكأنَّه تمثَّل قولة سيدنا موسى عليه السلام، للخضر عليه السلام: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ

اللّٰهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾(الكهف:٦٩).

والكتابة عن حلق الدرس في تراث الأستاذ يستدعي ملازمة ومعاينة طويلة، ولا أعرف مقالا واحدا، بله أن يكون بحثا أو دراسة باللغة العربية، تناولت هذا الركن من فكر الأستاذ؛ ولولا مقال لأحد تلامذته الملازمين له لسنوات، والذي نشر في مجلة الأمل الجديد،[٦٠] وترجمنا معانيه إلى العربية، لَما أمكن أن نخطَّ هذه الفقرات في بيان منهج الدرس والتدريس عند الأستاذ فتح الله كولن.

ولقد ارتأينا أن نعرضه على شكل نقاط، لا على شاكلة مقال مسترسل، لتعذُّر ذلك، آملين أن ينبري من يتولَّى مهمَّة اكتشاف الجانب المخفيِّ من جبل الثلج، وأن يبدع في عرض البذور والجذور والأسباب، التي بها اكتمل صرح "الخدمة"، وبغيرها لا يكون للخدمة رَوْح ولا ريح:

١-**غاية العلم**: الغاية من الدرس والتدريس عند الأستاذ تتمثل في "إيصال الإيمان إلى أفق المعرفة، وتعميق المعرفة بالمحبَّة"، فهي إذن نيل رضا الله تعالى، والاستجابة لأمره بالدعوة والإرشاد، وقياما بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢-**الإقليم الروحيُّ**: يذكر صاحب المقالة أنَّ ما يتميز به جو الدرس من روحانية وواردات وفيوضات يجعل مجرَّد الوصف الأدبي قاصرا عن إيفاء التجربة حقها ومستحقها، ولذا يصدق أن يقال عنها: "من ذاق عرف"؛ فحلقة الأستاذ ليست قسما كلاسيكيا، يملي المعلومات، ويعرض النظريات، ويجري الإمتحانات، وكفى. ولكنها إقليم روحيٌّ، ومعبدٌ

---

[٦٠] هو الدكتور د. أرغون جابان، والمقال نشر في مجلة "الأمل الجديد"، العدد: ٨٩ (يوليو-سبتمبر ٢٠١٠).

حقيق، وميدان للشحن والشحذ القلبي والعقلي على السواء.

٣-**الامتداد العثماني**: تضرب حلقة الأستاذ جذورها في التراث الإسلامي بعامَّة، والتراث العثماني بخاصَّة.

٤-**تطوير المنهج التقليدي**: مِن أصول فكر الأستاذ فتح الله أنَّه يحترم الماضي، ويرنو للمستقبل، ويعمل في الحاضر؛ وهو يبغض الاجتثات من الجذور، ويمقت التهوين من تراث الأمَّة في جميع مراحلها؛ وهو مع ذلك لا يتحجَّر، ولا يقبل التنميط في الوسائل والمناهج والآليات؛ ففي منهج الدرس، إضافة إلى استفادته من المدارس العثمانية، طور تقنيات عديدة، وأضاف مصادر جديدة، وأحدث أساليب مفيدة؛ ولقد استفاد من مناهج التربية والتعليم المعاصرة أيما استفادة، ولم يقف منها موقف المنبهر، ولا موقف الناقم.

٥-**التواضع والخلق الحسن**: من فرط تواضع الأستاذ أنه لا يستعمل ألفاظا تنمُّ عن الفرق بين العالم والمتعلم، وإنما يقول: "إننا نتذاكر مع الإخوة"، ثم إنَّ نقده لأيِّ رأي لا يأتي بأسلوب مباشر، لكن بصيغة متأدبة غير متكلفة.

٦-**رغبة الطالب، وفراسة الأستاذ**: العلم من أرفع أنواع الحبِّ والعشق؛ فمن أحبَّ تعلَّق، ومن عشق تبحَّر؛ ولذا يحرص الأستاذ دوما على أن "يقدِم الطالب إلى الدرس ببعاث من عنده، وبتوجُّه من قلبه"، وهو في ذلك يراعي أحاسيس الطلبة، ويتحسَّس نبضات قلوبهم، وخطرات أفئدتهم، بفراسته التي تحيِّر معاشريه. وفي الأثر: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» (رواه الترمذي).

٧-**اختلاف الرأي**: يعبِّر الأستاذ عن رأيه للطلبة المشاركين في

دروسه، منبّهًا أنه يمكن أن توجد آراء ووجهات نظر مختلفة لا تتعارض مـع القواعد الأساسية للدين، بل لا بد أن توجد؛ ويعلِّل ذلك بأنَّ كلَّ شخص يعتبرُ ابن الزمان من وجهٍ؛ ثم إنَّ لكل زمان واردات هامَّة حسب الفترة والظروف التي يحيط بها في تفسير جوانب الدين القابلة للتفسير (التأويل)، من جهة أخرى. والواجب على كلِّ مسلم أن يدرس ظروف زمانه الذي يعيش فيه، حاملا معه وارداته، وأن يطبق القيم التي يؤمن بها في الواقـع.

٨-**حرمة العلماء**: يرفض الأستاذ كلَّ تنقيص أو خدش في العلماء الفطاحل، ولا يسمح بأيِّ قول ينال منهم، أو يستخفُّ بهم، كأن يقال فيهم "إنهم لم يفهموا هذه المسألة" أو غيره. ومن ذلك أنه "كثيرًا ما يؤكِّد على وجوب التأدُّب تجاه أقوال ووجهات نظر العلماء في دراسة أصل من الأصول الإسلامية؛ وإلى جانب ذلك يعبر عن رأيه في المسألة، بشرط أن يوافق محكمات الدين ولايناقضها قائلاً -مثلا-: "الإمام ابن كثير هكذا قال، إلاَّ أن هناك -قاصدًا نفسه- لابن قليل وجهة نظر"، أو "للفقير والقطمير أيضًا تعليق وملاحظة"، هكذا كان يعبر عن وجهة نظره في غاية التواضـع.

٩-**التحضير للدرس**: قال العقاد عن مؤلفاته: "إنها ليست مروحة للكسالى"؛ ويصدق أن نقول عن مجالس الأستاذ: "إنها ليست صالونا للكسالى"؛ ولذا فإنَّ الطالب الملتحق بحلق الأستاذ يصل الليل بالنهار، ولا يلتفت إلى تعب ولا مرض ولا داع للنفس والهوى؛ ومن ذلك أنه "يذاكر الطالب جيدًا قبل المجيء إلى الدرس، وقد يستغرق ذلك سواد الليل كله؛ حيث يحلل العبارات ويحاول فهمها، مستعينًا بالمنجد،

والمعجم الوسيط، ولسان العرب، وتاج العروس بدايةً، ثم بسائر الكتب من الفقه، والتفاسير، والشروح، وسائر المصادر والمراجع التي يحتاج إليها الطالب، ويبذل قصارى جهده في تحضير الدروس". وأثناء الدرس يقدِّم الطلبة مادتهم في حضرة الأستاذ، وهو يقوم من آن لآخر بتوضيح ما خفي، ويجيب على الأسئلة، ويضيف وجهة نظره وتعليقاته على آراء العلماء الذين يقرأ لهم، بأدب واحترام بالغين".

١٠-**تمرُّس المعاجم والقواميس**: يعوِّد الأستاذ طلبته على استخدام المعاجم لتعلم اللغة بطريقة صحيحة، وضبط الكلمات مع فوارقها الدّقيقة. ويذكر أنَّ بديع الزمان النورسي كان يحفظ من القاموس المحيط عن ظهر الغيب أكثر من ألفي صفحة، حفظا متقنا.

١١-**العلاقة بالكتاب**: ليس مثل الكتاب مدرِّسا ومعلِّما؛ ومن ثمَّ حرص الأستاذ على ربط طلبته بأمّهات المصادر، إضافة إلى مدارستها في الحلق؛ فحين يجد الأستاذ أنَّ ثمة كتابا جديرا، وهو ليس مما قرِّر في الحلقات، يأذن لطلبته بتلخيصه، ثم عرضه على المجموع؛ وبهذا عالج معضلة كثرة الكتب وندرة الوقت.

١٢-**اختيار الكتاب**: عندما ينوي الأستاذ تدريس كتاب في مجال ما يقول لطلبته: "هناك كتب حول هذا الموضوع بهذه المميزات، وبإمكانكم أن تختاروا واحدًا منها ثم ندرسه"، وأحيانًا يوجه الإخوةَ إلى كتاب معيّن لما رآه مهمًّا، ذاكرًا لهم مميزاته. وهو حريص على أن يُظهر الطلبة شوقهم لمطالعة هذا الكتاب، ومن ثم يتخذه مقررًا لهم يدرَّس في الحلق. وقد يتوافق أحيانًا اختيارُ الطلبة والأستاذ لكتاب واحد.

١٣-**منهج التلخيص**: يصل حجم المادة الملخَّصة إلى عُشر الكتاب

عادة، لا يزيد على ذلك، وقد ينقص؛ ويتم العرض أمام الطلبة الآخرين، ويردفه الأستاذ بملاحظات، أو إضافات، أو يثير حوارا حول مسألة معينة؛ حتى يكون الجميع قد استوعب روح الكتاب الملخَّص، دون أن يضطروا إلى مطالعته كلية.

١٤-**علم السؤال**: الأستاذ فتح الله سؤول، محبٌّ لإعمال العقل في استثارة أسئلة جديرة؛ وهو يدفع طلبته إلى ذلك، ويشجّعهم في ذلك؛ ويؤكد على أن تكون الأسئلة المطروحة "مفيدة، عميقة، مناسبة للسياق"، كما أنَّه يتمعَّض من تكرار نفس السؤال، وهو دوما يستشهد بالأثر الذي جاء فيه: "حسن السؤال نصف العلم".

١٥-**مواعيد الدرس**: تعقد جلسات الدرس عمومًا بين صلاتَي الفجر والظهر، وفي أحايين كثيرة تعقد بعد الظهر أيضًا. وفي فترات كان الدرس يبدأ بعد الفطور بقليل ويستمر حتى الظهر، وفي أخرى يبدأ بعد الفجر مباشرة حتى الفطور ويستمر بعده. وقد سبق أن عُقدت مجالس للدروس قبل صلاة الفجر بساعة، واستمرَّت حتى الأذان، فكتاب "تحفة الأحوذي" مثلاً، قد تمت قراءته في هذه الفترات التي قبل صلاة الفجر بساعة وحتى الأذان. ولقد تمت قراءة كتاب "كنز العمال" بجميع أجزائه في رمضانٍ واحد، في المجالس التي بعد صلوات الفجر والمغرب والتراويح والسحور، ولقد تستغرق الجلسة ساعات طويلة.

١٦-**الخطأ في الدرس**: كيما يتفادى الطالب الخطأ في قراءة النص المكلَّف به فإنه يذاكره بحيث لا يخطئ إعرابيًا أو ينطق الكلمات خطأً، ولذا يستعين بالكتب التي أَلِّفت في هذا المجال عند اللزوم، إذ إنَّ قراءة نصوص القرآن فالحديث النبوي وتلفُّظ أسماء الرواة صحيحًا خاليًا من

الخطأ من الأمور التي يشدِّد عليها الأستاذ كثيرًا، ويعبِّر عن اهتمامه بها بقوله: "قد تخطئون في قراءة نصوص عربية، ولكن لا تخطئوا في قراءة الآيات". وإذا ما أخطأ الطالب صحَّح الأستاذ الخطأ في غاية الرفق والخجل؛ حيث يهمس بالصحيح همسًا.

١٧-**القراءة التحقيقية**: لا تقرأ المصادر أثناء الدرس قراءة رتيبة جافة؛ فالأستاذ أثناء المطالعة يحلل، ويقارن، ويحقق، وينقد... فيعطي للنص المقروء نفَسا جديدا؛ وهو يعلِّم طلبته فقه التنزيل جنبا إلى جنب مع فقه التأويل؛ ولقد يستدعي مرجعا أو أكثر للتدقيق في مسألة عنَّت، أو إشكال حصل. وهو مع ذلك يستحثُّ فكر طلبته، ويدفعهم للحرية في التعبير عن الرأي بأدب جمٍّ. ويحرص على أن يتم تنقية واردات العصر من خلال هذه المصافي، والوصول بها إلى تأويلات جديدة.

١٨-**لكلّ فنٍّ منهجه**: درَّس الأستاذ اللغة بفروعها، والفقه والأصول، والتفسير والحديث... وغيرها؛ وهو في كلّ فنٍّ يبدع منهجا لائقا به، معتبرا في ذلك نوعية المصادر، وملكات الطلبة، والحاجة العملية، والسياق الزماني والمكانيِّ... وغير ذلك.

١٩-**فوائد مطالعة أمهات المصادر في حلق الدرس**: لا شكَّ أنَّ قراءة النصوص التراثية، والمكابدة في فهمها، يكسب الطالب ملكات عديدة، منها: تغلب الطالب على مخاوفه إزاء النصوص، وتعوُّده على المصادر؛ وتطوير ملكات القراءة السلسة المنسابة؛ والتمكُّن الطالب من التبحر في الكتب الأساسية أكثر فأكثر.

٢٠-**الدعاء والدرس**: للأستاذ مع الدعاء في حياته نفحات؛ ومن ذلك أنَّه لا يغادر الدرس ابتداء وانتهاء؛ فهو يستهلُّ درسه بالدعاء الملحِّ،

وبالتضرُّع إلى الله أن يفتح عليه وعلى طلبته بالفهم واليقين؛ ولقد حُفظت العديد من الأدعية التي ألفها هو بنفسه، واعتاد على قراءتها أول الدرس. من ذلك قوله: "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهمَّ ربنا زدنا علمًا وإيمانًا ويقينًا وتوكلاً وتسليمًا وتفويضًا وثقةً واطمئنانًا واعتمادًا عليك، وإخلاصًا ووفاءً وصداقةً ومعرفةً ومحبةً وعشقًا واشتياقًا إلى لقائك، وعفةً وعصمةً وفطانةً وحكمةً وحافظةً دائمةً، وصحةً دائمةً كاملةً، وعافيةً دائمةً كاملةً، وقلبًا سليمًا. اللهمَّ حولاً وقوةً من حولك وقوتك، يا أرحم الراحمين".

٢١-**وصية الأستاذ لطبته**: نُقل عن الأستاذ أنه قال لبعض طلبته: "أنا ليس لي عليكم من حقٍّ، وإن كان لي ذلك كنت طلبتُ منكم أن تقوموا بمهمَّة تدريس الطلبة حتى تقبض أرواحكم..". فمهما كبر الطلبة وأصبحوا أساتذة كان يوصيهم الأستاذ بأن يبقوا طلبة دوما، وذلك بذكره مثال نور الدين الهيثمي الذي تتلمذ على يد شيخه زين الدين العراقي طوال حياته. وأحيانًا كان يقول مداعبًا الطلبة: "إنَّ الملائكة تقبض أرواح طلبة العلم بمناولتهم العسل والقشدة، ومن غير أن تؤلمهم" حاثًّا إياهم على أن يبقوا طلبة دائمًا، وعلى شوق التعلم ولهفه أبدا. ثم على أن يلازموا التعليم وتنظيم حلق الدرس طول حياتهم؛ حتى لا ينقطع حبل العلم والخير بحول الله تعالى.



قائمة الكتب التي درَّسها الأستاذ

لا شكَّ أنَّ حصر جميع الكتب التي درَّسها الأستاذ، على مدى عقود، وفي أفواج متعاقبة، يكاد يكون أمرا مستحيلا؛ غير أنَّه يسجَّل أنَّ الكثير منها درَّسه الأستاذ مرات عديدة، على أفواج مختلفة؛ ثمَّ إنَّ الأستاذ -لولا مراعاته لملكات وقدرات طلبته- لكان الشأن غير هذا الشأن، ولكَم عبر عن رغبته في تدريس جميع ما اشتهر في فنٍّ من الفنون، من جميع المذاهب والمشارب والأعصار والأمصار؛ لكن الظروف لا تسمح.

ثم إنَّ القارئ لقائمة مؤلفات الأستاذ قد يتوهَّم أنَّه تراثي صرف، إلاَّ أنَّ الصواب هو التذكير بأنَّه قد التهم مصادر في الفلسفة والفكر، وحتى الكثير من كتب الفيزياء والكمياء وغيرها؛ وهو كلما وجد كتابا ذا شأن في علم من العلم، حوَّله إلى أحد طلبته ليلخِّصه في الحلقة الدراسية؛ وبهذا جمع بين الالتزام التراثيِّ المكثف، والانفتاح العصريِّ الممنهج. ولعلَّ من المناسب -بعد هذا العرض لمنهج الدرس عند الأستاذ- أن نورد قائمة أولية لِما درَّسه الأستاذ في حلقه، داعين من الله تيسير السبل لغربلتها، وإنما يكفي أن تُعطَى صورة شفافة عن الواقع، لا أن تصاغ صورة مثالية لما قد يحتاج إلى بحث متخصص، من عالم متخصص. والقائمة، حسب الفنون، هي كالآتي:

التفسير وعلوم القرآن

- تفسير الجلالين (١ مجلد)، جلال الدين المحلّي، وجلال الدين السيوطي.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢ مجلد)، نصر الدين عبد الله بن عمر

البَيضاوي (٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

- روائع البيان تفسير آيات الأحكام (٢ مجلد)، محمد علي الصابوني.
- مختصر تفسير القرآن العظيم (٣ مجلد)، تأليف: ابن كثير، اختصار: محمد علي الصابوني.
- مقدمة الكشاف، الزمخشري (١١٤٤).
- في ظلال القرآن (٦ مجلد)، سيد قطب (١٩٦٦م).
- كلّيات رسائل النور (١٤ مجلد)، بديع الزمان سعيد النورسي (١٩٦٠م).
- تفسير حَقْ دِيني قُرآن دِيلِي (Hak Dini Kur'an Dili) (١٠ مجلد)، أَلْماليلي حمدي يازير.
- الإقناع في القراءات السَّبْع (٢ مجلد)، أبو جعفر أحمد بن علي بن أحد بن خلف الأنصاري (٥٤٠م / ١١٤٥م).
- تأويلات أهل السنة، الإمام الماتريدي (٩٤٤).
- مناهل العرفان (٢ مجلد)، الزرقاني.

الحديث

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وأيامه (صحيح اليخاري).
- عمدة القاري في شرح البخاري (٢٠ مجلد)، بدر الدين العيني (٨٥٥ هـ/١٤٥١ م).
- فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٤ مجلد)، ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ/١٤٤٨م).

- المسند الصحيح (صحيح مسلم) (٥ مجلد)، أبو الحسين مسلم بن حجاج (٢٦١ ه/٨٧٤ م).
- السنن (سنن أبي داوود) (٤ مجلد)، أبو داوود السجستاني (٢٧٥ هـ/٨٨٨ م).
- بذل المجهود في حلّ أبي داوود (١٠ مجلد)، خليل أحمد السهارنفوري (١٣٤٦ ه/ ١٩٢٧م).
- المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داوود (١٠ مجلد)، محمود محمد خطاب السبكي (١٣٥٢ ه/١٩٣٣م).
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي).
- تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي (١٠ مجلد)، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (١٣٥٣ هـ/١٩٣٤م).
- الموطأ (٢ مجلد)، الإمام مالك بن أنس (١٧٩ هـ/٧٩٥م).
- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (٥ مجلد)، منصور علي ناصف.
- عقود جواهر المنيفة (٢ مجلد)، مرتضى الزبيدي.
- كنز العمّال (١٦ مجلد)، علي المتّقي (٩٧٥ هـ/١٥٦٧ م).
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين (١ مجلد)، زكريا النووي (٦٧٦ هـ/١٢٧٧م).
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢ مجلد)، القاضي عياض (٥٤٤ هـ/١١٤٩م).
- اللؤلؤ والمرجان (٣ مجلد)، محمد فؤاد عبد الباقي.
- الباعث الحثيث (١ مجلد)، أحمد محمد شاكر.

- مقدمة التجريد الصريح في أصول الحديث (Tecrid-i Sarih Mukaddimesi) (١ مجلد)، أحمد ناعم-كامل ميراث.

الفقه الإسلامي

- المختصر (١)، القدوري (٤٢٨ هـ/١٠٣٧ م).
- الاختيار لتعليل المختار (١ مجلد)، أبو الفضل الموصلي (٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م).
- الهداية (٢ مجلد)، أبو الحسن برهان الدين المرغيناني (٥٩٣ هـ/١١٩٧م).
- ملتقى الأبحر (١ مجلد)، إبراهيم بن محمد الحلبي (١٤٥٩ - ١٥٤٩).
- الهدية العلائية (في الفقه الحنفي).
- فتح القدير في شرح الهداية، ابن الهمام.
- الفقه الإسلامي وأدلّته (٩ مجلد)، وهبة الزحيلي.
- الفقه الحنفي وأدلّته (٣ مجلد)، أسعد محمد سعيد الصاغرجي.
- مرآة الأصول (١ مجلد)، ملاّ خسرَو (١٤٨٠).
- الوجيز في أصول الفقه (١ مجلد)، عبد الكريم زيدان.
- الموافقات (٤ مجلد)، الشاطبي (٧٨٠).
- المدخل (١ مجلد)، سيّد بك (باللغة العثمانية).

التصوف

- الرسالة القشيرية في علوم التصوف (١ مجلد)، الإمام القشيري (١٠٧٢).
- المكتوبات (٢ مجلد)، الإمام الربّاني السرهندي.

- الرعاية لحقوق الله (١ مجلد)، الحارث المحاسبي (٨٥٧).
- إتحاف السادة المتّقين في شرح إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (١٤ مجلد)، مرتضى الزبيدي.
- نفحات الأُنْس، عبد الله جامي (١٤٩٢/٨٩٨).
- الرياضة التصوفية، عبد الحكيم الأرواسي.

اللغة العربية

- أمثلة.
- بناء (في الصرف)
- مقصود (في الصرف)
- عِزِّي (في الصرف والنحو واللغة)، عزّ الدين عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجاني (١٢٥٧).
- عوامل (في النحو)، الإمام البِرْكِوِيّ (١٥٧٣/٩٨١).
- الكفاية، ابن حاجب (١٢٤٩/٦٤٦).
- الفوائد الضيائية في شرح الكفاية (ملاّ جامي)، عبد الرحمن جامي (١٤٩٢/٨٩٨).
- النحو الواضح (٢ مجلد)، علي جارم – مصطفى أمين.
- شرح ابن عقيل على الكفاية لابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل (٧٢٩).
- جامع الدروس العربية، مصطفى الغلياني.
- مبادئ الدروس العربية، محمد محي الدين عبد الحميد.
- المنتخب والمقتضب في قواعد الصرف والنحو (٢ مجلد)، محمد

ذهني أفَندي (باللغة العثمانية).

- تعليم اللغة العربية بطريقة حديثة (٥ مجلد)، فتح الله كولن.

البلاغة

- تلخيص المفتاح، الخطيب القزويني (١٣٣٨).
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديـع، أحمد الهاشمي.
- البلاغة الواضحة، علي جارم – مصطفى أمين.

علم الكلام

- شرح العقائد النسفية، سعد الدين التفتزاني.
- العقائد الخيرية، محمد وهبي أفندي.
- كليات رسائل النور، بديـع الزمان النورسي.



الصورة القلمية للأكاديميا المنشودة

إذ أحاول رسم "صورة قلمية لمراكز البحث العلمي"، و"للأكاديميا" بالتبع؛ من وجهة نظر الأستاذ فتح الله كولن، أجدُ من المناسب أن أذكِّر بالعنوان الذي استوحيتُ منه هذه الدلالة، وهو "الصورة القلمية لرجل القلب"، الذي يقول الأستاذ في مستهلِّه، ملخِّصا الأبعاد التي نحن بصددها: "رجلُ القلب بأفقه وإيمانه وتصرُّفاته، يمثِّل بطولة الروح والمعنى. إنَّ عمقه وسعته ليسَا من ناحية معلوماته ومكتسباته، بل بِغِنى قلبه وصفاء روحه وقربه من الحقِّ تعالى. فقيمة المعارف المطروحة أمامه كعلوم هي بنسبة إرشاد الإنسان إلى الحقيقة"[٦١].

ويجمل أن تتخذ هذه العبارة شعارا، وتعريفا، وعنوانا، ورمزا... للأكاديميا الجديدة، بل لكلِّ أكاديميا رشيدة؛ إضافة إلى النقاط التي سنوردها، مستنبطة من نصوص الأستاذ وكتاباته، مرتبة حسب المصطلح المفتاح، ليسهل التعامل معها، والبحث فيها بيسر:

فالصورة القلمية للأكاديميا المخطَّط لها استراتيجيا، هي بحول الله كما رسمت في هذه القائمة، ضمن هذه النقاط، مرتبة ألفبائيا؛ وهي:

أبطال الإدراك والبصيرة واللدنيات: ينتمي إليها من يصدق فيهم وصف "أبطال الإدراك والبصيرة واللدنيات".

الأحياء: يختص فيها البعض لدراسة الكون والإنسان والأحياء في كليتهم وشموليتهم.

---

[٦١] مقال "صورة قلمية لرجل القلب"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩).

الاختراع: يتخرج فيها مكتشفون ومخترعون، في شتى المعارف والعلوم.

الأخطاء: يتم فيها اكتشاف أخطاء العلماء الغربيين، وبخاصة ما كان له أثر على الرؤية الكونية.

الإدراك اللائق: تتبنى إدراكا لائقا بالتفكير العلمي الصحيح.

الآراء المسبقة: لا يتخذ فيها أي موقف على أساس من التعصب، أو الآراء المسبقة، أو التقليد... كل حكم يستند إلى المعقولية.

الاستلهام والاستنباط: لا ينبغي أن تشل ملكة الاستنباط والاستلهام لدى الباحث، بسبب التخصص أو غيره.

الاستيحاش: ترفض الانحراف والاستيحاش، المتمثل في التنكر للدين والقيم.

الأسْر:

- لا ينبغي أن ترتبط بأي تيار فلسفي؛ لكي لا تكون أسيرة.
- متحررة عن الرغبات والأهواء.

الأسئلة الجديدة: تكون المعرفة الجديدة فيها، سلّما لأسئلة جديدة، وحقول جديدة.

الآفاق: تنعكس دواخل الباحثين على سلوكهم وتصرفاتهم، والمتنفّسين هواء قلوبهم، والمتطلعين دائمًا إلى ما خلف الآفاق.

الإقصاء: لا تحمل أي مشاعر للعداء أو الخصام أو الإقصاء.

الاكتشاف:

- يتخرج فيها مكتشفون ومخترعون، في شتى المعارف والعلوم.
- يتم فيها اكتشاف أخطاء العلماء الغربيين، وبخاصة ما كان له أثر على الرؤية الكونية.

آلام الأجيال: يئن من فيها بآلام الأجيال، ويحملون هم الأمة ويتقاسمون معها أوجاع يومهم وغدهم.

الإله: ليس العلم إلها، ولا هو بديل عن الإله.

امتلاك الحقيقة: لا تدعي أنها ستقول القول الأخير، ولا القول الفصل، ولا أنها تملك كل الحقيقة.

الأنبياء: تسير على آثار الأنبياء والمرسلين.

الانحراف: ترفض الانحراف والاستيحاش، المتمثل في التنكر للدين والقيم.

الإنسان:

- الهدف منها هو "تأمين سعادة البشرية وكرامتها دنيا وآخرة"، فإن فقدت الهدف صارت شيطانا رجيما.
- تصنف معلومات وأفكارا لفهم الإنسان. ووضع النظريات العامة.
- يختص فيها البعض لدراسة الكون والإنسان والأحياء في كليتهم وشموليتهم.
- تقوم على أساس من العلاقة العميقة العظيمة بين الله والكون والإنسان.
- ينظر فيها إلى الإنسان، في أي علم كان، على أنه خليفة لله في الأرض.

الانفصام:

- تتزاوج العلوم الوضعية مع العلوم الكونية الماورائية الغيبية، فلا انفصام ولا تعارض.
- ضمنها يلتئم شمل العلم بالعمل، والفكر بالحركية، في تناغم

عجيب.

- مصادر المعرفة فيها، هي: الحواس، والعقل، والوحي، جنبا إلى جنب.
- يتحد العلم مع الخلق الحسن، ليصلا إلى أعماق كبيرة.
- يكون فيه الدين والعلم شقيقان، لا انفصام بينهما.

الأهواء: متحرر عن الرغبات والأهواء.

أوجاع اليوم والغد: يئن مَنْ فيها بآلام الأجيال، ويحملون همّ الأمة ويتقاسمون معها أوجاع يومهم وغدهم.

الأيديولوجية: ليست واجهة لأي أيديولوجية.

البحث: توفِّر الجو الملائم للبحث والتأليف.

البركة: مكان مبارك، مثل المعبد.

البرودة: يحمل فيها الجميع هما معرفيا، ولا مكان للبحث البارد والمحايد.

البيئة:

- تتمثل فيها: البيئة الصالحة، وعشق العلم، وعزم العمل، والمنهجية... جنبا إلى جنب.
- توفِّر الجو الملائم للبحث والتأليف.
- هي بيئة صالحة، ضمن بيئة صالحة.
- هي حلقة في سلسلة، وليست منفصلة عن البيئة: المدرسة، الشارع، الإعلام...

التأليف: توفِّر الجو الملائم للبحث والتأليف.

التحضير: التحضير لها لا يكون بالكلام، والخطابة، والادعاء... لكن،

بتوفير الأسباب، والظروف، والبيئة.

التخصص:

- لا يكون التخصص سجنا للفهم والمنهج.
- لا ينبغي أن تشل ملكة الاستنباط والاستلهام لدى الباحث، بسبب التخصص أو غيره.
- تؤوي الباحثين المتخصصين في فروع المعارف المختلفة، تخصصا دقيقا.
- تعمل بشكل جماعي، أي على صورة جماعات علمية، بينية التخصصات.

الترف الفكري: لا تغرق فيما لا طائل منه، ولا نفع، فلا وقت للترف الفكري.

التساند: تنظر إلى الكون على أنه كل متساند متعاون، لا مكان للفوضى فيه.

التشريفات: تتنزه عن التشريفات، والمظاهر...

التصرفات: تنعكس دواخل الباحثين على سلوكهم وتصرفاتهم، والمتنفسين هواء قلوبهم، والمتطلعين دائمًا إلى ما خلف الآفاق.

تصنيف المعلومات: تصنف معلومات وأفكارا لفهم الإنسان. ووضع النظريات العامة.

التعاون: تنظر إلى الكون على أنه كل متساند متعاون، لا مكان للفوضى فيه.

التعصب:

- لا يتخذ فيها أي موقف على أساس من التعصب، أو الآراء

المسبقة، أو التقليد... كل حكم يستند إلى المعقولية.

- التعصب، ينبذ الفكر المتعصب.

التفاصيل: لا يهمل أيَّ تفصيل مهما بدا صغيرا، في مصادر المعرفة.

التفكير العلمي: تتبنى إدراكا لائقا بالتفكير العلمي الصحيح.

التقليد: لا يتخذ فيها أي موقف على أساس من التعصب، أو الآراء المسبقة، أو التقليد... كل حكم يستند إلى المعقولية.

التناغم: ضمنها يلتئم شمل العلم بالعلم، والفكر بالحركية، في تناغم عجيب.

التنكر للدين: ترفض الانحراف والاستيحاش، المتمثل في التنكر للدين والقيم.

التواضع: تجمع بين الحركة الدائمة الدائبة، والعقول السائلة المستكشفة، والقلوب المتقبلة المتواضعة.

التيار الفلسفي: لا ينبغي أن ترتبط بأي تيار فلسفي، لكي لا تكون أسيرة.

الجماعة العلمية:

- لا تقوم على أسماء مفردة منبثة، بل على أساس جماعات علمية، من بين أعضائها عباقرة ومواهب بارزة.
- تعمل بشكل جماعي، أي على صورة جماعات عملية، بينية.

الجماهير:

- تسعى جاهدة لنشر حب العلم وعشق الحقيقة لدى الجماهير.
- مفتوحة الأبواب على الجماهير، ولا تقتصر على النخبة فقط.

الحاضر: يتم الاشتغال في المعضلات الحقيقية الحاضرة، مع القلق المتصور في المستقبل.

حب العلم: تسعى جاهدة لنشر حب العلم وعشق الحقيقة لدى الجماهير.

الحب والمحبة: تعاد مفاهيم أساسية مثل "الحب والمحبة" إلى ساحة البحوث العلمية، من جديد.

الحركة: تجمع بين الحركة الدائمة الدائبة، والعقول السائلة المستكشفة، والقلوب المتقبلة المتواضعة.

الحرية: تتميز بالحرية، في إطار من الضوابط القيمية.

الحزب:

- لا تكون وسيلة لسياسة أو لمنفعة حزبية.
- ليس ملكية لأي جهة، أو حزب، أو فرد.

الحقول الجديدة: تكون المعرفة الجديدة فيها، سلما لأسئلة جديدة، وحقول جديدة.

حقيقة الوجود: ليس العلم منفصلا عن حقيقة الوجود، وعن القيمة، وعن المعنى.

الحلول: لا تشتغل بالمناقشات البيزنطية، بل يؤول مَنْ فيها للحلول والمخططات.

الحواس: مصادر المعرفة فيها، هي: الحواس، والعقل، والوحي، جنبا إلى جنب.

الخصام: لا تحمل أي مشاعر للعداء أو الخصام أو الإقصاء.

الخلق الحسن: يتحد العلم مع الخلق الحسن، ليصلا إلى أعماق كبيرة.

خليفة الله: ينظر فيها إلى الإنسان، في أي علم كان، على أنه خليفة الله في الأرض.

الدين:

- ليس الدين أفيونا، ولا هو مخدّر للشعوب، بل هو نور وأي نور.

• يكون فيها الدين والعلم شقيقان، لا انفصام بينهما

الذوق الفنّي: يتسم روادها جميعهم، بالفكر الرياضي، وبالذوق الفني.

الربّانية: سمته الأساس هي "الربانية".

الرسالة: يميزها الروح، والخلق، والمعنى، والغاية، والرسالة.

الرغبات: متحررة عن الرغبات والأهواء.

الروح: يميزها الروح، والخلق، والمعنى، والغاية، والرسالة.

الرؤية الكونية:

• لا تخضع للرؤية الكونية المادية الوضعية.

• يتم فيها اكتشاف أخطاء العلماء الغربيين، وبخاصة ما كان له أثر على الرؤية الكونية.

• تقوم على أساس من العلاقة العميقة العظيمة بين الله والكون والإنسان.

رؤيتنا الحضارية: تنسجم نظمها ومنهجيتها مع مقوماتنا الذاتية، ورؤيتنا ومبادئنا الحضارية.

السعادة: الهدف منها هو "تأمين سعادة البشرية وكرامتها دنيا وآخرة"، فإن فقدت الهدف صارت شيطانا رجيما.

السلوك: تنعكس دواخل الباحثين على سلوكهم وتصرفاتهم، والمتنفسين هواء قلوبهم، والمتطلعين دائمًا إلى ما خلف الآفاق.

السنة: مصادر المعرفة فيها، هي: الحواس، والعقل، والوحي، جنبا إلى جنب.

السنن الكونية: يراعى فيها الشريعة الفطرية، والسنن الكونية، ولا تؤسس خارجها.

السؤال:

- تجمع بين الحركة الدائمة الدائبة، والعقول السائلة المستكشفة، والقلوب المتقبلة المتواضعة.
- لا تشتغل بسؤال: كيف؟ بل عليها أن تلج إلى أغوار: لماذا؟ ومن؟

السياسة: لا تكون وسيلة لسياسة أو لمنفعة حزبية.

الشريعة الفطرية: يراعى فيها الشريعة الفطرية، والسنن الكونية، ولا تؤسس خارجها.

الشكر: يَشُبّ الباحثون فيها إلى العلى بالشكر باحتساب لذائذها أنعما من الحق تعالى.

الشيطان: الهدف منها هو "تأمين سعادة البشرية وكرامتها دنيا وآخرة"، فإن فقدت الهدف صارت شيطانا رجيما.

الصلاح: لا بدَّ من مقصد النافعية والصلاح، لا النفعية المادية فقط.

صورة العلم: مرتبطة أشد الارتباط بـ"صورة العلم" عند الأستاذ.

الضخامة: مهما بلغت من الضخامة، لن تكون "الأخيرة"، فهمة فتح الله لا تعرف النهاية.

العبقرية: لا تقوم على أسماء مفردة منبثة، بل على أساس جماعات علمية، من بين أعضائها عباقرة ومواهب بارزة.

العداء: لا تحمل أي مشاعر للعداء أو الخصام أو الإقصاء

عزم العمل: تتمثل فيها البيئة الصالحة، وعشق العلم، وعزم العمل، والمنهجية... جنبا إلى جنب.

عشق الإله: يرسو على أساس متين، هو عشق الإله، وعشق الحقيقة.

عشق الحقيقة:

- تسعى جاهدة لنشر حب العلم وعشق الحقيقة لدى الجماهير.
- يرسو على أساس متين، هو عشق الإله، وعشق الحقيقة.
- ينتمي إليها من يصدق فيهم وصف "الفاهمين للعصر".

عشق العلم: تتمثل فيها: البيئة الصالحة، وعشق العلم، وعزم العمل، والمنهجية... جنبا إلى جنب.

العقل: مصادر المعرفة فيها، هي: الحواس، والعقل، والوحي، جنبا إلى جنب.

العقلانية: لا ينجر وراء التيار الوضعي، ولا العقلاني.

العلاقة بالجامعة: تكون خلفية للجامعات، حتى لا تتحول هذه الجماعات إلى آلات لإنتاج الأفكار النمطية.

العلم:

- العلم كله نور، إلا ما انحرف به أصحابة، فلا يحسن أن يسمى علما.
- لا فصل بين العلم والقيم.
- ليس العلم إلها، ولا هو بديل عن الإله.
- يكون فيها الدين والعلم شقيقان، لا انفصام بينهما.

العلوم الكونية: تتزاوج العلوم الوضعية مع العلوم الكونية الماورائية الغيبية، فلا انفصام ولا تعارض.

العلوم الوضعية:

- تتزاوج العلوم الوضعية مع العلوم الكونية الماورائية الغيبية، فلا انفصام ولا تعارض.
- تحوي جانبا بارزا من العلوم الوضعية، ولا تهمل هذه العلوم مهما

كانت المبررات.

العمل الجماعي: تعمل بشكل جماعي، أي على صورة جماعات عملية، بينية.

الغاية: يميزها الروح، والخُلق، والمعنى، والغاية، والرسالة.

فتح الله:

- مرتبطة أشد الارتباط بـ"صورة العلم" عند الأستاذ.
- مهما بلغت من الضخامة، لن تكون "الأخيرة"، فهمّة فتح الله لا تعرف النهاية.

الفرد: تهتم بما يفيد الفرد والمجتمع على السواء، فلا تعارض.

الفردية: لا تقوم على أسماء مفردة منبثة، بل على أساس جماعات علمية، من بين أعضائها عباقرة ومواهب بارزة.

الفكر الرياضي: يتسم روادها جميعهم، بالفكر الرياضي، وبالذوق الفني.

فهم العصر: ينتمي إليها من يصدق فيهم وصف: الفاهمين للعصر...

الفهم: لا يكون التخصص سجنا للفهم والمنهج.

الفوضى:

- لا لنظريات "الفوضى"، ولا لسخافات "ما بعد الحداثة"، نعم للمعيار والقيمة.
- ينظر إلى الكون على أنه كل متساند متعاون، لا مكان للفوضى فيه.

القرآن: مصادر المعرفة فيها، هي: الحواس، والعقل، والوحي، جنبا إلى جنب.

قصة الوجود: تكتب فيها قصة الوجود من جديد.

القلق المعرفي: يتم الاشتغال في المعضلات الحقيقية الحاضرة، مع

القلق المتصور في المستقبل.

القول الأخير: لا تدعي أنها ستقول القول الأخير، ولا القول الفصل، ولا أنها تملك كل الحقيقة.

القول الفصل: لا تدعي أنها ستقول القول الأخير، ولا القول الفصل، ولا أنها تملك كل الحقيقة.

القيم:

- القيم هي قلب الأكاديميا، وأساس وجودها.
- لا فصل بين العلم والقيم.
- لا لنظريات "الفوضى"، ولا لسخافات "ما بعد الحداثة"، نعم للمعيار والقيمة.
- ليس العلم منفصلا عن حقيقة الوجود، وعن القيمة، وعن المعنى.
- تتميز بالحرية، في إطار من الضوابط القيمية.

الكرامة: الهدف منها هو "تأمين سعادة البشرية وكرامتها دنيا وآخرة"، فإن فقدت الهدف صارت شيطانا رجيما.

الكون:

- يختص فيها البعض لدراسة الكون والإنسان والأحياء في كليتهم وشموليتهم.
- تقوم على أساس من العلاقة العميقة العظيمة بين الله والكون والإنسان.
- تنظر إلى الكون على أنه كل متساند متعاون، لا مكان للفوضى فيه.

كيف؟: لا تشتغل بسؤال "كيف؟" بل عليها أن تلج إلى أغوار "لماذا؟" و"من؟".

لماذا؟: لا تشتغل بسؤال "كيف؟" بل عليها أن تلج إلى أغوار "لماذا؟" و"من؟".

الله: تقوم على أساس من العلاقة العميقة العظيمة بين الله والكون والإنسان.

ما بعد الحداثة: لا لنظريات "الفوضى"، ولا لسخافات "ما بعد الحداثة"، نعم للمعيار والقيمة.

ما وراء الوضعية: لا تردّ ما يأتي خارج دائرة العلوم الوضعية، بأي مبرر كان.

المادية: لا تخضع للرؤية الكونية المادية الوضعية.

الماوراء: الميتافيزيقا والماوراء علم أساس.

المجتمع: تهتم بما يفيد الفرد والمجتمع على السواء، فلا تعارض.

المخططات: لا تشتغل بالمناقشات البيزنطية، بل يؤول من فيها للحلول والمخططات.

المدرسة: تكون حوضا لتلاميذ يتخرجون في مدارس ناجحة، غير مقلدة.

المرسَلون: تسير على آثار الأنبياء والمرسلين.

المستقبل: يتم الاشتغال في المعضلات الحقيقية الحاضرة، مع القلق المتصور في المستقبل.

مصادر المعرفة:

- مصادر المعرفة فيها، هي: الحواس، والعقل، والوحي، جنبا إلى جنب.
- ولا تهمل أيَّ تفصيل مهما بدا صغيرا، في مصادر المعرفة.

المطالعة: تنظم برامج للمطالعة الجماعية.

المظاهر: تتنزه عن التشريفات، والمظاهر.

المعبد: مكان مبارك، مثل المعبد.

المعرفة الجديدة: تكون المعرفة الجديدة فيها، سلّما لأسئلة جديدة، وحقول جديدة.

المعقولية: لا يتخذ فيها أي موقف على أساس من التعصب، أو الآراء المسبقة، أو التقليد... كل حكم يستند إلى المعقولية.

المعنى:

- ليس العلم منفصلا عن حقيقة الوجود، وعن القيمة، وعن المعنى.
- يميزها الروح، والخلق، والمعنى، والغاية، والرسالة.

المعيار: لا لنظريات "الفوضى"، ولا لسخافات "ما بعد الحداثة"، نعم للمعيار والقيمة.

المفاهيم: تعاد مفاهيم أساسية مثل: الحب والمحبة، إلى ساحة البحوث العلمية، من جديد.

مقوّماتنا الذاتية: تنسجم نظمها ومنهجيتها مع مقوماتنا الذاتية، ورؤيتنا ومبادئنا الحضارية.

الملكية: ليس ملكية لأي جهة، أو حزب، أو فرد.

من؟: لا تشتغل بسؤال "كيف؟" بل عليها أن تلج إلى أغوار "لماذا؟" و"من؟".

المناقشات: لا تشتغل بالمناقشات البيزنطية، بل يؤول مَنْ فيها للحلول والمخططات.

المنهج: لا يكون التخصص سجنا للفهم والمنهج.

المنهجية: تتمثل فيها "البيئة الصالحة"، و"عشق العلم"، و"عزم العمل"، و"المنهجية"... جنبا إلى جنب.

الموهبة: لا تقوم على أسماء مفردة منبثة، بل على أساس جماعات علمية، من بين أعضائها عباقرة ومواهب بارزة.

الميتافيزيقا:

- الميتافيزيقا والماوراء علم أساس.
- ترفض الاتجاه الوضعي المتنكر للمميتافيزيقا.

النافعية: لا بدَّ من مقصد النافعية والصلاح، لا النفعية المادية فقط.

النخبة: مفتوحة الأبواب على الجماهير، ولا تقتصر على النخبة فقط.

النظريات: تصنف معلومات وأفكارا لفهم الإنسان، ووضع النظريات العامة.

النفعية: لا بدَّ من مقصد النافعية والصلاح، لا النفعية المادية فقط.

النماذج: تعيد للأمة نماذج مثل "ابن سينا"، و"الفارابي"، و"الخوارزمي"، و"الرازي"، و"الزهراوي"...

النمطية: إذا تحولت إلى مراكز منمطة فلتغلق أبوابها، لأن النمطية تقتل العلم والبحث العلمي.

الهدف: هو "تأمين سعادة البشرية وكرامتها دنيا وآخرة"، فإن فقدت الهدف صارت شيطانا رجيما.

همّ الأمة: يئنّ مَنْ فيها بآلام الأجيال، ويحملون همّ الأمة ويتقاسمون معها أوجاع يومهم وغدهم.

الهمّ المعرفي: يحمل الجميع هما معرفيا، ولا مكان للبحث البارد والمحايد.

الهمَّة: مهما بلغت من الضخامة، لن تكون "الأخيرة"، فهمّة فتح الله لا تعرف النهاية.

الوجود: تكتب فيها "قصة الوجود" من جديد.

الوحي: مصادر المعرفة فيها، هي: الحواس، والعقل، والوحي، جنبا إلى جنب.

الوضعية:

- لا تخضع للرؤية الكونية المادية الوضعية
- لا تنجر وراء التيار الوضعي، ولا العقلاني.
- ترفض الاتجاه الوضعي المتنكر للميتافيزيقا.



قائمة مؤلفات الأستاذ فتح الله كولن[٦٢]

العنوان باللغة التركية	العنوان مترجما إلى العربية (لا يعني أن الكتاب ترجم)	ملاحظات (الأجزاء، الترجمة...)
Sonsuz Nur.. İnsanlığın İftihar Tablosu	سلسلة النور الخالد.. محمد... مفخرة الإنسانية	(سبعة أجزاء، في سيرة النبي ﷺ مترجم إلى العربية
	الجزء الأول: النبي المرتقب	
	الجزء الثاني: من صفات الأنبياء	
	الجزء الثالث: عظمة الفطنة	
	الجزء الرابع: فن التربية وحل المعضلات	
	الجزء الخامس: الرسول ﷺ قائدًا	
	الجزء السادس: العصمة النبوية	
	الجزء السابع: السنبة النبوية	
Çağ ve Nesil Serisi	**سلسلة العصر والجيل**	(جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية في مجلة سيزنتي من العام ١٩٧٩ حتى اليوم) تسعة أجزاء
1-Çağ ve Nesil	الجزء الأول: العصر والجيل	
2-Buhranlar Anaforunda İnsan	الجزء الثاني: الإنسان في دوّامة الأزمات	
3-Yitirilmiş Cennete Doğru	الجزء الثالث: نحو الجنة المفقودة	
4-Zamanın Altın Dilimi	الجزء الرابع: شريحة الزمن الذهبية	
5-Günler Baharı Soluklarken	الجزء الخامس: أيام تتنفّس أنسامًا ربيعية	
6-Yeşeren Düşünceler	الجزء السادس: أفكار في طور الاخضرار	
7-Işığın Göründüğü Ufuk	الجزء السابع: أفق يلوح منه النور	
8-Örnekleri Kendin Bir Hrkt.	الجزء الثامن: حركة نماذجها من ذاتها	
9-Sükutun Çığlıkları	الجزء التاسع: دويّ الصمت	

[٦٢] العناوين التي ترجمت إلى اللغة العربية، نبَّهت إليها القائمة في الخانة الثالثة، بعبارة "مترجم إلى العربية"؛ وغيرها لم يترجم إلى العربية، وهو الغالب.

Ruhumuzun Heykelini Dikerken Serisi	**سلسلة ونحن نقيم صرح الروح**	(جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية لمجلة يني أميد) مترجم إلى العربية جزءان
1-Ruhumuzun Heykelini Dikerken	الجزء الأول: ونحن نقيم صرح الروح	
2-Kendi Dünyamıza Doğru	الجزء الثاني: ونحن نبني حضارتنا	
Kalbin Zümrüt Tepeleri Serisi	**سلسلة التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح**	(جمهرة مقالات الأستاذ حول تزكية الأنفس) أربعة أجزاء،
	الجزء الأول: التلال الزمردية	مترجم إلى العربية
	الجزء الثاني: التلال الزمردية	
	الجزء الثالث: التلال الزمردية	
	الجزء الرابع: التلال الزمردية	
Asrın Getirdiği Tereddütler serisi	**سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة**	(نخبة مختارة من مجموعة من التساؤلات التي وجهت إلى الأستاذ في المساجد) مفرّغ من الأشرطة، أربعة أجزاء
1-A.G. Tereddütler-1	الجزء الأول: أسئلة العصر المحيرة	مترجم إلى العربية
2-A.G. Tereddütler-2	الجزء الثاني: أسئلة العصر المحيرة	
3-A.G. Tereddütler-3	الجزء الثالث: أسئلة العصر المحيرة	
4-A.G. Tereddütler-4	الجزء الرابع: أسئلة العصر المحيرة	
Prizma Serisi	**سلسلة المنشور الضوئي**	(دروس الأستاذ المسائية) مفرغة من الأشرطة، ثمانية أجزاء
1-Prizma-1	الجزء الأول: المنشور الضوئي	
2-Prizma-2	الجزء الثاني: المنشور الضوئي	
3-Prizma-3	الجزء الثالث: المنشور الضوئي	
4-Prizma-4	الجزء الرابع: المنشور الضوئي	
5-Kendi İklimimizi	الجزء الخامس: مناخُنا نحن	
6-Yol Mülahazaları	الجزء السادس: ملاحظات على الدرب	
7-Zihin Harmanı	الجزء السابع: بيدر الفكر	

8-Çizgimizi Hecelerken	الجزء الثامن: في تهجي خط سيرنا	
Fasıldan Fasıla Serisi	**سلسلة الفصول**	(دروس الأستاذ المسائية) مفرغة من الأشرطة، خمسة أجزاء
1-Fasıldan Fasıla-1	الجزء الأول: الفصول	
2-Fasıldan Fasıla-2	الجزء الثاني: الفصول	
3-Fasıldan Fasıla-3	الجزء الثالث: الفصول	
4-Fasıldan Fasıla-4	الجزء الرابع: الفصول	
5-Fikir Atlası	الجزء الخامس: أطلس الفكر	
Kırık Testi Serisi	**سلسلة الجرّة المشروخة**	(دروس الأستاذ المسائية في الولايات المتحدة الأمريكية) مفرغة من الأشرطة، عشرة أجزاء
1-Kırık Testi	الجزء الأول: الجرة المشروخة	
2-Sohbet-i Canan	الجزء الثاني: صحبة الحبيب	
3-Gurbet Ufukları	الجزء الثالث: آفاق الغربة	
4-Ümit Burcu	الجزء الرابع: فنار الأمل	
5-İkindi Yağmurları	الجزء الخامس: غيث الأصيل	
6-Diriliş Çağrısı	الجزء السادس: نداء البعث	
7-Ölümsüzlük İksiri	الجزء السابع: إكسير الخلود	
8-Vuslat Muştusu	الجزء الثامن: بشرى الوصال	
9-Kalb İbresi	الجزء التاسع: بوصلة القلب	
10-Cemre Beklentisi	الجزء العاشر: في ارتقاب الجمرة	
Tekellüm Arapça Dil Öğretim Seti	**سلسلة تعليم العربية بطريقة حديثة**	(خلاصة جهود الأستاذ في تعليم العربية لطلابه) صدرت في منتصف السبعينات، خمسة أجزاء
	الجزء الأول: تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الثاني: تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الثالث: تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الرابع: تعليم العربية بطريقة حديثة	

	الجزء الخامس: تعليم العربية بطريقة حديثة	
el-Kulubu'd-Dâria (Yakaran Gönüller)	القلوب الضارعة	(مجموعة الأوراد والأدعية، النص الأصلي باللغة العربية)
Dua Mecmuası	مجموعة الأدعية المأثورة	(مجموعة الأدعية المأثورة المنتخبة من كتب الصحاح)
İrşad Ekseni	طرق الإرشاد في الفكر والحياة	(مترجم إلى العربية)
Kader	القدر في ضوء الكتاب والسنة	(مترجم إلى العربية)
Cihad	روح الجهاد وحقيقته في الإسلام	(مترجم إلى العربية)
Kur'an'dan İdrake Yansıyanlar	أضواء قرآنية في سماء الوجدان	(نظرة بيانية تحليلية في بعض النصوص القرآنية، مترجم إلى العربية)
Ölçü veya Yoldaki Işıklar	الموازين أو أضواء على الطريق	(حكم ربّانية مستقاة من الكتاب والسنة، وممزوجة بخلاصة التجارب، مترجم إلى العربية)
Yaratılış Gerçeği ve Evrim	حقيقة الخلق ونظرية التطور	(مترجم إلى العربية)
Beyan	البيان	(جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية في مجلة يغمور (الغيث) الأدبية)
Fatiha Üzerine Mülahazalar	تأملات حول سورة الفاتحة	
İnancın Gölgesinde	في ظلال الإيمان	
Kırık Mızrap	ريشة العزف المكسورة	(ديوان شعري جمع فيه جملة ما كتبه الأستاذ من قصائد وأشعار)
Ölüm Ötesi Hayat	الحياة بعد الموت	
Varlığın Metafizik Boyutu	البُعد الميتافيزيقي للوجود	
Çekirdekten Çınara	من النواة إلى الشجرة	(كتاب في تربية الأولاد في الإسلام)

Renkler Kuşağı	ألوان وظلال في مرايا الوجدان	(تأملات لتجليات أسماء الله وصفاته في مظاهر الكون والوجود) مترجم إلى العربية
Kur’an’ın Altın İkliminde	في عالم القرآن الذهبي	
Enginliğiyle Bizim Dünyamız	عالمنا الفسيح	(نظرة آفاقية في البعد الإقتصادي في الإسلام وحله لجميع مشاكلنا الآنية)
Huzmeler ve İktibaslar	حزم وقبسات	
Röportajlar	**مقابلات صحفية**	
1-Küçük Dünyam	دنياي الصغيرة	
2-Ufuk Turu – Eyüp Can	جولة في الآفاق	
3-Gurbette F.G. - Nuriye Akman	مع فتح الله كولن في ديار الغربة	
4-Global Hoşgörü ve Newyork Sohbeti. – Nevval Sevindi	التسامح العالَمي وحوار نيويورك مع الأستاذ فتح الله كولن	
5-F. Gülen’le 11 Gün –M.Gündem	أحد عشر يومًا مع فتح الله كولن	

مسرد المفاهيم والمصطلحات

الأزل والأبد
الأزمات الذاتية والنفسية والداخلية
الأزمة المعرفية الحضارية
الأزمةُ المعرفية والثقافية والحضارية
أزمة في الفيزياء
الأساس الدائري
الأساليب الخطابية، المدرسية، التلقينية
أسباب البناء والعمران
الأسباب التاريخية والمعرفية والنفسية
أسباب الحكم والفتح
الأسباب الخارجية
الأسباب الذاتيةَ
أسباب الرشد وموانعه
أسباب دعوية حضارية
أسباب عقلية معرفية
أسباب فنية جمالية
أسباب قلبية إيمانية
الاستبطان
الاستثارة والإشكالية
الاستجابة والرفض المعرفي
الاستشكال والسؤال
الاستفادة الانتقائية التوليدية
استيراد النماذج الغربية
إسلام القوة
إسلام المعرفة
الإسلام حركية وفكر
الإسلام حضارة
الإسلام علم وعمل
الإسلام عمارة
أسلمة المعرفة
أسلوب التمثُّل.
الأسلوب الحكيم
الأسلوب القاموسي المدرسيّ
الأسلوب المدرسيَّ التقليديًّ
الأسلوب المغلق المنغلق
أسلوب مفتوح، ومعترف بالتحيزات
الأسئلة الديناميكية المولِّدة للفكر
الأسئلة الكبرى
أسئلة الوجود
الأصحاب والأعراب
إصلاح الفكر الإسلامي
إطار القيم والضوابط القيمية
الإطار النظريَّ لفهم العالَم
الأطروحة العلمية
أطلس الأفكار
إظهار الذات بالتأمُّل
إعادة قراءة القرآن
أعاصير العصبية القاتلة
الاعتبارات التعاقدية
الاعتبارات الجهوية، والمصلحية، والطائفية
الإعلان عن الاكتشاف
أعمال القلوب
الأعمال الموسوعية البينية

الانفصام بين الإيماني والمادي
الانفصام بين الجواني والبراني
الانفصام بين الدنيوي والأخروي
الانفصام بين العقل والقلب
الانفصام بين العلمي والعسكري
الانفصامُ بين الفقهي والسياسي
الانقباض النفسي
الانقلاب الجذري/الكلّي
إنكار الدين
الانهزام المفهوميُّ المسبق
انهزامنا الذاتيّ
الأهداف
الأوامر الإلهية التكوينية
الأوامر التشريعية
الأوهام
الأوهام والتخمينات/والشبهات
أيام مغلقة لمعالجة إشكالية الترجمة
الأيديولوجيات التوتاليرية
الأيديولوجية
أيديولوجية إقصائية خطيرة
إيقاع الهجرة
الإيمان بالعقل مصدرا وحيدا للمعرفة
البحث العلمي
البحث المنهجي
بحوث التأصيل
البحوث المقارنة
بحوث وصفية كلاسيكية

البداهة
البدهيات
البديل عن الديانة
بذور فكر الأستاذ
البراديم كولن
البرنامج الزمني
البرهان
البرهان بالخلف
البساطة
البسيط في رحم المعقَّد
بشائر أنوار الفجر
البشرية
بشريَّة المنهج
بطولة الروح والمعنى
البعث والتغيير
بعثة الخلائف
البعد الإنساني الكيفي التأويلي
البعد الحركي العالمي الحضاري
البعد الحركي للدلالة والتعريف
البعد العموديّ المتعمِّق
البعد الكوني الإلحادي
البعد الكوني التوحيدي
البعد الكوني للألفاظ
البعد النظري
البعد النفسي والاجتماعي
البناء الشمولي
البناء النظريّ

التراث الإسلامي
التراث العلمي
التراث الفقهي
التراثي
تراثي كلاسيكي
التراكم المعرفي
التركيب
تركيبية الظاهرة البشرية
التزامات مفاهيمية أداتية منهجية
التزويق الأدبي
التساقط على طريق الدعوة
تسامح الروح يطفو على مرآة اللسان
التسامح المصطلحي
التشيُّؤ
التصديق
التصرفات العفوية، والسلوك الواعي
التصميم المعياري الموحَّد
تصنيف العلوم
التصنيفات المعرفية المألوفة
التصور
التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة
التصور الكوني
التصوُّر المنهجي والفني
التصور والحكم والموقف
تصوراتنا الحضارية الكونية
التصوف
التصوف-لحركيٌّ
التطبُّع
التطبيقات البشرية النسبية
تطوُّر المدارك البشرية عبر الزمن
التطور المعرفي
تطور ديناميكي
التطوير المستمرِّ المستدام
التعبيرات المباشرة الصريحة
التعريض
التعريف
تعريف العلم
تعصُّب الفكر تفضحُه المصطلحات
التعمق المنهجي
التعمق في الأبعاد والدلالات
تعميم الخطاب
التفاعلات الرئيسة الأربعة في الطبيعة
التفاني والتضحية
التفرُّغ
التفسير
تفسير الوجود بفهم شمولي
التفقيه
التفكير السليم
التفكير العلمي الصحيح
التفكير النافذ
التفكير هندسياً
تقديس الماضي
التقرير والحكم
تقسيم المهام والمهمَّات

المصطلحات

الطموح نحو درجة عالية من اليقينية
الطموح نحو شمولية التفسير
الظاهرة الإنسانية
الظاهرة الإنسانية المركَّبة
الظاهرة الطبيعية
الظاهرة المتفرَّدة
ظاهرة معقَّدة
ظروف تاريخية واجتماعية
ظل الواقع المختزل
ظل لحقيقة الروح
الظلم باسم العلم
الظن
العادة والتقليد
العاشقون للحقيقة
العاطفة
عالَم الأشخاص
عالَم الأشياء
عالَم الأفكار
عالَم الحس
عالَم الدين
عالَم الروح والوجدان
العالِم لا يصنع المحيط
عالِم مسلم إنساني
العالِم يحرك الأمواج
عالمية الفكر الإسلامي
عبادة حضارية
عبادة فردية
العبارات الموجزة
العبثية والفوضى
عبقرية الإنسان الفرد
العجز عن التفكير
العجز عن الفعل
عداء العقل والفكر
عدم اعتقاد النهاية
عدمُ التناقض
عراقيل معرفية
العرفاني
عُرفنا الفكري واليومي
العزم على العمل
العشق
عشق الإله، وعشق الحقيقة
العصامية
عصبية مقيتة
عصر التنوير
عصور الانحطاط والتقليد والجمود
عقبة اللغة
العقد التاريخية المفتعَلة
العقد الصريح
عقدة الآخَر الثقافي
عقل الإنسانية
العقل التوليدي
العقل الذكي الأصمعي
العقل الموضوعي الفوتوغرافي المتلقي

النمط الشرقي
النمط الغربي
نمط بايكان
نمط تراحمي مفرط
نمط تراحمي منظَّم بالعقود
نمط تراحمي-تعاقدي
نمط تعاقدي رحيم
نمط تعاقدي صارم
النمطية القاتلة
النموذج
النموذج البديل
نموذج الرشد
نموذج الرصد الموضوعي المادي (المتلقي)
النموذج الشفَّاف
نموذج العالِم المسلم
النموذج الفكري الممكن
النموذج القرآني
النموذج المعرفي المادي الإلحادي الغربي
نموذج المنطاد
النموذج المنهجيّ
النموذج المهيمِن
نموذجٍ يعيش القضيَّة دوما
النهايات
النهايات تأتي ظلا لمؤشراتها
نهاية الإنسان
نهاية التاريخ
نهاية التاريخ الإنساني وبداية التاريخ الطبيعي
نهاية المعنى
نهاية النزاع بين ما هو ماديٌّ وما هو ميتافيزيقيٌّ
نهاية النفق الموصولة بالوحي الإلهي
النهضة العلمية
النوترينو
نور الكائنات
النورانية
النيتشوية
الهجرة
الهدف الجليل الكبير
الهدف الكوني
الهدف معالجة المرض لا القضاء على المريض
الهدف من العلم
هدم لا ينتهي بالبناء
الهرولة الدائبة من الخلق إلى الحق
هشاشة اللاَّأعلم
هلمَّ إليَّ يا إنسان
الهم المعرفي
الهمّة
الهيمنة المعرفية المادية اليوم
وا إنسانيتاه
الواحدية

كتب الأستاذ فتح اللّه كولن المترجمة إلى اللغة العربية

١- ونحن نقيم صرح الروح
٢- ونحن نبني حضارتنا
٣- التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-١
٤- ترانيم روح وأشجان قلب
٥- روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
٦- القدر في ضوء الكتاب والسنة
٧- الموازين أو أضواء على الطريق
٨- حقيقة الخلق ونظرية التطور
٩- أسئلة العصر المحيّرة
١٠- أضواء قرآنية في سماء الوجدان
١١- طرق الإرشاد في الفكر والحياة
١٢- ألوان وظلال في مرايا الوجدان
١٣- النور الخالد: محمد... مفخرة الإنسانية
١٤- القلوب الضارعة / إشراف: محمد فتح الله كولن

كتب ودراسات حول الأستاذ فتح اللّه كولن وفكره

١- عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن / د. فريد الأنصاري
٢- محاورات حضارية / د. جيل كارول
٣- البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة / د. محمد باباعمي
٤- فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية / أنس أركنه
٥- مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي
٦- الضاربون في الأرض / أديب إبراهيم الدباغ